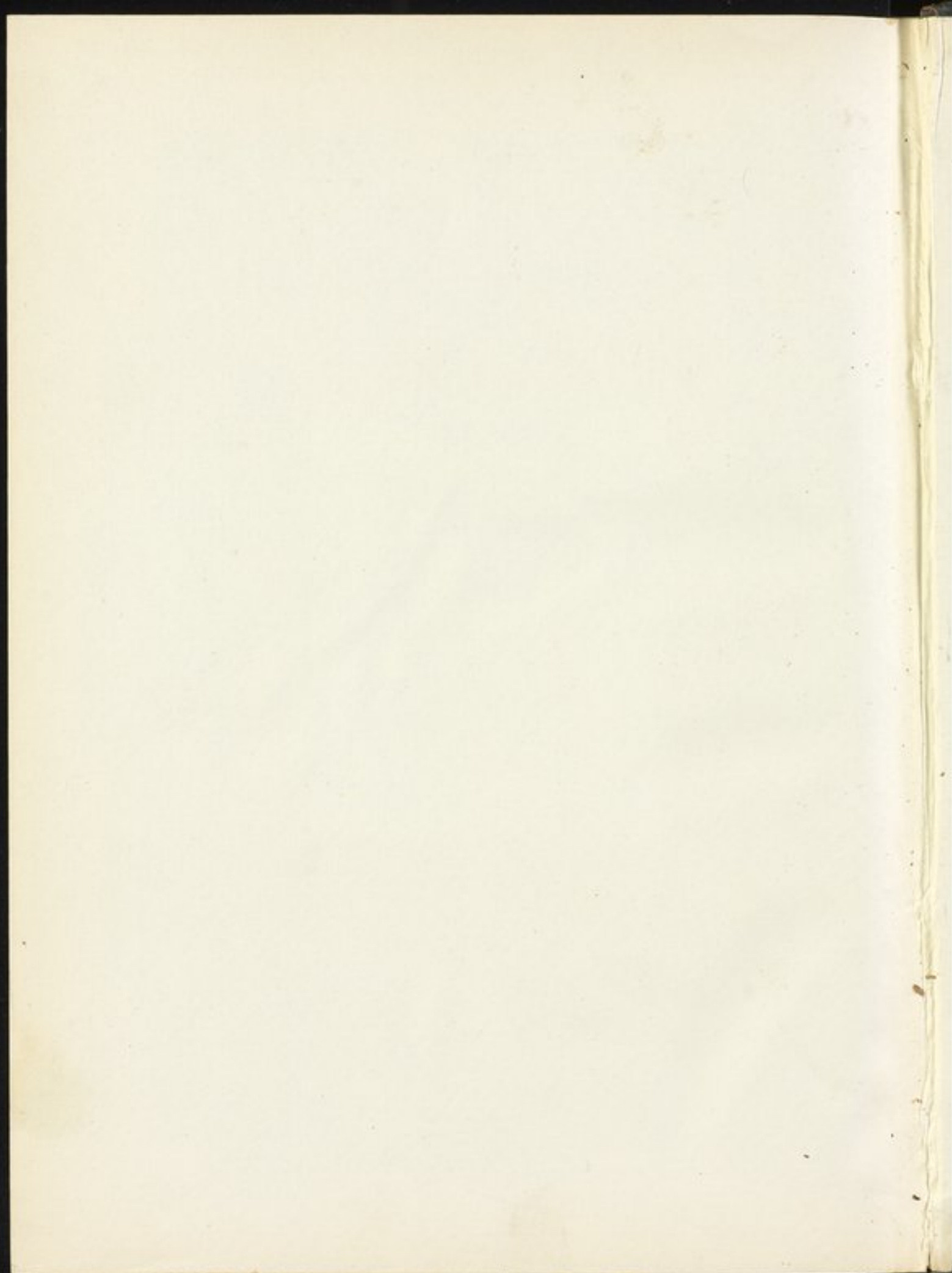




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY





VAR. 3136.

(Vol. 18)

التفسير الكبير

للإمام

الفخر الرازي

الجزء الثامن عشر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن محمد

مطبعة المطبعة الشرقية بمكة المكرمة

حقوق الطبع والنقل محفوظة للزوم

طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ ميلادية

893.7K84
DR741
v.18

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ «٤٥» قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا
تَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٤٦» قَالَ رَبِّ إِنِّي
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا أَيْسَرُ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ «٤٧»

قوله تعالى ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾
وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن قوله (رب إن ابني من أهلي) فقد ذكرنا الخلاف في أنه هل كان ابناً له أم لا فلا نعيده ، ثم إنه تعالى ذكر أنه قال (يا نوح إنه ليس من أهلك) واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابناً له وجب حمل قوله (إنه ليس من أهلك) على أحد وجهين : أحدهما : أن يكون المراد أنه ليس من أهل دينك . والثاني : المراد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية تدل على أن العبرة بقراءة الدين لا بقراءة النسب فإن في هذه الصورة

كانت قرابة النسب حاصله من أقوى الوجوه . ولكن لما اتفت قرابة الدين لاجرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله (إنه ليس من أهلك)

ثم قال تعالى ﴿انه عمل غير صالح﴾ قرأ الكسائي: عمل على صيغة الفعل الماضي ، وغير بالنصب ، والمعنى : أن ابنك عمل عملا غير صالح يعني أشرك وكذب ، وكلمة (غير) نصب ، لأنها نعت لمصدر محذوف ، وقرأ الباقون : عمل بالرفع والتنوين ، وفيه وجهان : الأول : أن الضمير في قوله إنه عائد الى السؤال ، يعني أن هذا السؤال عمل وهو قوله (ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق) غير صالح ، لأن طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم ، الجزم بأنه لا ينجى أحداً منهم سؤال باطل . الثاني : أن يكون هذا الضمير عائدا الى الابن . وعلى هذا التقدير ففني وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه : الأول : أن الرجل اذا كثرت عمله وإحسانه يقال له : إنه علم وكرم وجود ، فكذا ههنا لما كثرت إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل . الثاني : أن يكون المراد أنه ذو عمل باطل ، محذوف المضاف لدلالة الكلام عليه . الثالث : قال بعضهم معنى قوله (إنه عمل غير صالح أي أنه ولد زنا وهذا القول باطل قطعاً .

ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج بهذه الآية من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه :
 ﴿الوجه الأول﴾ أن قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهي محكمة ، وهذا يقتضي عود الضمير في قوله (إنه عمل غير صالح) إما إلى ابن نوح وإما إلى ذلك السؤال ، فالقول بأنه عائد إلى ابن نوح لا يتم إلا باضمار وهو خلاف الظاهر . ولا يجوز المصير إليه الا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا ، لأننا إذا حكمنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير ، ثبت أن هذا الضمير عائد الى هذا السؤال ، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح ، أي قولك : إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح ، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنباً ومعصية .

﴿الوجه الثاني﴾ أن قوله (فلا تسألن) نهى له عن السؤال ، والمذكور السابق هو قوله إن ابني من أهلي فدل هذا على أنه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنباً ومعصية

﴿الوجه الثالث﴾ أن قوله (فلا تسألن ما ليس لك به علم) يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لاعن العلم ، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

﴿الوجه الرابع﴾ أن قوله تعالى (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) يدل على أن ذلك السؤال

كان محض الجهل ، وهذا يدل على غاية التفرير ونهاية الزجر ، وأيضاً جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن . قال تعالى (يعملون سوءاً بجهالة) وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)

(الوجه الخامس) أن نوحاً عليه السلام اعترف بأقدامه على الذنب والمعصية في هذا المقام فانه قال (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنباً .

(الوجه السادس) في التمسك بهذه الآية أن هذه الآية تدل على أن نوحاً نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق ، والآية المتقدمة وهي قوله (ونادى نوح ابنه) وقال (يا بني اركب معنا) تدل على أنه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة . فنقول : إما أن يقال إن طلب هذا المعنى من الله كان سابقاً على طلبه من الولد أو كان بالعكس ، والأول باطل . لأن بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقاً على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله أنه تعالى لا يخلص ذلك الابن من الغرق ، وأنه تعالى نهاه عن ذلك الطلب ، وبعد هذا كيف قال له (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) وأما إن قلنا : إن هذا الطلب من الابن كان متقدماً فكان قد سمع من الابن قوله (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) وظهر بذلك كفره . فكيف طلب من الله تخليصه ، وأيضاً أنه تعالى أخبر أن نوحاً لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المفرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد أن صار من المفرقين ، فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام .

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من المعاصي ، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلهذا السبب حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار ، ولا يدل على سابقة الذنب كما قال (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره) ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وليس جميعهم مذنبين ، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل .

(المسألة الثانية) قرأ نافع برواية ورش وإسماعيل بتشديد النون وإثبات الياء (تسألني) وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء ، وقرأ أبو عمرو بتخفيف

النون وكسرها وحذف الياء (تسألن) أما التشديد فللتأكيد وأما إثبات الياء فعلى الأصل . وأما ترك التشديد والحذف فالتخفيف من غير إخلال .

واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) والمعنى أنه تعالى لما قال له (فلا تسألن ما ليس لك به علم) فقال عند ذلك قبلت يارب هذا التكليف ، ولا أعود اليه إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه إلا باعانتك وهدايتك ، فلهذا بدأ أولاً بقوله (إني أعوذ بك)

واعلم أن قوله (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) إخبار عما في المستقبل ، أي لا أعود إلى هذا العمل ، ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى ، فقال (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وحقيقة التوبة تقتضي أمرين : أحدهما : في المستقبل ، وهو العزم على الترك واليه الإشارة بقوله (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) والثاني : في الماضي وهو الندم على ماضى واليه الإشارة بقوله (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) ونحتم هذا الكلام بالبحث عن الزلّة التي صدرت عن نوح عليه السلام في هذا المقام . فنقول : إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره . ومؤمن يعلم إيمانه . وجمع من المنافقين ، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة . وحكم الكافرين هو العرق ، وكان ذلك معلوماً ، وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفياً . وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله . لا على كونه كافراً ، بل على الوجوه الصحيحة ، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجرى مجرى الركوب في السفينة في أنه يصونه عن العرق ، وقول نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح ، وهذا أيضاً لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافراً فعند هذه الحالة كان قد بقى في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن ، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق . إماماً بأن يمكنه من الدخول في السفينة ، وإما أن يحفظه على قلة جبل ، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه ، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره ، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن ، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد ، لأنه كان كافراً فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد ، كما قررنا ذلك في أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلّة إلا لأنه أخطأ في الاجتهاد ، فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد . والله أعلم .

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ

سَنَمْتَعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم

ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى أخبر عن السفينة أنها استوت على الجودي ، فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لا محالة ، ثم إنهم نزلوا من ذلك الجبل إلى الأرض فقوله (اهبط) يحتمل أن يكون أمراً بالخروج من السفينة إلى أرض الجبل . وأن يكون أمراً بالهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولاً ، ثم بالبركة ثانياً ، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحاً عليه السلام تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فكان نوح عليه السلام محتاجاً إلى أن يشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له (يا نوح اهبط بسلام منا) حصل له الأمن من جميع المكروه المتعلقة بالدين . والثاني : أن ذلك الفرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعند ما خرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالحائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكل والمشروب ، فلما قال الله تعالى (اهبط بسلام منا) زال عنه ذلك الخوف ، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء ، والثبات ، ونيل الأمل ، ومنه بروك الأبل ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها ، ومنه تبارك وتعالى ، أي ثبت تعظيمه ، ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء .

﴿فالقول الأول﴾ أنه تعالى صير نوحاً أباً للبشر ، لأن جميع من بقى كانوا من نسله وعند هذا

قال هذا القائل : إنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه بمن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته ، فالخلق كلهم من نسله وذريته ، وقال آخرون : لم يكن في سفينة نوح عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن أولاده ، والدليل عليه قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) فثبت أن نوحاً عليه السلام كان آدم الأصغر ، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها .

(والقول الثاني) أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات ، وعده بأن موجبات السلامة ، والراحة والفرافة يكون في التزايد والثبات والاستقرار . ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال (وعلى أمم ممن معك) واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات ، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلاهم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً ، ومنهم من قال : بل المراد بمن معك نسلاً وتولداً قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) ومنهم من قال : المراد من ذلك بمجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك ، والمختار هو القول الثاني (ومن) في قوله (ومن معك) لا ابتداء الغاية ، والمعنى : وعلى أمم ناشئة من الذين معك .

واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين : أحدهما : الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته إليهم وهم أهل الإيمان . والثاني : أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم ، فحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لا بد وأن ينقسموا إلى مؤمن ، وإلى كافر . قال المفسرون : دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، ثم قال أهل التحقيق : إنه تعالى إنما عظم شأن نوح بإيصال السلامة والبركات منه إليه ، لأنه قال (بسلام منا) وهذا يدل على أن الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث أنها نعمة . ولكنهم إنما يفرحون بالنعمة من حيث أنها من الحق ، وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم إلى الحق ، وهذا مقام شريف لا يعرفه إلا خواص الله تعالى ، فإن الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير ، والفرح بالسلامة والبركة من حيث أنهما من الحق غير ، والأول : نصيب عامة الخلق ، والثاني : نصيب المقرين ، ولهذا السبب قال بعضهم : من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ، ومن أثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاص لجنة

تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين «٤٩»

الوصول ، وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم (وأمم ستمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيباً من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا ، فإنه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر البتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا . ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر أنه يعطيهم الدنيا ، وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسدية والترغيب في المقامات الروحانية .

قوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال (تلك) أي تلك الآيات التي ذكرناها ، وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب ، أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق فقوله (تلك) في محل الرفع على الابتداء ، و(من أنباء الغيب) الخبر و(نوحيها إليك) خبر ثان وما بعده أيضاً خبر ثالث .

ثم قال تعالى ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ والمعنى : أنك ما كنت تعرف هذه القصة ، بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضاً ، ونظيره أن تقول لانسائي لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك :

فان قيل : أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم ؟ قلنا : تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة ، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة ثم قال ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ والمعنى : يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار ، وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه .

فان قال قائل : إنه تعالى ذكر هذه القصة في سورة يونس ثم إنه أعادها ههنا مرة أخرى ، فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه : ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب ، فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِ
 أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِ اجْرَىٰ إِلَّا عَلَيَّ الَّذِي
 فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

ثم في العاقبة ظهر . فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه السورة ذكر هذه القصة
 لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاء . فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار
 على الإيذاء والإيحاء كان حاصلًا في زمان نوح ، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر ،
 فكان يا محمد كذلك لتعال المقصود ، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه
 آخر لم يكن تكررها خاليا عن الفائدة .

قوله تعالى ﴿والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون
 يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى في هذه السورة ، واعلم أن هذا
 معطوف على قوله (ولقد أرسلنا نوحا) والتقدير : ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا وقوله
 (هوداً) عطف بيان .

واعلم أنه تعالى وصف هوداً بأنه أخوهم . ومعلوم أن تلك الاخوة ما كانت في الدين ، وإنما
 كانت في النسب ، لأن هوداً كان رجلاً من قبيلة عاد ، وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا
 بناحية اليمن ، ونظيره ما يقال للرجل يا أخا تميم ويا أخا سليم ، والمراد رجل منهم .

فان قيل : إنه تعالى ، قال : في ابن نوح (إنه ليس من أهلك) فبين أن قرابة النسب لا تنفد إذالم تحصل
 قرابة الدين ، وههنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف في الدين ، فما الفرق بينهما؟

قلنا : المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن قومه كانوا يستبعدون
 في محمد مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا اليهم من عند الله ، فذكر الله تعالى أن هوداً كان
 واحداً من عاد . وأن صالحاً كان واحداً من ثمود لازالة هذا الاستبعاد .

واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام ، أنه دعا قومه إلى أنواع من التكليف .
 ﴿فالنوع الأول﴾ أنه دعاهم إلى التوحيد ، فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم

الإمفترتون) وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الإله تعالى؟

قلنا: دلائل وجود الله تعالى ظاهرة، وهي دلائل الآفاق والآنفس. وقلنا توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى، ولذلك قال تعالى في صفة الكفار (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)

قال مصنف هذا الكتاب: محمد بن عمر الرازي رحمه الله وختم له بالحسن، دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله، وأكثر بلاد الترك أيضا كذلك، وإنما الشأن في عبادة الأوثان، فإنها آفة عمّت أكثر أطراف الأرض. وهكذا الأمر كان في الزمان القديم، أعني زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام، فكان قول (اعبدوا الله) معناه لا تعبدوا غير الله. والدليل عليه أنه قال عقيبه (مالككم من إله غيره) وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام.

وأما قوله (مالككم من إله غيره) فقرأه (غيره) بالرفع صفة على محل الجار والمجرور، وقرأه بالجر صفة على اللفظ.

ثم قال (إن أتمم الإمفترتون) يعني أنكم كاذبون في قولكم إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذبا واقتراء وهي جمادات لا حس لها ولا ادراك، والإنسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم إلى التوحيد ومنعهم عن عبادة الأوثان قال (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني) وهو عين ما ذكره نوح عليه السلام، وذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرة عن دنس الطمع، قوى تأثيرها في القلب.

ثم قال (أفلا تعقلون) يعني أفلا تعقلون أنى مصيب في المنع من عبادة الأصنام، وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع، كأنه مركز في بدائه العقول.

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التكليف التي ذكرها هود عليه السلام لقومه ، وذلك لأنه في المقام الأول دعاهم إلى التوحيد ، وفي هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة ، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة . قال أبو بكر الأصم : استغفروا ، أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على ماضى . وبالغزم على أن لا تعودوا إلى مثله ، ثم إنه عليه السلام قال «إنكم متى فعلتم ذلك فإِنَّه تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم» وهذا غاية ما يراد من السعادات ، فإن النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة ، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا ، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها ، فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى (يرسل السماء عليكم مدرارا) إشارة إلى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة ، وقوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ، ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات . وأن الزيادة عليها تمتنع في صريح العقل ، ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف مافي هذا الكتاب الكريم من الأسرار الخفية ، وأما المفسرون فأنهم قالوا القوم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال : أحدهما : أن بسايتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة ، والدليل عليه قوله (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) والثاني : أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ولذلك قالوا : من أشد منا قوة ، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدم هود عليه السلام ، أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوى حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة ، وتقل أيضا أن الله تعالى لما بعث هوداً عليه السلام إليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسايتهم فقال لهم هود : إن آمنت بالله أحيانا الله بلادكم ورزقكم المسال والولد ، فذلك قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) ففسروا هذه القوة بالمسال ولولد ، والشدة في الأعضاء ، لأن كل ذلك مما يقوى به الإنسان .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ
لَا تُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

فان قيل : حاصل الكلام هو أن هوداً عليه السلام قال : لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت
عليكم ابواب الخيرات الدنيوية ، وليس الامر كذلك ، لانه عليه الصلاة والسلام قال «خص البلاء
بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل» فكيف الجمع بينهما . وايضاً فقد جرت عادة القرآن بالترغيب
في الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والاخروية عليها ، فأما الترغيب في الطاعات ، لاجل
ترتيب الخيرات الدنيوية عليها ، فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور في التوراة .

الجواب : أنه لما أكثر الترغيب في السعادات الاخروية لم يبعد الترغيب أيضاً في خير الدنيا
بقدر الكفاية .

وأما قوله ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ فعناه : لاتعرضوا عنى وعماد دعوتكم اليه وأرغبكم فيه
بمجرمين أى مصرين على إجرامكم وآنابكم .

قوله تعالى ﴿قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين
إن نقول إلا اعتراض بعض آلِهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من
دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها
إن ربى على صراط مستقيم﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم ، حكى أيضاً ما ذكره القوم له وهو
أشياء : أولها : قولهم (ما جئنا ببينة) أى بحجة ، واليئة سميت بيئة لأنها تبين الحق من الباطل ، ومن
المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها ، وزعموا أنه ماجاء
بشيء من المعجزات . وثانيها : قولهم (وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك) وهذا أيضاً ركيك ، لانهم

كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجر ز عبادتها وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله بل من حكم نظر العقل وبديهة النفس . وثالثها : قوله (وما نحسب لك بمؤمنين) وهذا يدل على الاستمرار والتقليد والجحود . ورابعها : قولهم (إن نزل إلا اعتراضك بعض آلهتنا بسوء) يقال : اعتراه كذا إذا إذا غشيه وأصابه . والمعنى : أنك شمت آلهتنا فجعلتكم مجنوناً وأفسدت عقلك ، ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام (إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه) وهو ظاهر .

ثم قال (فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون) وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه (فاجمعوا أمركم وشركاءكم) إلى قوله (ولا تنظرون)

واعلم أن هذا معجزة قاهرة ، وذلك أن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم : بالغوا في عداوتي وفي موجبات إيذائي ولا توجلون فانه لا يقول هذا الا اذا كان ، اثقاً من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كمد الأعداء .

ثم قال (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) قال الأزهري : الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس . ويسمى الشعر الثابت هناك ناصية باسم منبت .

واعلم أن العرب اذا وصفوا انساناً بالذلة والخضوع . قالوا : ماناصية فلان الايد فلان ، أي أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته ، وكانوا اذا رأوا الأسير أرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره . فخرطبوا في القرآن بما يعرفون فقوله (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) أي مامن حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته ، وه نقاد لقضائه وقدره

ثم قال (إن ربي على صراط مستقيم) وفيه وجوه : الأول : أنه تعالى لما قال (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله (إن ربي على صراط مستقيم) أي أنه وإن كان قادراً عليهم ولكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم الا ما هو ائبق والعدل والصواب ، قالت المعتزلة قوله (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) يدل على التوحيد وقوا . (ان ربي على صراط مستقيم) يدل على العدل ، ثبت أن الدين انما يتم بالتوحيد والعدل . الثاني : أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله (إن ربي على صراط مستقيم) يعني أنه لا يخفى عليه مستتر ، ولا يفوته هارب ، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك الا عليه ، كما قال (إن ربك بالمرصاد) الثالث : أن يكون المراد (إن ربي) يدل على الصراط المستقيم ، أي يحث ، أو يحملكم بالدعاء اليه .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾
 وَمَا جَاءَ أَمْرُنَا بِنَجِينَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِينَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّدُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصُوا رُسُلَهُ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى ﴿فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضره شئاً ان ربي على كل شئ حفيظ﴾

اعلم ان قوله (فان تولوا) يعني فان تتولوا ثم فيه وجهان : الاول تقدير الكلام فان تتولوا لم اعاتب على تقصير في الابلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول : انتم الذين اصررتم على التكذيب . الثاني (فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم)

ثم قال ﴿ويستخلف ربي قوما غيركم﴾ يعني يخلق بعدكم من هو اطوع لله منكم ، وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال ولا تضره شئاً ، يعني ان اهلاككم لا ينقص من ملكه شئاً .

ثم قال ﴿ان ربي على كل شئ حفيظ﴾ وفيه ثلاثة اوجه : الاول : حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها . الثاني : يحفظني من شركم ومكرم . الثالث : حفيظ على كل شئ يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء .

قوله تعالى ﴿ولما جاء امرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا ان عاداً كفروا ربهم الا بعداً قوم هود﴾

اعلم ان قوله (ولما جاء امرنا) أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم . عندهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام ، تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كالمجاز نخل خاوية .

فان قيل : فهذه الريح كيف توثر في إهلا كههم ؟

قلنا : يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشدة قوتها ، فتخطف الحيوان من الأرض ، ثم تضربه على الأرض ، فكل ذلك محتمل .

وأما قوله ﴿نجينا هودا﴾ فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا ، وحيث تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر ، فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فانه يجب في حكمة الله تعالى أن ينجي المؤمن منه ، ولولا ذلك لما عرف كونه عذاباً على كفرهم ، فهذا السبب قال الله تعالى ههنا ﴿نجينا هودا والذين آمنوا معه﴾

وأما قوله ﴿برحمة منا﴾ فقيه وجوه : الأول : أراد أنه لا ينجو أحد وإن اجتهد في الإيمان والعمل الصالح إلا برحمة من الله ، والثاني : المراد من الرحمة : ما هداهم إليه من الإيمان بالله والعمل الصالح . الثالث : أنه رحمهم في ذلك الوقت ، وميزهم عن الكافرين في العقاب :

وأما قوله ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ فالمراد من النجاة الأولى : هي النجاة من عذاب الدنيا ، والنجاة الثانية من عذاب القيامة ، وإنما وصفه بكونه غليظاً؟ تنبيها على أن العذاب الذي حصل لهم بعد موتهم بالنسبة الى العذاب الذي وقعوا فيه كان عذابا غليظا ، والمراد من قوله تعالى ﴿ونجيناهم﴾ أي حكمتنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال (وتلك عاد) فهو إشارة الى قبورهم وآثارهم ، كأنه تعالى قال : سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا . ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة ، فأما أوصافهم فهي ثلاثة .

﴿الصفة الأولى﴾ قوله ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ والمراد : جحدوا دلالة المعجزات على الصدق ، أو الجحد ، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ، إن ثبت أنهم كانوا زنادقة .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله ﴿وعصوا رسله﴾ والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولا واحداً ، فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى (لا تفرق بين أحد من رسله) وقيل : لم يرسل إليهم إلا هود عليه السلام .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ والمعنى أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم (ما هذا إلا بشر مثلكم) والمراد من الجبار المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند ، وهو المنازع المعارض .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ
 أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ
 نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة
 ويوم القيامة) أي جعل اللعن رديفاً لهم ، ومتابعا ومصاحبا في الدنيا وفي الآخرة ، ومعنى اللعنة
 الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير .

ثم إنه تعالى بين السبب الأصلي في نزول هذه الأحوال المكروهة بهم فقال ﴿ألا إن عاداً
 كفروا ربهم﴾ قيل : أراد كفروا برهم مخذف الباء ، وقيل : الكفر هو الجحد . فالتقدير : ألا إن
 عاداً كفروا ربهم . وقيل : هو من ياب حذف المضاف أي كفروا بربهم ،
 ثم قال ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ وفيه سؤالان :
 ﴿السؤال الأول﴾ اللعن هو البعد ، فلما قال (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) فما
 الفائدة من قوله ﴿ألا بعداً لعاد﴾

والجواب : التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد .

﴿السؤال الثاني﴾ ما الفائدة في قوله (لعاد قوم هود)

الجواب : كان عاد . عادين ، فالأولى : القديمة هم قوم هود ، والثانية : هم إرم ذات العماد ، فذكر
 ذلك لازالة الاشتباه . والثاني : أن المبالغة في التنصيص تدل على مزيد التأكيد .

قوله تعالى ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من
 الأرض واستعمركم فيها فاستغفروا له ثم توبوا إليه إن ربِّي قريب مجيب قالوا يا صالح قد كنت فينا
 مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنتنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة . وهي قصة صالح مع ثمود ،
 ونظمها مثل النظم المذكور في قصة هود ، إلا أن ههنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر في تقريره دليلين :

﴿الدليل الأول﴾ قوله (هو أنشأكم من الأرض) وفيه وجهان :

(الوجه الأول) أن الكل مخلوقون من صلب آدم ، وهو كان مخلوقاً من الأرض . وأقول : هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه ، وذلك لأن الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث ، والمنى إنما تولد من الدم ، فالانسان مخلوق من الدم ، والدم إنما تولد من الأغذية ، وهذه الأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانات حالها كحال الانسان ، فوجب انتهاء الكل الى النبات وظاهر أن تولد النبات من الأرض ، ثبت أنه تعالى أنشأنا من الأرض .

(والوجه الثاني) أن تكون كلمة (من) معناها في التقدير : أنشأكم في الأرض ، وهذا ضعيف لانه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة إلى صرفه عنه . وأما تقرير أن تولد الانسان من الأرض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مراراً كثيرة .

(الدليل الثاني) قوله (واستعمركم فيها) وفيه ثلاثة أوجه : الأول : جعلكم عمارها ، قالوا : كان ملوك فارس قد أكثروا في حفر الأنهار وغرس الأشجار ، لاجرم حصلت لهم الأعمار الطويلة فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه ، ما سبب تلك الأعمار؟ فأوحى الله تعالى اليه أنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى ، وأخذ معاوية في إحياء أرض في آخر عمره فقيل له ما حملك عليه ، فقال : ما حملنى عليه الا قول القائل :

ليس الفقى بفقى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار

الثانى : أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق (واستعمركم) من العمر مثل استبقاكم من البقاء . والثالث : أنه مأخوذ من العمرى ، أى جعلها لكم طول أعماركم فإذا متم انتقلت الى غيركم . واعلم أن فى كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للانسان ، وكون الانسان قادراً عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ، ويرجع حاصله الى ما ذكره الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله (والذى قدر فهدى) وذلك لأن حدوث الانسان مع أنه حصل فى ذاته العقل الهادى والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح الموافقة للنافع يدل أيضاً على وجود الصانع الحكيم .

أما قوله (فاستغفروه ثم توبوا إليه) فقد تقدم تفسيره .

وأما قوله (إن ربي قريب مجيب) يعنى أنه قريب بالعلم والسمع (مجيب) دعاء المحتاجين بفضله ورحمته ، ثم بين تعالى أن صالحاً عليه السلام لما قره هذه الدلائل (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) وفيه وجوه : الأول : أنه لما كان رجلاً قوى العقل قوى الخاطر وكان من قبيلتهم قوى رجائهم فى أن ينصر دينهم ويقوى مذهبهم ويقرر طريقهم لانه متى حدث رجل فاضل فى قوم

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي

مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

طلبعوا فيه من هذا الوجه . الثاني : قال بعضهم المراد أنك كنت تعطف على قرائنا وتعين ضعفانا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أنك من الأنصار والأحباب ، فكيف أظهرت العداوة والبغضة ثم إنهم أضافوا الى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله (فقالوا أتأنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف ، ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا (أجعل الآلهة الها واحداً إن هذا لشيء عجاب ثم قالوا (وإننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب) والشك هو أن يبقى الانسان متوقفا بين النفي والاثبات والمريب هو الذي يظن به السوء فقوله (وإننا لفي شك) يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله وقوله (مريب) يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة في تزييف كلامه .

قوله تعالى ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله

إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾

اعلم أن قوله (إن كنت على بينة من ربي) ورد بحرف الشك وكان على يقين تام في أمره الآن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول ، فكأنه قال: قدروا أنى على بينة من ربي وأنى نبى على الحقيقة ، وانظروا أنى ان تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله فما تزيدونني على هذا التقدير غير تخسير ، وفي تفسير هذه الكلمة وجهان : الأول : أن على هذا التقدير تخسرون أعمالى وتبطلونها . الثاني : أن يكون التقدير فما تزيدونني بما تقولون لى وتحملونى عليه غير أن أخسركم أى أنسبكم الى الخسران ، وأقول لكم إنكم خاسرون ، والقول الأول أقرب لأن قوله (فمن ينصرني من الله إن عصيته) كالدلالة على أنه أراد إن أتبعكم فيما أتم عليه من الكفر الذى دعوتونى اليه لم أزد إلا خسرانا فى الدين فأصير من الهالكين الخاسرين .

ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴿٦٤﴾ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام
ذلك وعد غير مكذوب ﴿٦٥﴾

قوله تعالى ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم
عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾
اعلم أن العادة فيمن يدعى النبوة عند قوم يعبدون الأصنام أن يتدى بالدعوة إلى عبادة الله
ثم يتبعه بدعوى النبوة لا بد وأن يظلموا منه المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان، يروى أن
قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة
فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سألوا.

واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه، الأول: أنه تعالى خلقها من الصخرة وثانيها: أنه
تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق عنها الجبل. وثالثها: أنه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر. ورابعها:
أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة، وخامسها: ما روى أنه كان لها
شرب يوم. ولكل القوم شرب يوم آخر، وسادسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق
العظيم، وكل من هذه الوجوه معجز قوى وليس في القرآن. إلا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة،
فأما بيان أنها كانت معجزة من أي الوجوه فليس فيه بيانه.

ثم قال ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها، فصارت
مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها على ما روى أنه عليه السلام خاف عليها
منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر، فإن الخصم لا يجب ظهور حجة خصمه، بل يسمى
في إخفاها وإبطالها بأقصى الامكان، فلهذا السبب كان يخاف من إقدامهم على قتلها، فلهذا احتاط
وقال (ولا تمسوها بسوء) وتوعدهم إن مسوها بسوء بعذاب قريب، وذلك تحذير شديد لهم من
الإقدام على قتلها، ثم بين الله تعالى أنهم مع ذلك عقروها وذبحوها، ويحتمل أنهم عقروها لإبطال
تلك الحجة، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم، وأن يكون لأنهم رغبوا في شحمها ولحمها،
وقوله (فيأخذكم عذاب قريب) يريد اليوم الثالث، وهو قوله (تمتعوا في داركم) ثم بين تعالى أن

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
 فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ
 تَمُودَ ﴿٦٨﴾

القوم عقروها ، فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) ومعنى التمتع :
 التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس ، ولما كان التمتع لا يحصل الا للحي عبر به عن الحياة ،
 وقوله (في داركم) فيه وجهان : الأول : أن المراد من الدار البلد ، وتسمى البلاد بالديار ، لأنه
 يدار فيها أى يتصرف . يقال : ديار بكر أى بلادهم . الثانى : ان المراد بالديار الدنيا . وقوله (ذلك وعد
 مكذوب) أى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأىكم المفتون ، وقيل
 غير مكذوب فيه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد
 رغبتهم فى الإيمان ، وذلك لأنهم لم اعفروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب ، فقالوا
 وما علامة ذلك ؟ فقال : تصير وجوهكم فى اليوم الأول مصفرة ، وفى الثانى حمرة ، وفى الثالث
 مسودة ، ثم يأتىكم العذاب فى اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب
 فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب .
 فان قيل : كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة القول صالح عليه السلام ، ثم يقون
 مصرين على الكفر .

قلنا : مادامت الامارات غير بالغة إلى حد الجزم واليقين لم يتمتع بقاؤهم على الكفر وإذا صارت
 يقينية قطعية ، فقد انتهى الأمر إلى حد الاجلاء والإيمان فى ذلك الوقت غير مقبول .

قوله تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك
 هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن
 تمود كفروا ربهم ألا بعداً لتمود ﴾

اعلم أن مثل هذه الآية قد مضى فى قصة عاد ، وقوله (ومن خزي يومئذ) فيه مسائل :
 (المسألة الأولى) الواو فى قوله (ومن خزي) واو العطف وفيه وجهان : الأول : أن يكون

التقدير: نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزي الذي لزمهم وبقى العار فيه مأثوراً عنهم ومنسوباً إليهم ، لأن معنى الخزي العيب الذي تظهر فضيخته ويستحيا من مثله فحذف ما حذف اعتماداً على دلالة ما بقى عليه . الثاني: أن يكون التقدير: نجينا صالحاً برحمة منا ونجيناهم من خزي يومئذ .

(المسألة الثانية) قرأ الكسائي ونافع في رواية ورش وقلون وإحدى الروايات عن الاعشى (يومئذ) بفتح الميم ، وفي المعارج (عذاب يومئذ) والباقون بكسر الميم فهما فن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف الى اذ وأن اذ مبنى ، والمضاف الى المبنى يجوز جعله مبنياً ألا ترى أن المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتكثير فكذا ههنا ، وأما الكسر في اذ فالسبب أنه يضاف الى الجملة من المبتدأ والخبر تقول: جئتك اذ الشمس طالعة ، فلما قطع عنه المضاف اليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين . وأما القراءة بالكسر فعلى إضافة الخزي الى اليوم ولم يلزم من إضافته الى المبنى أن يكون مبنياً لأن هذه الإضافة غير لازمة .

(المسألة الثالثة) الخزي الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى في المحاريب (ذلك لهم خزي في الدنيا) وإنما سمي الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال (إن ربك هو القوي العزيز) وإنما حسن ذلك ، لأنه تعالى بين أنه أوصل ذلك العذاب إلى الكافر وصان أهل الايمان عنه ، وهذا التمييز لا يصح إلا من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذاباً وبالنسبة إلى إنسان آخر راحة وريحاناً ثم إنه تعالى بين ذلك الأمر فقال (وأخذ الذين ظلموا) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) إنما قال (أخذ) ولم يقل أخذت لأن الصيحة محمولة على الصباح ، وايضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل ، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ، وقد سبق لها نظائر .

(المسألة الثانية) ذكروا في الصيحة وجهين . قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد الصاعقة الثاني: الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فساتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جائئين في دورهم ومساكنهم ، وجثومهم سقوطهم على وجوههم ، يقال إنه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التي ماتوا بها ، ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها ، والصياح لا يكون إلا الصوت الحادث في حلق وفم وكذلك الصراخ ، فإن كان من فعل الله تعالى فقد خلقه في حلق حيوان وإن كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل في فمه وحلقه ، والدليل عليه أن صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى بذلك ولا بأنه صراخ .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ
جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ
فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

فان قيل : فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عند سبب قوى يوجب تموج الهواء
وذلك التموج الشديد ربما يتعدى إلى صمماخ الانسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت . والثاني :
أنها شيء مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والاعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت
الثالث : أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب فلا بد وأن يصحبها برق شديد محرق ، وذلك
هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما .

ثم قال تعالى ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ والجاثوم هو السكون يقال : للظير إذا باتت
في أوكارها أنها جثمت ، ثم إن العرب أطلقوا هذا اللفظ على ما لا يتحرك من الموت فوصف الله
تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عند الهلاك ، حتى كأنهم ما كانوا أحياء وقوله (كأن لم يغنوا فيها)
أي كأنهم لم يوجدوا ، والمعنى المقام الذي يقيم الحى به يقال : غنى الرجل بمكان كذا إذ أقام به .
ثم قال تعالى ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم (ألا إن
ثمود) غير منون في كل القرآن ، وقرأ الباقون (ثموداً) بالتثوين وثمود كلاهما بالصرف ، والصرف
للذهاب إلى الحى ، أو إلى الأب الأكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة .

قوله تعالى ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل
حنيد فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط
وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وههنا مسائل :

(المسألة الأولى) قال النحويون : دخلت كلمة «قد» ههنا لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم
السلام يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع ، ودخت اللام في «لقد» لتأكيد الخبر ولفظ (رسلنا) جمع

وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة ، وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل إلى اثباته إلا بدليل آخر ، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام ، ثم اختلفت الروايات فقيل : أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام . وهم الذين ذكروهم الله في سورة والذاريات في قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) وفي الحجر (ونبئهم عن ضيف إبراهيم)

(المسألة الثانية) اختلفوا في المراد بالبشرى على وجهين : الأول : أن المراد ما بشره الله بعد ذلك بقوله (فبشرناها بما سخط ومن وراء إسحق يعقوب) الثاني : أن المراد منه أنه بشر إبراهيم عليه السلام بسلامة لوط و باهلاك قومه .

وأما قوله (قالوا سلاما قال سلام) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ حمزة والكسائي (قالوا سلم قال سلم) بكسر السين وسكون اللام بغير ألف ، وفي والذاريات مثله . قال الفراء : لافرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لأن في التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه . قال أبو علي الفارسي : ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ما قدمه اليهم نكروهم وأوجس منهم خيفة قال إنا سلم ولست بحرب ولا عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من تناول طعام العدو ، وهذا الوجه عندى بعيد ، لأن على هذا التقدير ينبغي أن يكون تكلم إبراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد احضار الطعام ، إلا أن القرآن يدل على أن هذا الكلام إنما وجد قبل إحضار الطعام لأنه تعالى قال (قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) والفاء للتعقيب ، فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام .

(المسألة الثانية) قالوا سلاما تقديره : سلمنا عليك سلاماً قال سلام . تقديره : أمرى سلام ، أي لست مريدا غير السلامة والصلح . قال الواحدي : ويحتمل ان يكون المراد : سلام عليكم ، لجأه به مرفوعا حكاية لقوله كما قال : وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله (فصبر جميل) وإنما يحسن هذا الحذف إذا كان المقصود معلوما بعد الحذف ، وههنا المقصود معلوم فلا جرم حسن الحذف ، ونظيره قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) على حذف الخبر .

واعلم أنه إنما سلم بعضهم على بعض ، رعاية للأذن المذكور في قوله تعالى (لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)

(المسألة الثالثة) أكثر ما يستعمل (سلام عليكم) بغير ألف ولام ، وذلك لأنه في معنى الدعاء ، فهو مثل قولهم : خير بين يدك .

فان قيل : كيف جاز جعل النكرة مبتدأ ؟

قلنا : النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ ، فاذا قلت سلام عليكم : فالتنكير في هذا الموضع يدل على التمام والكمال ، فكأنه قيل : سلام كامل تام عليكم ، ونظيره قولنا : سلام عليك ، وقوله تعالى (قال سلام عليك سأستغفر لك ربى) وقوله (سلام قولا من رب رحيم - سلام على نوح فى العالمين - والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) فأما قوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) فهذا أيضا جائز ، والمراد منه الماهية والحقيقة . وأقول : قوله (سلام عليكم) أكمل من قوله : السلام عليكم ، لأن التنكير فى قوله (سلام عليكم) يفيد الكمال والمبالغة والتمام . وأما لفظ السلام : فانه لا يفيد إلا الماهية . قال الأخفش : من العرب من يقول : سلام عليكم . فيعربى قوله : سلام . عن الألف واللام والتنوين ، والسبب فى ذلك كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف . والله أعلم .

ثم قال تعالى (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) قالوا : مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتية ضيف فاعتم لذلك ، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافا لم ير مثلهم ، فعجل وجاء بعجل حنيد ، فقوله (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) معناه : فما لبث فى الحجى . به بل عجل فيه ، أو التقدير : فما لبث بجيئه والعجل ولد البقرة . أما الحنيد : فهو الذى يشوى فى حفرة من الأرض بالحجارة المحماة ، وهو من فعل أهل البادية معروف ، وهو مخوذ فى الأصل كما قيل : طيخ ومطبوخ ، وقيل : الحنيد الذى يقطر دسمه . يقال : حذت الفرس اذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقا .

ثم قال تعالى (فلسا رآى أيديهم لاتصل اليه) أى الى العجل ، وقال الفراء : الى الطعام ، وهو ذلك العجل (نكرهم) أى أنكرهم . يقال : نكره وأنكره واستنكره .

واعلم أن الأضياف إنما امتنعوا من الطعام لأنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وإنما أتوه فى صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها ، وهو كان مشغوبا بالضيافة . وأما إبراهيم عليه السلام . فنقول : إما أن يقال : إنه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة ، بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر ، أو يقال : إنه كان عالما بأنهم من الملائكة . أما على الاحتمال الأول فسبب خوفه أمران : أحدهما : أنه كان ينزل فى طرف من الأرض بعيد عن الناس ، فلبس امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروها ، وثانيها : أن من لا يعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان أكل حصل الأمن وإن لم يأكل حصل الخوف . وأما الاحتمال الثانى : وهو أنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى ،

فسبب خوفه على هذا التقدير أيضاً أمران : أحدها : أنه خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه : والثاني : أنه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه .

فان قيل : فأى هذين الاحتمالين أقرب وأظهر ؟

قلنا : أما الذي يقول إنه ما عرف أنهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمر : أحدها : أنه تسارع إلى إحضار الطعام ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك . وثانيها : أنه لما رآهم تمتنعين من الأكل خافهم ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الأكل على حصول الشر ، وثالثها : أنه رآهم في أول الأمر في صورة البشر ، وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة . وأما الذي يقول . إنه عرف ذلك احتج بقوله (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأى سبب أرسلوا ، ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) ومعناه : أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط ، لأنه أضمر لقيام الدليل عليه في سورة أخرى ، وهو قوله (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة)

ثم قال تعالى ﴿وامرأته قائمة﴾ يعني سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم إبراهيم عليه السلام ، وقوله (قائمة) قيل : كانت قائمة من وراء الستر تستمع إلى الرسل ، لأنها ربما خافت أيضاً . وقيل : كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم عليه السلام جالس معهم ، ويؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود (وامرأته قائمة) وهو قاعد .

ثم قال تعالى ﴿فضحكت فبشرناها بماحق﴾ واختلفوا في الضحك على قولين : منهم من حمه على نفس الضحك ، ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك . أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا في أنها لم ضحكت . وذكرها وجوها : الأول : قال القاضي إن ذلك السبب لا بد وأن يكون سبباً جرى ذكره في هذه الآية ، وما ذاك إلا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن إبراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه ، وفي مثل هذه الحالة قد يضحك الإنسان ، وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام (لاتخف) فكان كالبشارة ، فقيل لها : نجعل هذه البشارة بشارتين ، فكما حصلت البشارة بزوال الخوف ، فقد حصلت البشارة أيضاً بحصول الولد الذي كنتم تطلبونه من أول العمر إلى هذا الوقت وهذا تأويل في غاية الحسن . الثاني : يحتمل أنها كانت عظيمة الإنكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث ، فلما أظهروا أنهم جاؤوا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكت . الثالث : قال السدي قال إبراهيم عليه السلام لهم (ألا تأكلون) قالوا

لأننا كل طعاماً إلا بالثمن ، فقال : ثمنا أن تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمده على آخره ، فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام «حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلاً» فضحكت امرأته فرحاً منها بهذا الكلام . الرابع : أن سارة قالت لابراهيم عليه السلام أرسل الى ابن أخيك وضمه الى نفسك ، فان الله تعالى لا يترك قومه حتى يعذبهم ، فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على ابراهيم عليه السلام ، فلما أخبروه بأنهم إنما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقاً لقولها ، فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة . الخامس : أن الملائكة لما أخبروا ابراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لامن البشر وأنهم إنما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب ابراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى فظفر ذلك العجل المشوى من الموضوع الذى كان موضوعاً فيه إلى مرعاه ، وكانت امرأة ابراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه . السادس : أنها ضحكت تعجباً من أن قوماً أتاهم العذاب وهم في غفلة . السابع : لا يبعد أن يقال إنهم بشرها بحصول مطلق الولد فضحكت ، إما على سبيل التعجب فانه يقال إنها كانت في ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة و ابراهيم عليه السلام ابن مائة سنة ، وإما على سبيل السرور ، ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بأن ذلك الولد هو إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . الثامن : أنها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف ابراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه . التاسع : أن هذا على التقديم والتأخير والتقدير : وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق . فضحكت سروراً بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ، ومعناه التأخير . الثانى : هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالوا ضحكت أى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف ، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد ، وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت ، قال أبو بكر الأنبارى هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم ، حكى الليث في هذه الآية (فضحكت) طمئت ، وحكى الأزهرى عن بعضهم أن أصله من ضحك الطلعة يقال ضحكت الطلعة إذا انشقت .

واعلم أن هذه الوجوه كلها زوائد . وإنما الوجه الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسئلة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب ، والباقون بالرفع

أما وجه النصب ، فهو أن يكون التقدير : بشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق وهبنا لها يعقوب ، وأما

وجه الرفع فهو أن يكون التقدير : ومن وراء إسحاق يعقوب . مولود أو موجود .

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
 قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
 مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

(المسألة الثانية) في لفظ وراه قولان : الأول : وهو قول الأكثرين أن معناه بعد أى بعد إسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر . والثاني : أن الورا ولد الولد ، عن الشعبي أنه قيل له هذا ابنك ، فقال نعم من الورا ، وكان ولد ولده ، وهذا الوجه عندي شديد التعسف ، واللفظ كأنه ينبو عنه .

قوله تعالى (قالت ياويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال الفراء أصل الويل وى وهو الخزى ، ويقال : وى لفلان أى خزى له فقوله ويلىك أى خزى لك ، وقال سيويه : ويح زجر لمن أشرف على الهلاك ، وويل لمن وقع فيه . قال الخليل : ولم أسمع على بنائه إلا ويح ، وويس ، وويلك ، وويه ، وهذه الكلمات متقاربة فى المعنى وأما قوله (ياويلتا) فهم من قال هذه الألف الندبة وقال صاحب الكشاف : الألف فى ويلتا مبدلة من ياء الاضافة فى (ياويلتى) وكذلك فى يالهفا وياعجبا ثم أبدل من الياء والكسرة . الألف والفتحة ، لأن الفتح والألف أخف من الياء والكسرة
 أما قوله (ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو آلد بهمزة ومدة ، والباقون بهمزتين بلامد (المسألة الثانية) لقائل أن يقول إنها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر، بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه : أولها : قوله تعالى حكاية عنها فى معرض التعجب (ألد وأنا عجوز) وثانيها : قوله (إن هذا لشيء عجيب) وثالثها : قول الملائكة لها (أتعجبين من أمر الله) وأما بيان أن التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر، فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى ، وذلك يوجب الكفر .

والجواب : أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة فإن الرجل المسلم لو أخبره

فَلَسَا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ
لُوطٍ «٧٤» إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ «٧٥»

نخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهباً إبريزاً فلاشك أنه يتعجب نظراً إلى أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك .

(المسألة الثالثة) قوله (وهذا بعلي شيخاً) فاعلم أن شيخاً منصوب على الحال ، قال الواحدى رحمه الله : وهذا من لطائف النحر وغامضه فان كلمة هذا للاشارة ، فكان قوله (وهذا بعلي شيخاً) قائم مقام أن يقال أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ، والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة .

(المسألة الرابعة) قرأ بعضهم (وهذا بعلي شيخ) على أنه خبر مبتدا محذوف ، أى هذا بعلي وهو شيخ ، أو بعلي بدل من المبتدا وشيخ خبر أو يكونان معاً خبرين ، ثم حكى تعالى أن الملائكة قالوا (أتعجبين من أمر الله) والمعنى : أنهم تعجبوا من تعجبها ، ثم قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) والمقصود من هذا الكلام ذكر مايزيل ذلك التعجب وتقديره : إن رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة ، وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت أن الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى إظهار خوارق العادات وإحداث البيئات والمعجزات ، فكيف يليق به التعجب .

وأما قوله (أهل البيت) فانه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ، ثم أكدوا ذلك بقولهم (إنه حميد مجيد) والحميد هو المحمود وهو الذى تحمد أفعاله ، والمجيد المساجد ، وهو ذو الشرف والكرم ، ومن محامد الأفعال إيصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ، ومن أنواع الفضل والكرم أن لا يمنع الطالب عن مطلوبه ، فاذا كان من المعلوم أنه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد ، فكيف يبق هذا التعجب فى نفس الأمر فثبت أن المقصود من ذكر هذه الكلمات ازالة التعجب .

قوله تعالى (فلساذهب عن إبراهيم الروع وجماته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم حلیم أواه منيب)

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة وهى قصة لوط عليه السلام ، واعلم أن الروع هو الخوف

وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى : أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد ، أخذ يجادلنا في قوم لوط وجواب لما هو قوله (أخذ) إلا أنه حذف في اللفظ لدلالة الكلام عليه ، وقيل تقديره : لما ذهب عن إبراهيم الروح جادلنا .
واعلم أن قوله (يجادلنا) أى يجادل رسلنا .

فان قيل : هذه المجادلة إن كانت مع الله تعالى فهي جراءة على الله ، والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ، ولأن المقصود من هذه المجادلة إزالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ما كان راضيا بقضاء الله تعالى وأنه كفر . وإن كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهي أيضا عجيبة ، لأن المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا إهلاك قوم لوط ، فان كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون في هذا الإهلاك فهذا سوء ظن بهم . وان اعتقد فيهم أنهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضى أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر .

والجواب : من وجهين :

(الوجه الأول) وهو الجواب الاجمالي أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال (ان إبراهيم لحليم أواه منيب) ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقبيه ما يدل على المدح العظيم .
(والوجه الثاني) وهو الجواب التفصيلي أن المراد من هذه المجادلة سعى إبراهيم في تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه :

(الوجه الأول) أن الملائكة قالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) فقال إبراهيم : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أنهلكونها؟ قالوا : لا . قال : فأربعون قالوا : لا . قال : فثلاثون قالوا : لا . حتى بلغ العشرة قالوا : لا . قال : أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أنهلكونها؟ قالوا : لا . فعند ذلك قال : إن فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا انامهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

ثم قال (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك إلا امرأتك) فإن بهذا أن مجادلة إبراهيم عليه السلام ، إنما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم .

(الوجه الثاني) يحتمل أن يقال إنه عليه السلام كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الإيمان والتوبة عن المعاصي ، وربما وقعت تلك المجادلات

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

بسبب أن إبراهيم كان يقول إن أمر الله ورد بإيصال العذاب . ومطلق الأمر لا يوجب الفور بل يقبل التأخر فاصبر وامتددة أخرى ، والملائكة كانوا يقولون إن مطلق الأمر يقبل الفور ، وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ، ثم أخذ كل واحد منهم بقرار مذهبه بالوجه المعلومه لخصت المجادلة بهذا السبب ، وهذا الوجه عندي هو المعتمد .

(الوجه الثالث) في الجواب لعل إبراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الأمر وكان ذلك الأمر مشروطاً بشرط فاختلفوا في أن ذلك الشرط هل حصل في ذلك القوم أم لا لخصت المجادلة بسببه ، وبالجملة نرى العلماء في زماننا يجادل بعضهم بعضاً عند التمسك بالنصوص ، وذلك لا يوجب القدرح في واحد منها فكذا ههنا .

ثم قال تعالى (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، أما الحليم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره ، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله (أواه منيب) لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى يحيى الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ، ووصفه أيضاً بأنه منيب ، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم أو يقال : إن من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد . فإن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً .

قوله تعالى (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنيهم آتيتهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطاً سئياً بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب) اعلم أن قوله (يا إبراهيم أعرض عن هذا) معناه : أن الملائكة قالوا له : اترك هذه المجادلة لأنه

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

قد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب إليهم وإذا لاح وجهه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل إلى دفعه فلذلك أمره بترك المجادلة ، ولما ذكروا (إنه قد جاء أمر ربك) ولم يكن في هذا اللفظ دلالة على أن هذا الأمر بماذا جاء لاجرم بين الله تعالى إنهم آتاهم عذاب غير مردود ، أي عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده .

ثم قال (ولما جاءت رسلنا لوطاً سئياً بهم وضاق بهم ذرعاً) وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا إبراهيم بالولد عليهم السلام . قال ابن عباس رضي الله عنهما : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه : الأول : أنه ظن أنهم من الإنس تخاف عليهم خبت قومه وأن يعجزوا عن مقاومتهم . الثاني : ساء مجيئهم لأنه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادراً على القيام بحق ضيافتهم . والثالث : ساء ذلك لأن قومه منعوه من ادخال الضيف داره : الرابع : ساء مجيئهم ، لأنه عرف بالخبر أنهم ملائكة وأنهم إنما جاؤا لاهلاك قومه ، والوجه الأول هو الأصح لدلالة قوله تعالى (وجاءه قومه يهرعون إليه) وبقية الآية ألفاظ ثلاثة لا بد من تفسيرها :

(اللفظ الأول) قوله (سئياً بهم) ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسئى مثل شغلته فشغل وسررته فسر . قال الزجاج : أصله سوى بهم الآن الواو سكنت ونقلت كسرتها إلى السين .

(واللفظ الثاني) قوله (وضاق بهم ذرعاً) قال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة والأصل فيه البعير يذرع يديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوته ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة . فيقال : مالى به ذرع ولا ذراع أى مالى به طاقة ، والدليل على صحة ما قلناه أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع فيقولون ضقت بالامر ذراعاً .

(واللفظ الثالث) قوله (هذا يوم عصيب) أى يوم شديد ، وإنما قيل للشديد عصيب لأنه يعصب الإنسان بالشر .

قوله تعالى (وجاءه قومه يهرعون إليه) ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم

رَشِيدٌ «٧٨» قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
مَا نُرِيدُ «٧٩» قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ «٨٠»

هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل شديد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) أنه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوهاً ولا أنظف ثياباً ولا أطيب رائحة منهم (بخاءه قومه يهرعون إليه) أي يسرعون ، وبين تعالى أن اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخيبي بقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذي كان فيه جبريل عليه السلام ، فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب ، فلم يطبقوا فتحه حتى كسروه ، ففسح أعينهم بيده فعموا ، فقالوا : يا لوط قد أدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة ، ولاهل اللغة في (يهرعون) قولان :

(القول الأول) أن هذا من باب ما جاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولا يعرف له فاعل نحو : أولع فلان في الأمر ، وأرعد زيد ، وزهى عمرو من الزهو .

(والقول الثاني) أنه لا يجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول ، وهذه الأفعال حذف فاعلوها فتأويل أولع زيد أنه أولعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهياً وأهرع معناه أهرعه خوفه أو حرصه . واختلفوا أيضاً فقال بعضهم : الأهراع هو الإسراع مع الرعدة . وقال آخرون : هو العدو الشديد .

أما قوله تعالى (قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) ففيه قولان : قال قتادة . المراد بناته لصلبه . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : المراد نساء أمته ؛ لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة . قال أهل النحو : يكنى في حسن الإضافة أدنى سبب ، لأنه كان نياً لهم فكان كالأب لهم . قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) وهو أب لهم وهذا القول عندي هو المختار ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متباعد لا يليق بأهل المروءة ، فكيف بأكابر الأنبياء ؟ الثاني : وهو أنه قال (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) فبناته اللواتي من

صلبه لا تكفى للجمع العظيم . أما نساء أمته فقيهن كفاية لكل . الثالث : أنه صححت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا ، وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ، فأما القائلون بالقول الأول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم الى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم الى التزوج بهن ، وفيه قولان : أحدهما : أنه دعاهم الى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الايمان . والثاني : أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته ، وهكذا كان في أول الاسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب . ثم نسخ ذلك بقوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وبقوله (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) واختلفوا أيضاً ، فقال الآكثرون : كان له بنتان ، وعلى هذا التقدير ذكر الاثنتين بلفظ الجمع ، كما في قوله فان كان له اخوة (فقد صغت قلوبكما) وقيل : إنهن كن أكثر من اثنتين .

أما قوله تعالى ﴿هن أطهر لكم﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ ظاهر قوله (هن أطهر لكم) يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهراً ومعلوم أنه فاسد ولأنه لا تطهارة فى نكاح الرجل ، بل هذا جار مجرى قولنا : الله أكبر ، والمراد أنه كبير ولقوله تعالى (أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم) ولاخير فيها ولما قال أبو سفيان : اعل أحدا واعل هبل قال النبي «الله أعلى وأجل» ولا مقارنة بين الله وبين الصنم

﴿المسألة الثانية﴾ روى عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا (هن أطهر لكم) بالنصب على الحال كما ذكرنا فى قوله تعالى (وهذا بعل شيناً) الا أن أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لو قرئ (هؤلاء بناتي هن أطهر) كان هذا نظير قوله (وهذا بعل شيناً) إلا أن كلمة «هن» قد وقعت فى البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالا وطولوا فيه . ثم قال (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيقى) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو ونافع ولا تخزونى باثبات الياء على الاصل ، والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه .

﴿المسألة الثانية﴾ فى لفظ (لاتخزونى) وجهان : الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لاتفضحونى فى أضيافى ، يريد أنهم إذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة . والثانى : لاتخزونى فى ضيقى أى لاتخجلونى فيهم ، لأن مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل إلى الضيف يقال : خزى الرجل إذا استحيا .

(المسألة الثالثة) الضيف ههنا قائم مقام الأضياف ، كما قام الطفل مقام الاطفال . في قوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا) ويجوز أن يكون الضيف مصدراً فيستغنى عن جمعه كما يقال : رجال صوم . ثم قال (أليس منكم رجل رشيد) وفيه قولان : الأول : (رشيد) بمعنى مرشد أى يقول الحق ويرد هؤلاء الأوباش عن أضيافي . والثاني : رشيد بمعنى مرشد ، والمعنى : أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى إلى الصلاح . وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح ، والأول أولى .

ثم قال تعالى (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) وفيه وجوه : الأول : ما لنا في بناتك من حاجة ولا شهوة ، والتقدير أن من احتاج الى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، فلهذا السبب جعل نفي الحق كناية عن نفي الحاجة . الثاني : أن نجرى اللفظ على ظاهره فنقول : بمعناه إنهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن البتة . ولا يميل أيضاً طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذي يزيدنا وهو اشارة الى العمل الخيبي . الثالث (ما لنا في بناتك من حق) لأنك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لا نجيبك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق . ثم انه تعالى حكى عن لوط أنه عند سماع هذا الكلام قال (لو أن لي بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) جواب «لو» محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير : لمنعتكم ولبالغت في دفعكم ونظيره قوله تعالى (ولو أن قرأنا سيرت به الجبال) وقوله (ولو ترى اذ وقوفوا على النار) قال الواحدى وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع .

(المسألة الثانية) (لو أن لي بكم قوة) أى لو أن لي ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) والمراد السلاح ، وقال آخرون القدرة على دفعهم ، وقوله (أو آوى الى ركن شديد) المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيهاً له بالركن الشديد من الجبل ،

فان قيل : ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم ؟

قلنا : قال صاحب الكشاف : قرىء (أو آوى) بالنصب باضمار أن ، كأنه قيل لو أن لي بكم قوة أو آوياً .

واعلم أن قوله (لو أن لي بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة ، وفيه وجوه : الأول : المراد بقوله (لو أن لي بكم قوة) كونه بنفسه قادراً على الدفع وكونه متمكناً إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم ، والمراد بقوله

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصُلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ أَهْلَكَ بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ
أَلَيْسَ الصَّبْحُ بَقَرِيبٍ «٨١»

(أو آوى إلى ركن شديد) هو أن لا يكون له قدرة على الدفع ولكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطة. الثالث: أنه لما شاهد سفاهة القوم واقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بل الأولى أن آوى إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقوله (أو آوى إلى ركن شديد) كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم، ولذلك قال النبي عليه السلام «رحم الله أخي لوطا كان يأوى إلى ركن شديد»

قوله تعالى ﴿قالوا يا لوط إننا نرسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك أنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ اعلم أن قوله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام أنه قال (لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه، فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات: أحدها: أنهم رسل الله. وثانيها: أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به. وثالثها: أنه تعالى يهلكهم. ورابعها: أنه تعالى ينجيهم مع أهلهم من ذلك العذاب. وخامسها: إن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات، وروى أن جبريل عليه السلام قال له إن قومك لن يصلوا إليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم، وذلك قوله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم) ومعنى قوله (لن يصلوا إليك) أي بسوء ومكروه فانا نحول بينهم وبين ذلك. ثم قال (فأسر بأهلك) قرأ نافع وابن كثير (فأسر) موصولة والباقون بقطع الألف وهما لغتان، يقال سرى بالليل وأسرى وأنشد حسان:

أسرت إليك ولم تكن تسرى

فجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الألف فحجته قوله سبحانه وتعالى (سبحان الذي أسرى بعبده) ومن وصل فحجته قوله (والليل إذا يسر) والسرى السير في الليل. يقال: سرى يسرى إذا سار بالليل وأسرى بفلان إذا سير به بالليل. والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة، يريد أخرجوا ليلاً لتسبقوا نزول العذاب الذي موعده الصبح. قال نافع بن الأزرق لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أخبرني عن قول الله (يقطع من الليل) قال هو آخر الليل سحر، وقال قتادة: بعد طائفة من الليل، وقال آخرون هو نصف الليل فإنه في ذلك الوقت قطع بنصفين.

ثم قال ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الإنسان إلى ما وراءه، والظاهر أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأقشة وأصدقا، فالملائكة أمرتهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الأشياء ولا يلتفتوا إليها البتة، وكان المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الأشياء وقد يراد منه الانصراف أيضاً، كقوله تعالى (قالوا أجتنا لثقتنا) أي لتصرفنا، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله (ولا يلتفت منكم أحد) النهي عن التخلف.

ثم قال ﴿إلا امرأتك﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إلا امرأتك) بالرفع والباقون بالنصب. قال الواحدي: من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الأهل على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك والذي يشهد بصحة هذه القراءة أن في قراءة عبد الله (فأسر بأهلك إلا امرأتك) فأسقط قوله (ولا يلتفت منكم أحد) من هذا الموضع، وأما الذين رفعوا فالتقدير (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك)

فإن قيل: فهذه القراءة توجب أنها أمرت بالالتفات لأن القائل إذا قال لا يقم منكم أحد إلا زيد كان ذلك أمراً لزيد بالقيام.

وأجاب أبو بكر الأنباري عنه فقال: معنى (إلا) ههنا الاستثناء المنقطع على معنى، لا يلتفت منكم أحد، لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم، وإذا كان هذا الاستثناء منقطعاً كان التفاتها معصية ويتأكد ما ذكرنا بما روى عن قتادة أنه قال إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفت وقالت يا قوماء فأصابها حجر فأهلكها.

واعلم أن القراءة بالرفع أقوى، لأن القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهلها لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الأهل كأنه أمر لوطاً بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فإنها هالكة مع المهالكين، وأما القراءة بالنصب فإنها أقوى من وجه آخر، وذلك لأن مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلاً

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِيدُ ﴿٨٣﴾

ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعاً . ثم بين الله تعالى أنهم قالوا : إنه مصيبتها ما أصابهم . والمراد أنه مصيبتها ذلك العذاب الذي أصابهم . ثم قالوا (إن موعدهم الصبح) روى أنهم لما قالوا للوط عليه السلام (إن موعدهم الصبح) قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا (أليس الصبح بقريب) قال المفسرون إن لوطاً عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله في الليل .

قوله تعالى ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين يبعيد﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في الأمر وجهان : الأول : أن المراد من هذا الأمر ما هو ضد النهي ويدل عليه وجوه : الأول أن لفظ الأمر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعا للاشتراك . الثاني : أن الأمر لا يمكن حمله ههنا على العذاب ، وذلك لأنه تعالى قال (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) وهذا الجعل هو العذاب ، فدلّت هذه الآية على أن هذا الأمر شرط والعذاب جزاء ، والشرط غير الجزاء ، فهذا الأمر غير العذاب ، وكل من قال بذلك قال إنه هو الأمر الذي هو ضد النهي . والثالث : أنه تعالى قال : قبل هذه الآية (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فدل هذا على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب إلى قوم لوط وبايصال هذا العذاب إليهم .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى أمر جمعاً من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن في وقت معين . فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل ، فكان قوله (فلما جاء أمرنا) إشارة إلى ذلك التكليف .

فان قيل : لو كان الأمر كذلك ، لوجب أن يقال : فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها ، لأن الفعل صدر عن ذلك المأمور .

قلنا : هذا لا يلزم على مذهبنا ، لأن فعل العبد فعل الله تعالى عندنا . وأيضا أن الذي وقع منهم إنما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته ، فلم يبعد إضافته إلى الله عز وجل ، لأن الفعل كما تحسن إضافته إلى المباشر ، فقد تحسن أيضا إضافته إلى السبب .

{ القول الثاني } أن يكون المراد من الأمر ههنا قوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقد تقدم تفسير ذلك الأمر .

{ القول الثالث } أن يكون المراد من الأمر العذاب . وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار ، والمعنى : ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها ،

{ المسألة الثانية } اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى في هذه الآية بنوعين من الوصف فالأول : قوله (جعلنا عاليها سافلها) روى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الخمر ونباح الكلاب وصياح الديوك ، ولم تنكف لهم جرة ، ولم ينكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض . واعلم أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين : أحدهما : أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادات . والثاني : أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ، ولم تصل الآفة إلى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا . الثاني : قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) واختلفوا في السجيل على وجوه : الأول : أنه فارسي معرب وأصله سنككل وأنه شيء مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون في غاية الصلابة ، قال الأزهرى : لما عربته العرب صار عربياً وقد عربت حروفاً كثيرة كالديباخ والديوان والاستبرق . والثاني : سجيل ، أى مثل السجل وهو الدلو العظيم . والثالث : سجيل ، أى شديد من الحجارة . الرابع : مرسله عليهم من أسجلته إذا أرسلته وهو فعيل منه . الخامس : من أسجلته ، أى أعطيته تقديره مثل العطية في الادرار ، وقيل : كان كتب عليها أسامى المعذبين . السادس : وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب في الأزل أى كتب الله أن يعذبهم بها ، والسجيل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لأنه يتضمن أحكاماً كثيرة ، وقيل : مأخوذ من المساجلة وهي المفاخرة . والسابع : من سجيل أى من جهنم أبدلت النون لاما ، والثامن : من السماء الدنيا ، وتسمى سجيلا عن أبي زيد ، والتاسع : السجيل الطين ، لقوله تعالى (حجارة من طين) وهو قول عكرمة وقتادة . قال الحسن : كان أصل الحجر هو من الطين ، إلا أنه صلب بمرور الزمان ، والعاشر : سجيل موضع الحجارة ، وهي جبال مخصوصة ، ومنه قوله تعالى (من جبال فيها من برد)

واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات :

{ فالصفة الأولى } كونها من سجيل ، وقد سبق ذكره .

وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَتَّقُوا الْمَكِيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ مُّحِيطٍ «٨٤» وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا

(الصفة الثانية) قوله تعالى (منضود) قال الواحدى : هو مفعول من النضد ، وهو موضع
الشيء بعضه على بعض ، وفيه وجوه : الأول : أن تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض في النزول
فأتى به على سبيل المبالغة . والثاني : أن كل حجر فإن مافيه من الأجزاء منضود بعضها ببعض ،
وملتصق بعضها ببعض . والثالث : أنه تعالى كان قد خلقها في معادنها ونضد بعضها فوق بعض ،
وأعدّها لاهلاك الظلمة .

واعلم أن قوله (منضود) صفة للسجيل .

(الصفة الثالثة) مسومة ، وهذه الصفة صفة الأحجار ومعناها المعلمة ، وقد مضى الكلام فيه
في تفسير قوله (والخيل المسومة) واختلفوا في كيفية تلك العلامة على وجوه : الأول : قال الحسن
والسدى : كان عليها أمثال الخواتيم . الثاني : قال ابن صالح : رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها
خطوط حمر على هيئة الجزع . الثالث : قال ابن جريج : كان عليها سيما لا تشارك حجارة الأرض ،
وتدل على أنه تعالى إنما خلقها للعذاب . الرابع : قال الربيع : مكتوب على كل حجر اسم
من رمى به .

ثم قال تعالى (عند ربك) أى فى خزائنه التى لا يتصرف فيها أحد إلا هو .

ثم قال (وما هى من الظالمين يبعيد) يعنى به كفار مكة ، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها .
عن أنس أنه قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال . يعنى
عن ظالمى أمتك ، مامن ظالم منهم إلا وهو بمعرض ججر يسقط عليه من ساعة الى ساعة . وقيل :
الضمير فى قوله (وما هى) للقرى . أى وما تلك القرى التى وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة
يبعيد ، وذلك لأن القرى كانت فى الشام ، وهى قريب من مكة .

قوله تعالى (وإلى مدین أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا
المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴿

اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة . واعلم أن مدين اسم ابن لبراهيم عليه السلام ، ثم صار اسماً للقبيلة ، وكثير من المفسرين يذهب الى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام . والمعنى على هذا التقدير : وأرسلنا الى أهل مدين نخذف الأهل .

واعلم أنا بينا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة الى التوحيد ، فلهذا قال شعيب عليه السلام (مالك من إله غيره) ثم إنهم بعد الدعوة الى التوحيد يشرعون في الأهم ثم الأهم ، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان ، دعاهم الى ترك هذه العادة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) والنقص فيه على وجهين : أحدهما : أن يكون الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره . والآخر : أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير ، وفي القسمين حصل النقصان في حق الغير . ثم قال (إني أراكم بخير) وفيه وجهان : الأول : أنه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة إن لم يتوبوا فكأنه قال : اتركوا هذا التطفيف وإلا أزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة . والثاني : أن يكون التقدير أنه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف . ثم قال (وإني أخاف عليكم عذاب يوم مبيض) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أخاف أى أعلم حصول عذاب يوم مبيض وقال آخرون : بل المراد هو الخوف ، لأنه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائماً فالخاصل هو الظن لا العلم .

(البحث الثاني) أنه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد ، والمحيط من صفة اليوم في الظاهر ، وفي المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله (هذا يوم عصيب)

(البحث الثالث) اختلفوا في المراد بهذا العذاب فقال بعضهم : هو عذاب يوم القيامة ، لأنه اليوم الذى نصب لاحاطة العذاب بالمعذنين ، وقال بعضهم : بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة

وقال بعضهم : بل المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا كما في حق سائر الأنبياء والأقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة في الوعد كقوله (وأحيط بثمره) ثم قال (وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط)

فان قيل : وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه لأنه قال أولا (ولانتقصوا المكيال والميزان) ثم قال (أوفوا المكيال والميزان) وهذا عين الأول . ثم قال (ولانتخسوا الناس أشياءهم) وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : إن فيه وجوهاً :

(الوجه الأول) أن القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتج في المنع منه إلى المبالغة والتأكيد ، والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام .

(والوجه الثاني) أن قوله (ولانتقصوا المكيال والميزان) نهى عن التنقيص وقوله (أوفوا المكيال والميزان) أمر بإيفاء العدل ، والنهي عن ضد الشيء مغاير للأمر به ، وليس لقائل أن يقول : النهي عن ضد الشيء أمر به ، فكان التكرير لازماً من هذا الوجه ، لانا نقول : الجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى جمع بين الأمر والشيء ، وبين النهي عن ضده للبالغة ، كما نقول : صل قرابتك ولا تقطعهم ، فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد . الثاني : أن نقول لانسلم أن الأمر كما ذكرتم لأنه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضاً عن أصل المعاملة ، فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بإيفاء الحق ، ليدل ذلك على أنه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات ، وإنما منع من التطفيف ، وذلك لأن طائفة من الناس يقولون إن المبايعات لاتنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية ، فلاجل ابطال هذا الخيال ، منع تعالى في الآية الأولى من التطفيف وفي الآية الأخرى أمر بالإيفاء ، وأما قوله ثالثاً (ولانتخسوا الناس أشياءهم) فليس بتكرير لأنه تعالى خص المنع في الآية السابقة بالنقصان في المكيال والميزان . ثم إنه تعالى عم الحكم في جميع الأشياء فظهر بهذا البيان أنها غير مكررة ، بل في كل واحد منها فائدة زائدة .

(والوجه الثالث) أنه تعالى قال في الآية الأولى (ولانتقصوا المكيال والميزان) وفي الثانية قال (أوفوا المكيال والميزان) والايفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام ، ولايحصل ذلك إلا إذا أعطى قدرأ زائداً على الحق ، ولهذا المعنى قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لايحصل إلا عند غسل جزء من أجزاء الرأس . فالحاصل : انه تعالى في الآية الأولى نهى عن النقصان ، وفي الآية الثانية أمر باعطاء قدر من الزيادة ولايحصل الجزم واليقين بأداء الواجب

إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكأنه تعالى نهى أولاً عن سعي الإنسان في أن يجعل مال غيره ناقصاً لتحصل له تلك الزيادة ، وفي الثانية أمر بالسعي في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله (بالقسط) يعنى بالعدل ومعناه الأمر بإفناء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالأمر بإيتاء الزيادة على ذلك غير حاصل . ثم قال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) والبخس هو النقص في كل الأشياء ، وقد ذكرنا أن الآية الأولى دلت على المنع من النقص في المكيال والميزان ، وهذه الآية دلت على المنع من النقص في كل الأشياء . ثم قال (ولا تعثوا في الأرض مفسدين)

فان قيل : العثو الفساد التام فقوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) جار مجرى أن يقال : ولا تفسدوا في الأرض مفسدين .

قلنا : فيه وجوه : الأول : أن من سعى في إيصال الضرر إلى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعي إلى إيصال الضرر إليه فقوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) معناه ولا تسعوا في افساد مصالح الغير فان ذلك في الحقيقة سعى منكم في افساد مصالح أنفسكم . والثاني : أن يكون المراد من قوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) مصالح دنياكم وآخرتكم . والثالث : ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان . ثم قال (بقية الله خير لكم) قرىء بقية الله وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى . ثم نقول المعنى : ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إفناء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعنى المال الحلال الذى يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن : بقية الله أى طاعه الله خير لكم من ذلك القدر القليل ، لأن ثواب الطاعة يبقى أبداً ، وقال قتادة : حظكم من ربكم خير لكم ، وأقول المراد من هذه البقية إما المال الذى يبقى عليه في الدنيا ، وأما ثواب الله ، وأما كونه تعالى راضياً عنه والكل خير من قدر التطفيف ، أما المال الباقى فلأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا في كل المعاملات إليه فيفتح عليه باب الرزق ، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه البتة فتضييق أبواب الرزق عليه ، وأما إن حملنا هذه البقية على الثواب فالأمر ظاهر ، لأن كل الدنيا تفى وتنقرض وثواب الله باق ، وأما إن حملناه على حصول رضا الله تعالى فالأمر فيه ظاهر ، فثبت بهذا البرهان أن بقية الله خير . ثم قال (إن كنتم مؤمنين) وإنما شرط الإيمان في كونه خيراً لهم لأنهم ان كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا أن السعى في تحصيل الثواب وفي الحذر من العقاب خير لهم من السعى في تحصيل ذلك القليل .

واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط ، فهذه الآية تدل بظاهرها على أن من لم يحترز

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ
فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

عن هذا التطفيف فانه لا يكون مؤمناً .

ثم قال تعالى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن يكون المعنى : إني نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير (وما أنا بعايكم بحفيظ) أي لا قدرة لي على منعكم عن هذا العمل القبيح . الثاني : أنه قد أشار فيما تقدم إلى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال (وما أنا عليكم بحفيظ) يعني لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالتم نعم الله عنكم وأنا لا أقدر على حفظها عليكم في تلك الحالة .

قوله تعالى ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (أصلاتك) بغير واو . والباقون (أصلواتك) على الجمع .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن شعيباً عليه السلام أمرهم بشيئين ، بالتوحيد وترك البخس فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة ، فقوله (أن تترك ما يعبد آباؤنا) إشارة إلى أنه أمرهم بالتوحيد وقوله (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) إشارة إلى أنه أمرهم بترك البخس . أما الأول : فقد أشاروا فيه إلى التمسك بطريقة التقليد ، لأنهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم يعني الطريقة التي أخذناها من آباؤنا وأسلافنا كيف تركها ، وذلك تمسك بمحض التقليد .

﴿المسألة الثالثة﴾ في لفظ الصلاة وههنا قولان : الأول : المراد منه الدين والإيمان ، لأن الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين ، أو نقول : الصلاة أصلها من الاتباع ومنه أخذ المصلي من الخيل الذي يتلو السابق لأن رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين والمراد : دينك يأمرك بذلك . والثاني : أن المراد منه هذه الأعمال المخصوصة ، روى أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم : أصلاتك تأمرك السخرية والهزؤ ، وبما أنك إذا رأيت معتوها يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له : هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ

فان قيل : تقدير الآية : أصلواتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما نشاء . وهم إنما ذكروا
هذا الكلام على سبيل الإنكار ، وهم ما كانوا ينكرون كونهم فاعلين في أموالهم ما يشاؤون ،
فكيف وجه التأويل .

قلنا : فيه وجهان : الأول : التقدير : أصلواتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا . وأن تترك فعل
مانشاء ، وعلى هذا فقوله (أو أن تفعل) معطوف على ما في قوله (ما يعبد آباؤنا) والثاني : أن تجعل
الصلاة أمره ونهاية والتقدير : أصلواتك تأمرك بأن تترك عبادة الآوثان وتهاك أن تفعل في أموالنا
مانشاء ، وقرأ ابن أبي عملة (أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء) بناء الخطاب فيهما وهو ما كان يأمرهم به
من ترك التطفيف والبخس والافتناع بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير .

ثم قال تعالى حكاية عنهم ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وفيه وجوه :
﴿الوجه الأول﴾ أن يكون المعنى إنك لأنك السفيه الجاهل إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل
الاستهزاء والسخرية به ، كما يقال للبخيل الحسيس لو رأك حاتم لسجد لك .

﴿الوجه الثاني﴾ أن يكون المراد إنك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد .
﴿الوجه الثالث﴾ أنه عليه السلام كان مشهوراً عندهم بأنه حلِيم رشيد ، فلما أمرهم بمفارقة
طريقتهم . قالوا له : إنك لأنك الحلِيم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب ، فكيف تنهانا عن دين
ألفيناه من آباؤنا وأسلافنا ، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفاً بالحلم والرشد وهذا
الوجه أصوب الوجوه .

قوله تعالى ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن
أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه
أنيب ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما

لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُتَوَّابًا ۝٩٠ وَإِن رَّبِّي رَحِيمٌ ۝٩١
 وَدُودٌ ۝٩٢

قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود
 في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره في الجواب عن كلماتهم فالأول قوله (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً) وفيه وجوه : الأول : أن قوله (إن كنت على بينة من ربي) إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال ، فانه يروى أن شعيباً عليه السلام كان كثير المال .

واعلم أن جواب إن الشرطية محذوف . والتقدير : أنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية وهي البينة والسعادات الجسمانية وهي المال والرزق الحسن فهل يسعني مع هذا الانعام العظيم أن أخون في وحيه وأن أخالفه في أمره ونهيه ، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لأنهم قالوا له (إنك لأنت الحليم الرشيد) فكيف يليق بك مع حملك ورشدك أن تنهانا عن دين آباءنا فكأنه قال إنما أقدمت على هذا العمل ، لأن نعم الله تعالى عندي كثيرة وهو أمرني بهذا التبليغ والرسالة ، فكيف يليق بي مع كثرة نعم الله تعالى علي أن أخالف أمره وتكليفه . الثاني : أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندي أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكراً ، ثم أنا رجل أريد إصلاح أحوالكم ولا أحتاج إلى أموالكم لأجل أن الله تعالى آتاني رزقاً حسناً فهل يسعني مع هذه الأحوال أن أخون في وحي الله تعالى وفي حكمه . الثالث : قوله (إن كنت على بينة من ربي) أي ما حصل عنده من المعجزة وقوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) المراد أنه لا يسألهم أجراً ولا جعلاً وهو الذي ذكره سائر الأنبياء من قولهم (لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على رب العالمين)

(المسألة الثانية) قوله (ورزقني منه رزقاً حسناً) يدل على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند الله تعالى وباعائه وأنه لا مدخل للكسب فيه ، وفيه تبيين على أن الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى ، وإذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالي بمخالفكم ولا أفرح بموافقكم ، وإنما أكون على تقرير دين الله تعالى وإيضاح شرائع الله تعالى .

(وأما الوجه الثاني) من الأجوبة التي ذكرها شعيب عليه السلام فقوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشاف: يقال خالفني فلان إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذاولى عنه وأنت قاصده ، و يلقاك الرجل صادرا عن الماء فسأله عن صاحبه . فيقول : خالفني إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه و اردأ وأنا ذاهب عنه صادرا ، ومنه قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لاستبدها دونكم فهذا بيان اللغة ، وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حلیم رشيد ، وذلك يدل على كمال العقل ، وكال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصول الاصلح ، فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترقتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسي لا بد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما إلى جزأين ، التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما في شيء من الأحوال البتة فلما اعترقتم لي بالحلم والرشد وترون أني لا أترك هذه الطريقة ، فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق ، وأشرف الأديان والشرائع .

(وأما الوجه الثالث) من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) والمعنى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي ، وقوله (ما استطعت) فيه وجوه : الأول : أنه ظرف . والتقدير: مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً . والثاني : أنه بدل من الإصلاح . أي المقدار الذي استطعت منه . والثالث : أن يكون مفعولاً له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حلیم رشيد ، وإنما أقروا له بذلك لأنه كان مشهوراً فيما بين الخلق بهذه الصفة ، فكأنه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالى أنى لا أسعى إلا فى الإصلاح وازالة الفساد والخصومة . فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايداء الناس ، فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضى منه إيقاع الخصومة واثارة الفتنة ، فانكم تعرفون أنى أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصلح والإصلاح بقدر طاقتى ، وذلك هو الابلاغ والانداز ، وأما الاجبار على الطاعة فلا أقدر عليه ، ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) وبين بهذا أن توكله واعتماده فى تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته .

واعلم أن قوله عليه السلام توكلت إشارة الى محض التوحيد ، لأن قوله عليه السلام توكلت يفيد

الحصر ، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وكيف وكل ماسوى الحق سبحانه يمكن لذاته ، فان بذاته ، ولا يحصل إلا باجاده وتكوينه ، وإذا كان كذلك لم يجز التوكل إلا على الله تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الذى ذكرناه ، وأما قوله (واليه أنيب) فهو إشارة إلى معرفة المعاد ، وهو أيضا يفيد الحصر لأن قوله (واليه أنيب) يدل على أنه لا مرجع للخلق الا إلى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته في كلامه بين قومه .

(وأما الوجه الرابع) من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيكم) قال صاحب الكشاف : جرم مثل كسب فى تعديته تارة إلى مفعول واحد وأخرى إلى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ، ومنه قوله تعالى (لا يجرمنكم شقاقى أن يصيكم) أى لا يكسبنكم شقاقى اصابة العذاب ، وقرأ ابن كثير (يجرمنكم) بضم الياء من أجرمته ذنبا إذا جعلته جارما له أى كاسبا له . وهو منقول من جرم المعتدى الى مفعول واحد ، وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه ، والقراءتان مستويتان فى المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظا كما ان كسبه مالا أفصح من أكسبه .

إذا عرفت هذا فتقول : المراد من الآية لا تكسبنكم معاداتكم اياى أن يصيكم عذاب الاستئصال فى الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ، ولقوم هود من الريح العقيم . ولقوم صالح من الرجفة ، ولقوم لوط من الخسف .

وأما قوله (وما قوم لوط منكم يبيعد) ففيه وجهان : الأول : أن المراد نفي البعد فى المكان لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين ، والثانى : أن المراد نفي البعد فى الزمان لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب عليه السلام ، وعلى هذين التقديرين فان القرب فى المكان وفى الزمان يفيد زيادة المعرفة وكال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب .

فان قيل : لم قال (وما قوم لوط منكم يبيعد) وكان الواجب أن يقال يبيعدين ؟

أجاب عنه صاحب الكشاف من وجهين : الأول : أن يكون التقدير ما إهلاكم شئ بعيدي . الثانى : أنه يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾

(وأما الوجه الخامس) من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله: واستغفروا ربكم من عبادة الأوثان ثم توبوا إليه عن البخس والنقصان إن ربى رحيم بأوليائه ودود. قال أبو بكر الأنباري: الودود في أسماء الله تعالى المحب لعباده، من قولهم وددت الرجل أوده، وقال الأزهري في كتاب شرح أسماء الله تعالى ويجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب، ومعناه أن عبادة الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة إفضاله وإحسانه على الخلق.

واعلم أن هذا الترتيب الذي راعاه شعيب عليه السلام في ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف. وذلك لأنه بين أولا أن ظهور البينة له وكثره إنعام الله تعالى عليه في الظاهر والباطن يمنعه عن الحياة في وحى الله تعالى ويصده عن التهاون في تكاليفه، ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا، ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح وإخفاء موجبات الفتن، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها، ثم لما بين صحة طريقته أشار إلى نفي المعارض وقال لا ينبغي أن تحملكم عداوتي على مذهب ودين تقعون بسببه في العذاب الشديد من الله تعالى، كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين، ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله (ثم توبوا إليه) ثم بين لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الإيمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته لعباده وجه لهم يوجب ذلك، وهذا التقرير في غاية الكمال.

قوله تعالى ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعيز﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بالغ في التقرير والبيان، أجابوه بكلمات فاسدة. فالأول: قولهم (يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) وفيه مسائل.

(المسألة الأولى) لقائل أن يقول: انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم، فلم قالوا (ما نفقه) والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات: فالأول: أن المراد: ما نفقه كثيرا مما تقول، لأنهم

كانوا لا يلقون اليه أفهامهم لشدة فقرتهم عن كلامه . وهو كقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) الثاني : أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزناً ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعباً بحديثه : ما أدري ما تقول . الثالث : أن هذه الدلائل التي ذكرها ما أفنتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث ، وما يجب من ترك الظلم والسرقة ، فقولهم (مانفقه) أي لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب .

(المسألة الثانية) من الناس من قال : الفقه اسم لعلم مخصوص ، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه . واحتجوا بهذه الآية وهي قوله (مانفقه كثيراً مما تقول) فأضاف الفقه الى القول . ثم صار اسماً لنوع معين من علوم الدين ، ومنهم من قال : انه اسم لمطلق الفهم . يقال : أوتي فلان فقهاً في الدين ، أي فهماً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» أي يفهمه تأويله .

(والنوع الثاني) من الأشياء التي ذكروها قولهم (وانا لنراك فينا ضعيفاً) وفيه وجهان : الأول : أنه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه ، والثاني : أن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير . واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه : الأول : أنه ترك للظاهر من غير دليل ، والثاني : أن قوله (فينا) يطل هذا الوجه : ألا ترى أنه لو قال : انا لنراك أعمى فينا كان فاسداً ، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم . الثالث : أنهم قالوا بعد ذلك (ولولا رهطك لرجمناك) فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطه ، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصرة ، وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصرة ، والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلمهم إنما حملوه عليه ، لأنه سبب للضعف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الأنبياء . الا أن هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في إثبات هذا المعنى لما بيناه . وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال : انه لا يجوز لكونه متعبداً فانه لا يمكنه الاحتراز عن النجاسات ، ولأنه يخل بجواز كونه حاكماً وشاهداً ، فلأن يمنع من النبوة كان أولى ، والكلام فيه لا يليق بهذه الآية ، لانا بينا أن الآية لا دلالة فيها على هذا المعنى .

(والنوع الثالث) من الأشياء التي ذكروها قولهم (ولولا رهطك لرجمناك) وفيه مسألتان : (المسألة الأولى) قال صاحب الكشف : الرهط من الثلاثة الى العشرة ، وقيل إلى السبعة ، وقد كان رهطه على ملتهم . قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك ، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ، ولا وقع له في صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

لأجل احترامهم رهطه .

(المسألة الثانية) الرجم في اللغة عبارة عن الرمي ، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ، ولما كان هذا الرجم سبباً للقتل لاجرم سموا القتل رجماً ، وقد يكون بالقول الذي هو القذف ، كقوله (رجماً بالغيب) وقوله (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) وقد يكون بالشم واللعن ، ومنه قوله (الشیطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رجوماً للشياطين)

إذا عرفت هذا ففي الآية وجهان : الأول (لرجمناك) لقتلناك . الثاني : لشتمناك وطرردناك .

(النوع الرابع) من الأشياء التي ذكرها قولهم (وما أنت علينا بعزير) ومعناه أنك لما لم تكن علينا عزيراً سهل علينا الاقدام على قتلك وإيذائك .

واعلم أن كل هذه الوجوه التي ذكرها ليست دافعاً لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبيئات ، بل هي جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشم والسفاهة .

قوله تعالى ﴿قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيظ ويأقوم أعمالوا على مكاتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إنى معكم رقيب﴾

اعلم أن الكفار لما خوفوا شعيباً عليه السلام بالقتل والإيذاء . حكى الله تعالى عنه ما ذكره في هذا المقام ، وهو نوعان من الكلام :

(النوع الأول) قوله (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيظ) والمعنى : أن القوم زعموا أنهم تركوا إيذاه رعاية لجانب قومه . فقال : أتم تزعمون أنكم تتركون قتلى إكراماً لرهطى ، والله تعالى أولى أن يتبع أمره ، فكانه يقول : حفظكم

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ «٩٤» كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآبَعْدَا
لَمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ «٩٥»

إيأى رعاية لأمر الله تعالى أولى من حفظكم إيأى رعاية لحق رهطى .

وأما قوله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ فالمعنى : أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لا يعاب به . قال صاحب الكشاف : والظهري منسوب الى الظهر ، والكسر من تغيرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة الى الأمس أمسى بكسر الهمزة . وقوله (إن ربى بما تعملون محيط) يعنى أنه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها .

﴿ والنوع الثانى ﴾ قوله (وياقوم اعملوا على مكاتكم إنى عامل) والمكاة الحالة يتمكّن بها صاحبها من عمله ، والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية الممكنة والقدرة وكل ما فى وسعكم وطاقتم من إيصال الشرور الى فانى أيضاً عامل بقدر ما آتانى الله تعالى من القدرة .

ثم قال ﴿ سوف تعلمون من يأتىه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ وفيه مسألان

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقائل أن يقول لم لم يقل (سوف تعلمون) والجواب : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل . وإما بحذف الفاء فإنه يجعله جواباً عن سؤال مقدر والتقدير : أنه لما قال (وياقوم اعملوا على مكاتكم إنى عامل) فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك ؟ فقال (سوف تعلمون) فظهر أن حذف حرف الفاء هنا أكل فى باب الفضاة والتهويل . ثم قال وارتقبوا إنى معكم رقيب) والمعنى : فانتظروا العاقبة إنى معكم رقيب . أى منتظر ، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضرب والصريم بمعنى الضارب والصارم ، أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرفع .

قوله تعالى ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا
 أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
 النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس
 الورد المرفود ﴿٩٩﴾

وقوله (ولما جاء أمرنا) يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكا من الملائكة بتلك
 الصيحة ، ويحتمل أن يكون المراد من الأمر العقاب ، وعلى التقديرين فأخبر الله أنه نجى شعباً ومن
 معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان : الأول : أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض
 رحمته ، تنبيها على أن كل ما يصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته . والثاني : أن يكون المراد
 من الرحمة الايمان والطاعة وسائر الأعمال الصالحة وهي أيضا ما حصلت إلا بتوفيق الله تعالى ،
 ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) وإنما ذكر الصيحة بالالف
 واللام إشارة إلى المعهود السابق وهي صيحة جبريل عليه السلام (فأصبحوا في ديارهم جائعين)
 والجائم الملازم لمكانه الذي لا يتحول عنه يعني أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة
 زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع في مكانه ميتاً (كأن لم يغنوا فيها) أي كأن لم يقيموا في ديارهم
 أحياء متصرفين مترددين .

ثم قال تعالى ﴿ألا بعداً لمدن كما بعدب ثمود﴾ وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وإنما قاس حالهم
 على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود .

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائته فاتبعوا أمر فرعون
 وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا في هذه
 لعنة ويوم القيامة بئس الورد المرفود﴾

واعلم أن هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي آخر
 القصص من هذه السورة ، أما قوله (بآياتنا وسلطان مبين) ففيه وجوه : الأول : أن المراد من
 الآيات التوراة مع ما فيها من الشرائع والاحكام ، ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة

والتقدير : ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبيئات باهرة الثاني : أن الآيات هي المعجزات والبيئات وهو كقوله (إن عندكم من سلطان بهذا) وقوله (ما أنزل الله بها من سلطان) وعلى هذا التقدير في الآية وجهان : الأول : أن هذه الآيات فيها سلطان مبین لموسى على صدق نبوته . الثاني : أن يراد بالسلطان المبین العسا ، لأنه أشهرها وذلك لأنه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والآنفس . ومنهم من أبدل نقص الثمرات والآنفس باظلال الجبل وخلق البحر ، واختلفوا في أن الحجية لم سميت بالسلطان . فقال بعض المحققين : لأن صاحب الحجية يقهر من لاجحة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره . فلهذا توصف الحجية بأنها سلطان ، وقال الزجاج : السلطان هو الحجية والسلطان سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه واشتقاقه من السليط . والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث : وهو أن السلطان مشتق من التسليط ، والعلباء سلاطين بسبب كإلهم في القوة العلية والملوك سلاطين بسبب مامعهم من القدرة والمكنة ، إلا أن سلطنة العلباء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك ، لأن سلطنة العلباء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك قبلهما ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلباء وسلطنة العلباء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة .

فان قيل : إذا حملتم الآيات المذكورة في قوله (بآياتنا) على المعجزات والسلطان أيضاً على الدلائل والمبين أيضاً معناه كونه سبباً للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة ؟

قلنا : الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن ، وبين الدلائل التي تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين ، إلا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي تؤكد بالحس ، وبين الدلائل التي لم تتأكد بالحس ، وأما الدليل القاطع الذي تأكد بالحس فهو السلطان المبين ، ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لا جرم وصفها الله بأنها سلطان مبین . ثم قال (إلى فرعون وملائته) يعنى وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات إلى فرعون وملائته ، أى جماعته . ثم قال (فاتبعوا أمر فرعون) ويحتمل أن يكون المراد أمره إياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الأمر الطريق والشأن .

ثم قال تعالى «وما أمر فرعون برشيد» أى بمرشد إلى خير ، وقيل رشيد أى ذى رشد وأعلم أن بعد طريق فرعون عن الرشيد كان ظاهراً لأنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد وكان يقول : لا إله للعالم وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية

لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد في عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافياً لهذين الأمرين كان خالياً عن الرشد بالكلية ، ثم إنه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) وفيه بحثان :

(البحث الأول) من حيث اللغة يقال : قدم فلان فلاناً بمعنى تقدمه ، ومنه قادمة الرجل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه ، ومنه مقدمة الجيش .

(والبحث الثاني) من حيث المعنى وهو أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو يقال كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ، ويجوز أيضاً أن يريد بقوله (وما أمر فرعون برشيد) أى وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله (يقدم قومه) تفسيراً لذلك ، وإيضاحاً له ، أى كيف يكون أمره رشيداً مع أن عاقبته هكذا .

فان قيل : لم لم يقل : يقدم قومه فيوردهم النار ؟ بل قال : يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضي .

قلنا : لأن الماضي قد وقع ودخل في الوجود فلا سبيل البتة إلى دفعه ، فإذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة . ثم قال (وبئس الورد المورود) وفيه بحثان :

(البحث الأول) لفظ «النار» مؤنث ، فكان ينبغي أن يقال : وبئس الورد المورود إلا أن لفظ «الورد» مذكر ، فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك ، فن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدى .

(البحث الثاني) الورد قد يكون بمعنى الورد فيكون مصدراً وقد يكون بمعنى الوارد . قال تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذى يورد عليه . قال صاحب الكشاف : الورد المورود الذى حصل وردوه . فشبّه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء وشبّه أتباعه بالواردين إلى الماء ، ثم قال بئس الورد الذى يوردونه النار ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضده .

ثم قال (وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة) والمعنى أنهم أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وفى يوم القيامة أيضاً ، ومعناه أن اللعن من الله ومن الملائكة والأنبياء ملتصق بهم فى الدنيا وفى الآخرة لا يزول عنهم ، ونظيره قوله فى سورة القصص (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ «١٠٠» وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ «١٠١»

ثم قال ﴿بئس الرفد المرفود﴾ والرفد هو العطية وأصله الذي يعين على المطلوب سأل نافع بن الأزرق بن عباس رضى الله عنهما عن قوله ﴿بئس الرفد المرفود﴾ قال هو اللعنة بعد اللعنة . قال قتادة : ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وكل شيء جعلته عوناً لشيء فقد رفته به ،

قوله تعالى ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائمٌ وحصيدٌ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) والفائدة في ذكرها أمور : أولها : أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل ، وذلك إنما يكون في غاية الندرة . فإما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول .

﴿الوجه الثاني﴾ أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء عليهم السلام ينسكون بها . ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ، ثم يذكر عقبيهما أجمرة الأنبياء عنها ثم يذكر عقبيها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعدوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة ، فكان ذكر هذه القصص سبباً لا يصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين . وسبباً لازالة القسوة والغلظة عن قلوبهم ، فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه .

﴿الفائدة الثالثة﴾ أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ، ولا تلبذ لأحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه .

﴿الفائدة الرابعة﴾ أن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزندق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها ، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع انثناء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا

والعقاب في الآخرة ، فاذا تكررت هذه الأفاصيص على السمع ، فلا بد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص .

أما قوله ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ ففيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن قوله (ذلك) إشارة إلى الغائب ، والمراد منه ههنا الإشارة إلى هذه القصص التي تقدمت ، وهي حاضرة ، إلا أن الجواب عنه ماتقدم في قوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

﴿ البحث الثاني ﴾ أن لفظ « ذلك » يشار به إلى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى (لا يفرض ولا بكر عوان بين ذلك) وأيضاً يحتمل أن يكون المراد ذلك الذي ذكرناه هو كذا وكذا .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال صاحب الكشاف : « ذلك » مبتدأ (من أنباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعد خبر أي ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك . ثم قال (منها قائم وحصيد) والضمير في قوله (منها) يعود إلى القرى شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطر بالحصيد ، والمعنى أن تلك القرى بعضها بقي منه شيء وبعضها هلك وما بقي منه أثر البتة .

ثم قال تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلوا أنفسهم ﴾ وفيه وجوه : الأول : وما ظلمناهم بالعذاب والاهلاك ، ولكن ظلوا أنفسهم بالكفر والمعصية . الثاني : أن الذي نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة ، لأجل أن القوم أولا ظلوا أنفسهم بسبب اقتدامهم على الكفر والمعاصي فاستوجبوا لأجل تلك الأعمال من الله ذلك العذاب . الثالث : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد وما نقصناهم من النعيم في الدنيا والرزق ، ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى .

ثم قال ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴾ أي ما نفعتهم تلك الآلهة في شيء البتة .

ثم قال ﴿ وما زادهم غير تنبيء ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : غير تخسير . يقال : تب إذا خسر وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران ، والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار . ثم انه تعالى أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ما وجدوا منها شيئاً لا جلب نفع ولا دفع ضرر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لِّلنَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُوخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة ، فكان ذلك من أعظم موجبات الحسران .

قوله تعالى ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم والجحدري : (إذ أخذ القرى) بألف واحدة ، وقرأ الباقون بألفين .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام في كتابه بما فعل بأمر من تقدم من الأنبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال ، وبين أنهم ظلوا أنفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال بعده (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) فبين أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم ، بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله (وهي ظالمة) الضمير فيه عائد إلى القرى وهو في الحقيقة عائد إلى أهلها ، ونظيره قوله (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) وقوله (وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها)

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيد تأكيده وتقوية فقال (إن أخذه أليم شديد) فوصف ذلك العذاب بالايلام وبالشدة ، ولا منغصة في الدنيا إلا الألم ، ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة ، وفي الوهم والعقل الا تشديد الألم ،

واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فانه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لتلايقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام

مختصة بأولئك المتقدمين ، لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال (و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) فين أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي ، فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الاليم الشديد .

ثم قال تعالى ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ قال القفال : تقرير هذا الكلام أن يقال : إن هؤلاء إنما عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الانبياء وإشراكهم بالله ، فإذا عذبوا في الدنيا على ذلك وهي دار العمل ، فلان يعذبوا عليه في الآخرة التي هي دار الجزاء كان أولى .

واعلم أن كثيرا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه ، بل هو ضعيف . وذلك لأن على هذا الوجه الذي ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال في الدنيا دليلا على أن القول بالقيامة والبعث والنشور حق وصدق ، وظاهر الآية يقتضي أن العلم بأن القيامة حق كالشرط في حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال ، وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال ، لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلا للعلم بأن القيامة حق . فبطل ما ذكره القفال والاصوب عندي أن يقال : العلم بأن القيامة حق موقوف على العلم بأن المدبر لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لا موجب بالذات . والم يعرف الانسان أن إله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وأن جميع الحوادث الواقعة في السموات والارضين لا تحصل الا بتكويته وقضائه ، لا يمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال ، وذلك لان الذين يزعمون أن المؤثر في وجود هذا العالم موجب بالذات لفاعل مختار ، يزعمون أن هذه الاحوال التي ظهرت في أيام الانبياء مثل الغرق والحرق والحسف والمسح والصبحة كلها إنما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض ، وإذا كان الامر كذلك لحينئذ لا يكون حصولها دليلا على صدق الانبياء ، فأما الذي يؤمن بالقيامة ، فلا يتم ذلك الايمان الا اذا اعتقد أن إله العالم فاعل مختار وأنه عالم بجميع الجزئيات ، واذا كان الامر كذلك لزم القطع بأن حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة إنما كان بسبب أن إله العالم خلقها وأوجدها وأنها ليست بسبب طوابع الكواكب وقراناتها ، وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ، ويستدل بها على صدق الانبياء ، فثبت بهذا صحة قوله ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾

ثم قال تعالى ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين : أحدهما : أنه يوم مجموع له الناس ، والمعنى أن خلق الآء لين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون . والثاني : أنه يوم مشهود . قال ابن عباس رضى الله عنهما يشهده البر والفاجر . وقال آخرون يشهده أهل السماء

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْ شَرُّهُمْ شَرٌّ وَسَعِيدٌ «١٠٥» فَأَمَّا الَّذِينَ
 شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ «١٠٦» خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ «١٠٧» وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا
 فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ
 غَيْرَ مَجْذُوزٍ «١٠٨»

وأهل الأرض ، والمراد من الشهود الحضور ، والمقصود من ذكره أنه ربما وقع في قلب انسان أنهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه ، فبين تعالى أن تلك الوقائع تصير معلومة لكل بسبب المحاسبة والمساءلة .

ثم قال تعالى ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ والمعنى أن تأخير الآخرة وإفناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ما كان متناهما فإنه لا بد وأن يفنى ، فيلزم أن يقال إن تأخير الآخرة سيقتضى الى وقت لا بد وأن يقيم الله القيامة فيه ، وأن تخرب الدنيا فيه ، وكل ما هو آت قريب .

قوله تعالى ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد فاما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمره (بأت) بحذف الياء والباقون باثبات الياء . قال صاحب الكشاف : وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ، ونحوه قولهم لا أدر حكاة الخليل وسيبويه .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف : فاعل يأتي هو الله تعالى كقوله (هل ينظرون

إلا أن يأتيهم الله) وقوله (أو يأتي ربك) ويعضده قراءة من قرأ (وما يؤخره) بالياء أقول لا يعجبنى هذا التأويل ، لأن قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) حكاة الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود ، وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله (أو يأتي ربك) أما هنا فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الايتان اليه مشكل .

فان قالوا : فما قولك في قوله تعالى (وجاء ربك)

قلنا : هناك تأويلات ، وأيضاً فهو صريح ، فلا يمكن دفعه فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال : المراد منه يوم يأتي الشيء المهيب الهائل المستعظم ، فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى في التخويف .

(المسألة الثالثة) قال صاحب الكشاف : العامل في اتصاب الظرف هو قوله (لا تكلم) أو اضمار اذكر .

أما قوله (لا تكلم نفس إلا باذنه) ففيه حذف ، والتقدير : لا تكلم نفس فيه إلا باذن الله تعالى .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) ومنها أنهم يكذبون ويخلفون بالله عليه وهو قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) ومنها قوله تعالى (وقفوا لهم إنهم مسؤولون) ومنها قوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)

والجواب من وجهين : الأول : أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على الجوابات الحقة الصحيحة . الثاني : أن ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم .

أما قوله (فمنهم شق وسعيد) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف : الضمير في قوله (فمنهم) لاهل الموقف ولم يذكر لأنه معلوم ولأن قوله (لا تكلم نفس إلا باذنه) يدل عليه لأنه قد مر ذكر الناس في قوله (بمجموع له الناس)

(المسألة الثانية) قوله (فمنهم شق وسعيد) يدل ظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين .

فان قيل : أليس في الناس مجانين واطفال وهم خارجون عن هذين القسمين ؟
قلنا : المراد من يحشر من أطلق للحساب وهم لا يخرجون عن هذين القسمين .
فان قيل : قد احتج القاضى بهذه الآية على فساد ما يقال إن أهل الأعراف لا في الجنة
ولا في النار فما قولكم فيه ؟

قلنا : لما سلم أن الاطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لأنهم لا يحاسبون فلم لا يجوز
أيضاً أن يقال : إن أصحاب الأعراف خارجون عنه لأنهم أيضاً لا يحاسبون ، لأن الله تعالى علم من
حالمهم أن ثوابهم يساوى عذابهم ، فلا فائدة في حسابهم .
فان قيل : القاضى استدلل بهذه الآية أيضاً على أن كل من حضر عرصة القيامة فانه لا بد وأن
يكون ثوابه زائداً أو يكون عقابه زائداً ، فأما من كان ثوابه مساوياً لعقابه فانه وإن كان جائزاً
في العقل ، إلا أن هذا النص دل على أنه غير موجود .

قلنا : الكلام فيه ماسبق من أن السعيد هو الذى يكون من أهل الثواب ، والشقي هو الذى
يكون من أهل العقاب ، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث ، والدليل
على ذلك : أن أكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط ، وليس فيه ذكر ثالث لا يكون
لامؤمناً ولا كافراً مع أن القاضى أثبت ، فاذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لا يلزم
من ذكر هذا الثالث عدمه .

(المسألة الثالثة) اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيد وعلى بعضهم بأنه
شقي ، ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه ، وإلا لزم أن يصير خبر الله
تعالى كذبا وعلمه جاهلا وذلك محال . فثبت أن السعيد لا ينقلب شقياً وأن الشقي لا ينقلب سعيداً ،
وتقرير هذا الدليل مر في هذا الكتاب مرارا لا تحصى . وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال :
لما نزل قوله تعالى (فمنهم شقي وسعيد) قلت يارسول الله فعلى ماذا تعمل على شيء قد فرغ منه
أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال «على شيء قد فرغ منه يا عمر وجفت به الأقلام وجرت به
الأقذار ، ولكن كل ميسر لما خلق له » وقالت المعتزلة : نقل عن الحسن أنه قال : فمنهم شقي
بعمله وسعيد بعمله .

قلنا : الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات وأيضاً فلا نزاع أنه إنما شقي بعمله وإنما سعد
بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلًا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذى ذكرناه باقياً .

واعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة إلى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال
(فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) ذكروا في الفرق بين الزفير والشهيق وجوها :

(الوجه الأول) قال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ولم يخرج منه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس ، وقال الفراء : يقال للفارس إنه عظيم الزفرة أى عظيم البطن وأقول إن الانسان إذا عظم غمه انحصر روح قلبه في داخل القلب فإذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان إلى النفس القوي لأجل أن يستدخل هواء كثيراً بارداً حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة ، فلهذا السبب يعظم في ذلك الوقت استدخال الهواء في داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره ويتنفخ جنباه ، ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصوراً في داخل القلب استولت البرودة على الأعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصراً في الصدر ويقرب من أن يخنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة في إخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الأطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب انحصار الروح فيه ، والشهيق هو إخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة في إخرجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم .

(الوجه الثاني) في الفرق بين الزفير والشهيق . قال بعضهم : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق . وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار .

(الوجه الثالث) قال الحسن : قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع . فنقول : الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى إذا وصلوا إلى أعلى درجات جهنم وطعموا في أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم إلى الدرك الأسفل من جهنم ، وذلك قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها) فارتفاعهم في النار هو الزفير . وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق .

(الوجه الرابع) قال أبو مسلم : الزفير ما يجتمع في الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس ، والشهيق هو الذي يظهر عند اشتداد الكربة والحزن ، وربما تبعهما الغشية ، وربما حصل عقيه الموت .

(الوجه الخامس) قال أبو العالية : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر .

(الوجه السادس) قال قوم: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف.
 (الوجه السابع) قال ابن عباس رضي الله عنهما (لهم فيها زفير وشهيق) يريد ندامة ونفساً عالية وبكاء لا ينقطع وحزناً لا يندفع.

(الوجه الثامن) الزفير مشعر بالقوة، والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة.
 إذا عرفت هذا فنقول: لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم إلى عالم الدنيا وإلى اللذات الجسدانية، والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستعداد بعالم الروحانيات والاستكمال بالأنوار الإلهية والمعارج القدسية.

ثم قال تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) وفيه مسألتان:
 (المسألة الأولى) قال قوم إن عذاب الكفار منقطع ولها نهاية، واحتجوا بالقرآن والمعقول.
 أما القرآن فأيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين: الأول: أنه تعالى قال (مادامت السموات والأرض) دل هذا النص على أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض، ثم توافقنا على أن مدة بقاء السموات والأرض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة.
 الثاني: إن قوله (إلا ما شاء ربك) استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب في وقت هذا الاستثناء، وما تمسكوا به أيضاً قوله تعالى في سورة عم يتسالمون (لائين فيها أحقاباً) بين تعالى أن لبثهم في ذلك العذاب لا يكون إلا أحقاباً معدودة.

وأما العقل فوجهان: الأول: أن معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهي بعقاب لا نهاية له ظلم وأنه لا يجوز. الثاني: أن ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحاً يان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لا يرجع إلى الله تعالى لكونه متعالياً عن النفع والضرر ولا إلى ذلك المعاقب لأنه في حقه ضرر محض ولا إلى غيره، لأن أهل الجنة مشغولون ب لذاتهم فلا فائدة لهم في الالتذاذ بالعذاب الدائم في حق غيرهم، فثبت أن ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لا يجوز. وأما الجمهور الأعظم من الأمة، فقد اتفقوا على أن عذاب الكافر دائم وعند هذا احتجوا إلى الجواب عن التمسك بهذه الآية. أما قوله (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) فذكروا عنه جوابين: الأول: قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها. قالوا والدليل على أن في الآخرة سماء وأرضاً قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقوله (وأورثنا الأرض تقبوا من الجنة حيث نشاء) وأيضاً لا بد لأهل الآخرة مما يقلمهم ويظلمهم، وذلك

هو الأرض والسموات .

ولقائل أن يقول : التشبيه إنما يحسن ويجوز إذا كان حال المشبه به معلوماً مقررأً فيشبهه به غيره تأكيداً لثبوت الحكم في المشبه . ووجود السموات والأرض في الآخرة غير معلوم . وبتقدير أن يكون وجوده معلوماً إلا أن بقاءها على وجه لا يفتى البتة غير معلوم ، فإذا كان أصل وجودهما مجهولاً لاكثر الخلق ودوامهما أيضاً مجهولاً للاكثر ، كان تشبيه عقاب الأشقياء به في الدوام كلاماً عديم الفائدة ، أقصى ما في الباب أن يقال : لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض في الآخرة وثبت دوامهما واجب الاعتراف به ، وحيث يحسن التشبيه ، إلا أنا نقول : لما كان الطريق في إثبات دوام سموات أهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ، ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر ، فحيث الدليل الذي دل على ثبوت الحكم في الأصل حاصل بعينه في الفرع ، وفي هذه الصورة أجمعوا على أن القياس ضائع والتشبيه باطل ، فكذا ههنا .

(والوجه الثاني) في الجواب قالوا إن العرب يعبرون عن الدوام والابد بقولهم مادامت السموات والأرض ، ونظيره أيضاً قولهم ما اختلف الليل والنهار ، وما طاب البحر ، وما أقام الجبل ، وأنه تعالى خاطب العرب على عرفهم في كلامهم فلما ذكروا هذه الأشياء بناء على اعتقادهم أنها باقية أبدالاً ، علمنا أن هذه الالفاظ بحسب عرفهم تفيد الأبد والدوام الخالي عن الانقطاع .

ولقائل أن يقول : هل تسلمون أن قول القائل : خالدين فيها مادامت السموات والأرض ، يمنع من بقاءها موجودة بعد فناء السموات ، أو تقولون إنه لا يدل على هذا المعنى ، فإن كان الأول ، فالاشكال لازم . لأن النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم في النار مساوية لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقاءهم في النار بعد فناء السموات ، ثم ثبت أنه لا بد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب ، وأما إن قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم في النار بعد فناء السموات والأرض ، فلا حاجة بكم إلى هذا الجواب البتة ، فثبت أن هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع .

واعلم أن الجواب الحق عندي في هذا الباب شيء آخر ، وهو أن المعبود من الآية أنه متى كانت السموات والأرض دائمتين ، كان كونهم في النار باقياً فهذا يقتضى أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى أنه إذا عدم الشرط يعدم المشروط : ألا ترى أنا نقول : إن كان هذا إنساناً فهو حيوان .

فان قلنا : لكنه إنسان فانه ينتج أنه حيوان ، أما إذا قلنا لكنه ليس بإنسان لم ينتج أنه ليس بحيوان ، لأنه ثبت في علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لا ينتج شيئاً ، فكذا ههنا إذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم ، فإذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلًا ، أما إذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم .

فان قالوا : فإذا كان العقاب حاصلًا سواء بقيت السموات أو لم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة ؟ قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهرًا دهرًا ، وزمانًا لا يحيط العقل بطوله وامتداده ، فأما أنه هل يحصل له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر ، وهذا الجواب الذي قررته جواب حق ولكنه إنما يفهمه إنسان ألف شيئاً من المعقولات .

(وأما الشبهة الثانية) وهي التمسك بقوله تعالى (إلا ماشاء ربك) فقد ذكروا فيه أنواعاً من الأجوبة .

(الوجه الأول) في الجواب وهو الذي ذكره ابن قتيبة وابن الأنباري والفراء . قالوا هذا استثناء استثناء الله تعالى ولا يفعله البتة ، كقولك : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه ، فكذا ههنا وطولوا في تقرير هذا الجواب ، وفي ضرب الأمثلة فيه ، وحاصله ما ذكرناه .

ولقائل أن يقول : هذا ضعيف لأنه إذا قال : لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك ، معناه : لأضربنك إلا إذا رأيت أن الأولى ترك مضرب ، وهذا لا يدل البتة على أن هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) فان معناه الحكم بخلودهم فيها إلا المدة التي شاء ربك ، فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزماً ، فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام .

(الوجه الثاني) في الجواب أن يقال : إن كلمة (إلا) ههنا وردت بمعنى : سوى . والمعنى أنه تعالى لما قال (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) فهم منه أنهم يكونون في النار في جميع مدة بقاء السموات والأرض في الدنيا ، ثم قال سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولاً في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له بقوله (إلا ما شاء ربك) والمعنى : إلا ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها .

(الوجه الثالث) في الجواب وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم في الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا في النار إلا وقت وقوفهم للحاسبة فانهم في ذلك الوقت لا يكونون

في النار ، وقال أبو بكر الأصم المراد إلا ماشاء ربك وهو حال كونهم في القبر ، أو المراد إلا ماشاء ربك حال عمرهم في الدنيا وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة ، والمعنى : خالدين فيها بمقدار مكثهم في الدنيا أو في البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون إلى النار .

﴿الوجه الرابع﴾ في الجواب قالوا : الاستثناء يرجع إلى قوله (لهم فيها زفير وشهيق) وتقريره أن نقول : قوله (لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها) يفيد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فإذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لا يحصل فيه هذا المجموع لكنه ثبت في المعقولات أنه كما ينتفي المجموع بانتفاء جميع أجزائه فكذلك ينتفي بانتفاء فرد واحد من أجزائه فإذا انتهوا آخر الأمر إلى أن يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الاستثناء من غير حاجة إلى الحكم بانقطاع كونهم في النار .

﴿الوجه الخامس﴾ في الجواب أن يحمل هذا الاستثناء على أن أهل العذاب لا يكونون أبداً في النار ، بل قد ينقلون إلى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفي في صحة هذا الاستثناء .

﴿الوجه السادس﴾ في الجواب قال قوم : هذا الاستثناء يفيد إخراج أهل التوحيد من النار ، لأن قوله (فأما الذين شقوا في النار) يفيد أن جملة الأشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ، ثم قوله (إلا ماشاء ربك) يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع . ويكفي في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم ، فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الأشقياء ، ولما ثبت أن الخلود واجب للكفار وجب أن يقال : الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة ، وهذا كلام قوي في هذا الباب .

فإن قيل : فهذا الوجه إنما يتعين إذا فسدت سائر الوجوه التي ذكرتموها ، فما الدليل على فسادها ، وأيضا فمثل هذا الاستثناء مذكور في جانب السعداء ، فإنه تعالى قال (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ)

قلنا : إنا بهذا الوجه بينا أن هذه الآية لا تدل على انقطاع وعيد الكفار ، ثم إذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا في أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار ،

قلنا : أما حمل كلمة «إلا» على سوى فهو عدول عن الظاهر ، وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضا ، لأن الاستثناء وقع عن الخلود في النار ، ومن المعلوم أن الخلود في النار كيفية من كيفية الحصول في النار . فقبل الحصول في النار امتنع حصول الخلود في النار ، وإذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء . وأما قوله الاستثناء عائد

إلى الزفير والشهيق فهذا أيضا ترك للظاهر، فلم يبق للآية محل صحيح إلا هذا الذي ذكرناه، وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار إلى الزمهرير . فنقول : لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير إلا بعد انقضاء مدة السموات والأرض . والأخبار الصحيحة دلت على أن النقل من النار إلى الزمهرير وبالعكس يحصل في كل يوم مراراً فبطل هذا الوجه ، وأما قوله إن مثل هذا الاستثناء حاصل في جانب السعداء فنقول : أجمعت الأمة على أنه يتمتع أن يقال : إن أحداً يدخل الجنة ثم يخرج منها إلى النار ، فلاجل هذا الاجماع افتقرنا فيه إلى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات . أما في هذه الآية لم يحصل هذا الاجماع ، فوجب اجراؤها على ظاهرها فهذا تمام الكلام في هذه الآية .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء قال (إن ربك فعال لما يريد) وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفساق من النار ، كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأنى فعال لما أريد وليس لأحد على حكم البتة .

ثم قال ﴿ وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (سعدوا) بضم السين والباقون بفتحها وإنما جاز ضم السين لأنه على حذف الزيادة من أسعد ولأن سعد لا يتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال .

﴿المسألة الثانية﴾ الاستثناء في باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر . وهو أنه ربما اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنة إلى العرش وإلى المنازل الرفيعة التي لا يعدها إلا الله تعالى . قال الله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) وقوله (عطاء غير مجذوذ) فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ جذه يجذّه جذاً إذا قطعه وجذ الله دأبرهم ، فقوله (غير مجذوذ) أي غير مقطوع ، ونظيره قوله تعالى في صفة نعيم الجنة (لامقطوعة ولا ممنوعة)

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى لما صرح في هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة ، فلما خص هذا الموضوع بهذا البيان ولم يذكر ذلك في جانب الأشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع ، فهذا تمام الكلام في هذه الآية .

فَلَا تَكُ فِي مَرْبَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ
وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ
فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٌ ﴿١١٠﴾
وَإِنْ كَلَّمَا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى ﴿فلا تك في مربة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإننا لموفونهم نصيحتهم غير منقوص﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أفاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك في مربة) والمعنى : فلا تكن ، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلغظه إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوه ، والمعنى : فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع .

ثم قال تعالى ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ والمراد أنهم أشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد .

ثم قال ﴿وإننا لموفونهم نصيحتهم غير منقوص﴾ فيحتمل أن يكون المراد إننا موفونهم نصيحتهم أى ما يخصهم من العذاب . ويحتمل أن يكون المراد أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفونهم نصيحتهم من الرزق والخيرات الدنيوية . ويحتمل أيضاً أن يكون المراد إننا موفونهم نصيحتهم من إزالة العذر وإزاحة العلل وإظهار الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، ويحتمل أيضاً أن يكون الكل مراداً .

قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب وإن كَلَّمَا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾
اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى اصرار كفار مكة على انكار التوحيد ، بين أيضاً اصرارهم على انكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه ، وبين تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا على

هذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلاً : وهو أنه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون ، وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا .

ثم قال تعالى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ وفيه وجوه : الأول : أن المراد : ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم إنزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم في دنياهم . الثاني : لولا كلمة سبقت من ربك وهي أن الله تعالى إنما يحكم بين المختلفين يوم القيامة . وإلا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل في دار الدنيا . الثالث (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي أن رحمته سبقت غضبه وأن إحسانه راجح على قهره وإلا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هذا المعنى قال (وإنهم لني شك منه مريب) يعني أن كفار قومك لني شك من هذا القرآن مريب .

ثم قال تعالى ﴿ وإن كلما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فخالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ، فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم ، وقوله تعالى (إنه بما يعملون خبير) يؤكد الوعد والوعيد ، فانه لما كان عالماً بجميع المعلومات كان عالماً بمقادير الطاعات والمعاصي فكان عالماً بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء ، فحينئذ لا يضيع شيء من الحقوق والأجزية وذلك نهاية البيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وإن مشددة النون (لما) خفيفة قال أبو علي : اللام في (لما) هي التي تقتضيه إن وذلك لأن حرف إن يقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقوله (إن الله لغفور رحيم) وقوله (إن في ذلك لآية) واللام الثانية هي التي تجيء بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لآمان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائدة ، وقال الفراء : ماموصولة بمعنى من وبقية التقرير كما تقدم ومثله (وإن منكم لمن ليبطئن) .

﴿ والقراءة الثانية ﴾ في هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وإن كلالما مخففتان ، والسبب فيه أنهم أعمالوا إن مخففة كما تعمل مشددة لأن كلمة إن تشبه الفعل فكما يجوز أعمال الفعل تاماً ومخدوفاً في قولك لم يكن زيد قائماً . ولم يك زيد قائماً فكذلك ان وإن .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ «١١٢» وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ «١١٣»

(والقراءة الثالثة) قرأ حمزة وابن عامر وحفص : (وإن كلالما) مشددتان ، قالوا : وأحسن ما قبل فيه إن أصل لما لما بالتثوين كقوله (أ كلالما) والمعنى أن كلا ملبومين أى بمجموعين كأنه قيل : وان كلا جميعا .

(المسألة الثالثة) سمعت بعض الأفاضل قال : إنه تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات : أولها : كلمة (إن) وهى للتأكيد . وثانيها : كلمة «كل» وهى أيضا للتأكيد . وثالثها : اللام الداخلة على خبر (إن) وهى تفيد التأكيد أيضا . ورابعها : حرف (ما) إذا جعلناه على قول القراء موصولا . وخامسها : القسم المضمر ، فان تقدير الكلام وإن جميعهم والله ليوفينهم . وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم . وسابعها : النون المؤكدة فى قوله (ليوفينهم) فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله (إنه بما يعملون خير) وهو من أعظم المؤكدات .

قوله تعالى (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى لما أظنبت فى شرح الوعد والوعيد قال لرسوا (فاستقم كما أمرت) وهذه الكلمة كلمة جامة فى كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال ، سواء كان مختصا به أو كان متعلقا بتبليغ الوحي وبيان الشرائع ، ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جدا وأنا أضرب لذلك مثلا يقرب صعوبة هذا المعنى الى العقل السلم ، وهو أن الخط المستقيم الذى يفصل بين الظل وبين الضوء . جزء واحد لا يقبل القسمة فى العرض ، إلا أن عين ذلك الخط مما لا يتميز فى الحس عن طرفه ، فانه إذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض ببعض فى الحس ، فلم يقع الحس على إدراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ما سواه .

إذا عرفت هذا في المثال فاعرف مثاله في جميع أبواب العبودية ، فأولها : «عرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصوناً في طرف الاثبات عن التشويه ، وفي طرف النفي عن التعطيل في غاية الصعوبة ، واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك ، وأيضاً فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفاً إفراط وتفريط وهما مذمومان ، والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لا يميل الى أحد الجانبين ، والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب ، ثبت أن معرفة الصراط المستقيم في غاية الصعوبة ، بتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب ، ولما كان هذا المقام في غاية الصعوبة لاجرم قال ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « شيتتي هود وأخواتها ، وعن بعضهم قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له : روى عنك أنك قلت شيتتي هود وأخواتها فقال « نعم » فقلت وبأى آية ؟ فقال بقوله (فاستقم كما أمرت) (المسألة الثانية) اعلم أن هذه الآية أصل عظيم في الشريعة وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله (فاستقم كما أمرت) ولما ورد الأمر في الزكاة بأداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد أمر الله تعالى به وعندى أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس ، لأنه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله (فاستقم كما أمرت) والعمل بالقياس انحراف عنه ، ثم قال (ومن تاب معك) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال الواحدي : من في محل الرفع من وجوه : الأول : أن يكون عطفاً على الضمير المستتر في قوله (فاستقم) وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل في صحة العطف أي فاستقم أنت وهم . والثاني : أن يكون عطفاً على الضمير في أمرت . والثالث : أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم .

(المسألة الثانية) أن الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق . ففي تلك الحالة لا يصح اشتغالهما بالاستقامة ، وأما التائب عن الكفر والفسق فإنه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ، ثم قال (ولا تطغوا) ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار . قال ابن عباس : يريد تواضعوا لله تعالى ولا تسكبروا على أحد وقيل ولا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله ، وقيل : لا تتجاوزوا ما أمرتم به وحد لكم ، وقيل : ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والأولى دخول الكل فيه ، ثم قال (ولا تركزوا إلى الذين ظلموا) والركون هو السكون إلى الشيء . والميل إليه بالمحبة ونقيضه

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ «١١٤» وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «١١٥»

النفور عنه ، وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضي من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الأزهرى : وليست بفضيحة . قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون ، ومعنى قوله (تمسك النار) أى أنكم إن ركتم اليهم فهذه عاقبة الركون ، ثم قال (ومالكم من دون الله من أولياء) أى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله .

ثم قال (ثم لاتصرون) والمراد لاتجدون من ينصرم من تلك الواقعة .

واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لا بد وأن تمسه النار وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه .

قوله تعالى ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكري للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أرفده بالأمر بالصلاة وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله هو الصلاة وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) رأيت في بعض كتب القاضي أبي بكر الباقلاني أن الخوارج تمسكوا بهذه الآية في إثبات أن الواجب ليس إلا الفجر والعشاء من وجهين .

(الوجه الأول) أنهما واقعان على طرفي النهار والله تعالى أوجب إقامة الصلاة طرفي النهار ، فوجب أن يكون هذا القدر كافياً .

فان قيل : قوله (وزلفاً من الليل) يوجب صلوات أخرى .

قلنا : لانسلم فان طرفي النهار موصوفان بكونهما زلفاً من الليل فان مالا يكون نهاراً يكون ليلاً غاية ما في الباب أن هذا يقتضى عطف الصفة على الموصوف إلا أن ذلك كثير في القرآن والشعر .

(الوجه الثاني) أنه تعالى قال (إن الحسنات يذهبن السيئات) وهذا يشعر بأن من صلى طرفي النهار كان إقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال إن سائر الصلوات واجبة إلا

أن إقامةهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات . واعلم أن هذا القول باطل باجماع الأمة فلا يلتفت إليه .

(المسألة الثانية) كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاقرب أن الصلاة التي تقام في طرفي النهار وهي الفجر والعصر ، وذلك لأن أحد طرفي النهار طلوع الشمس . والطرف الثاني منه غروب الشمس . فالطرف الأول هو صلاة الفجر . والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخله تحت قوله (وزلفاً من الليل) فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر .

إذا عرفت هذا كانت الآية دليلاً على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن التنوير بالفجر أفضل ، وفي أن تأخير العصر أفضل . وذلك لأن ظاهر هذه الآية يدل على وجوب إقامة الصلاة في طرفي النهار وبيننا أن طرفي النهار هما الزمان الأول لطلوع الشمس ، والزمان الثاني لغروبها ، وأجمعت الأمة على أن إقامة الصلاة في ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة ، فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية ، فوجب حملها على المجاز ، وهو أن يكون المراد : أقم الصلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النهار ، لأن ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه ، وإذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب إلى طلوع الشمس . وإلى غروبها كان أقرب إلى ظاهر اللفظ ، وإقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب إلى وقت الطلوع من إقامتها عند التغليس ، وكذلك إقامة صلاة العصر عند ما يصير ظل كل شيء مثليه أقرب إلى وقت الغروب من إقامتها عند ما يصير ظل كل شيء مثله ، والمجاز كلما كان أقرب إلى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى ، ثبت أن ظاهر هذه الآية يقوى قول أبي حنيفة في هاتين المسألتين . وأما قوله (وزلفاً من الليل) فهو يقتضى الأمر بإقامة الصلاة في ثلاث زلف من الليل ، لأن أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان ، فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب إيقاع الصلاة فيها ، وإذا ثبت وجوب الوتر في حق النبي صلى الله عليه وسلم وجب في حق غيره لقوله تعالى (واتبعوه) ونظير هذه الآية بيمينها قوله سبحانه وتعالى (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) فالذي هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، والذي هو قبل غروبها هو صلاة العصر .

ثم قال تعالى (ومن آناه الليل فسيح) وهو نظير قوله (وزلفاً من الليل)

(المسألة الثالثة) قال المفسرون : نزلت هذه الآية في رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ماتقولون في رجل أصاب من امرأة محرمة كلما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع ، فقال عليه الصلاة والسلام «ليتوضأ وضوءاً حسناً ثم ليقيم وليصل» فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقيل

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ
وَكَانُوا مُجْرِمِينَ «١١٦»

للنبي عليه الصلاة والسلام : هذا له خاصة ، فقال «بل هو للناس عامة» وقوله (وزلفاً من الليل) قال
الليث : زلفة من أول الليل طائفة ، والجمع الزلف . قال الواحدى : وأصل الكلمة من الزلنى والزلفى
هى القربى ، يقال : أزلفته فازدلف أى قربته فاقرب .

(المسألة الرابعة) قال صاحب الكشاف : قرئ (زلفاً) بضمين و(زلفاً) باسكان اللام وزلنى
بوزن قربى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمين
نحو : يسر فى يسر ، والزلنى بمعنى الزلفة كما أن القربى بمعنى القرية وهو ما يقرب من آخر النهار من
الليل ، وقيل فى تفسير قوله (وزلفاً من الليل) وقرباً من الليل ، ثم قال (ان الحسنات يذهبن
السيئات) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) فى تفسير الحسنات قولان : الأول : قال ابن عباس : المعنى أن الصلوات
الحسنة كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر . والثانى : روى عن مجاهد أن الحسنات
هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر .

(المسألة الثانية) احتج من قال إن المعصية لا تضر مع الايمان بهذه الآية وذلك لان الايمان
أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها . ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيئات ، فالايمان الذى
هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو أعلى درجة فى العصيان فلا أن يقوى على المعصية
التي هى أقل السيئات درجة كان أولى ، فان لم يقد إزالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد إزالة
العذاب الدائم المؤبد .

ثم قال تعالى ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فقوله (ذلك) اشارة إلى قوله (فاستقم كما أمرت) إلى
آخرها (ذكرى للذاكرين) عظة للمتعتبين وإرشاد للمسترشدين .
ثم قال ﴿واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ قيل على الصلاة وهو كقوله (وأمر أهلك
بالصلاة واصطبر عليها)

قوله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلاً

من أنجينا منهم واتبع الذين ظللوا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴿ اعلم أنه تعالى لما بين أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران :

(السبب الأول) أنه ما كان فيهم قوم يهتدون عن الفساد في الأرض . فقال تعالى (فلولا كان من القرون) والمعنى فهلا كان ، وحكى عن الخليل أنه قال كل ما كان في القرآن من كلمة لولا فعناه هلا إلا التي في الصفات . قال صاحب الكشاف : وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى في غير الصفات (لولا أن تداركنا نعمته من ربنا لنبذنا بالعراء . ولولا رجال مؤمنون . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، وقوله (أولوا بقية) فالمعنى أولو فضل وخير ، وسمى الفضل والجلود بتمية لأن الرجل يستبق مما يخرج منه أجوده وأفضله ، فصار هذا اللفظ مثلا في الجودة يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ، ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالنقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذوبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرى* (أولوا بقية) بوزن لقية من بقاء يقيه إذا راقبه وانتظره ، والبقية المرة من مصدره ، والمعنى فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى . ثم قال (إلا قليلا) ولا يمكن جعله استثناء متصلا لأنه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لأولى البقية في النهي عن الفساد إلا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم تريد استثناء الصالحاء من المرغبين في قراءة القرآن . وإذا ثبت هذا قلنا : إنه استثناء منقطع ، والتقدير : لكن قليلا من أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي .

(والسبب الثاني) لنزول عذاب الاستئصال قوله (واتبع الذين ظللوا ما أترفوا فيه) والترفة النعمة وصبي مترف إذا كان منعم البدن ، والمترف الذي أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظللوا تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي (واتبع الذين ظللوا ما أترفوا) أي واتبعوا حراما أترفوا فيه ، ثم قال (وكانوا مجرمين) ومعناه ظاهر .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَادِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

اعلم أنه تعالى بين أنه ما أهلك أهل القرى إلا بظلم وفيه وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم . ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة . وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح . ويقال في الأثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ، فعنى الآية (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) أى لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسداد . وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية ، قالوا : والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق .

﴿والوجه الثاني﴾ في التأويل وهو الذى تختاره المعتزلة هو أنه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعالياً عن الظلم فلا جرم لا يفعل ذلك بل إنما يهلكهم لأجل سوء أفعالهم . ثم قال تعالى ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار وقد سبق الكلام عليه .

ثم قال تعالى ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال .

واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضوع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذي سميناه بالرياض الموثقة إلا أنا نذكر ههنا تقسماً جامعاً للمذاهب . فنقول : الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بأن النار حارة والشمس مضيئة . والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفي والاثبات لا يجتمعان ، ومنهم من أنكروهما ، والمنكرون هم السوفسطائية ، والمقررون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم ، وهم فريقان : منهم من سلم أنه يمكن تركيب تلك العلوم البديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ، ومنهم من أنكروه ، وهم الذين ينكرون أيضاً النظر إلى العلوم ، وهم قليلون ، والأولون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم . وهم فريقان : منهم من لا يثبت لهذا العالم الجسماني مبدأ أصلاً وهم الأقلون ، ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان : منهم من يقول : ذلك المبدأ موجب بالذات ، وهم جمهور الفلاسفة في هذا الزمان ، ومنهم من يقول : إنه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم ، ثم هؤلاء فريقان : منهم من يقول : إنه ما أرسل رسولا إلى العباد ، ومنهم من يقول : إنه أرسل الرسول ، فالأولون هم البراهمة .

واقسم الثاني أبواب الشرائع والأديان ، وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس ، وفي كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لا حد لها ولا حصر ، والعقول مضطربة ، والمطالب غامضة ، ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ، ولما حسن من بقراط أن يقول في صناعة الطب العمر قصير ، والصناعة طويلة ، والقضاء عسر ، والتجربة خطر ، فلان يحسن ذكره في هذه المطالب العالية والمباحث الغامضة ، كان ذلك أولى .

فان قيل : إنكم حملتم قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين) على الاختلاف في الأديان ، فما الدليل عليه ، ولم لا يجوز أن يحمل على الاختلاف في الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال . قلنا : الدليل عليه أن ما قبل هذه الآية هو قوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) فيجب حمل هذا الاختلاف على ما يخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة ، وما بعد هذه الآية هو قوله (إلا من رحم ربك) فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله (إلا من رحم ربك) وذلك ليس إلا ما قلنا .

ثم قال تعالى (إلا من رحم ربك) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى ، وذلك لأن هذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف في الدين لا يحصل إلا لمن خصه الله برحمته ، وتلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة العذر ، فان كل ذلك حاصل في حق الكفار ، فلم يبق إلا أن

يقال : تلك الرحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة . قال القاضي معناه : إلا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب ، فيرحمه الله بالثواب ، ويحتمل إلا من رحمه الله بالطفاه ، فصار مؤمناً بالطفاه وتسهيله ، وهذان الجوابان في غاية الضعف .

﴿أما الأول﴾ فلأن قوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) يفيد أن ذلك الاختلاف إنما زال بسبب هذه الرحمة ، فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية بجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف ، والثواب شيء متأخر عن زوال هذا الاختلاف ، فالاختلاف جار بجرى المسبب له ، وجرى المعلول ، فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد .

﴿وأما الثاني﴾ وهو حمل هذه الرحمة على اللطاف . فنقول : جميع اللطاف التي فعلها في حق المؤمن فهي مفعولة أيضاً في حق الكافر ، وهذه الرحمة أمر اختص به المؤمن ، فوجب أن يكون شيئاً زائداً على تلك اللطاف ، وأيضاً فحصول تلك اللطاف هل يوجب رجحان وجود الإيمان على عده أو لا يوجب ، فإن لم يوجب كان وجود تلك اللطاف وعدمها بالنسبة إلى حصول هذا المقصود سيان ، فلم يك لطفاً فيه ، وإن أوجب الرجحان فقد بينا في الكتب العقلية أنه متى حصل الرجحان فقدوجب ، وحينئذ يكون حصول الإيمان من الله ، وبما يدل على أن حصول الإيمان لا يكون إلا بخلق الله ، أنه ما لم يتميز الإيمان عن الكفر ، والعلم عن الجهل ، امتنع القصد إلى تكوين الإيمان والعلم ، وإنما يحصل هذا الامتياز إذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقاً للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك ، وإنما يصح حصول هذا العلم ، أن لو عرف أن ذلك المعتقد في نفسه كيف يكون ، وهذا يوجب أنه لا يصح من العبد القصد إلى تكوين العلم بالشيء إلا بعد أن كان عالماً ، وذلك يقتضى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال . فثبت أن زوال الاختلاف في الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ، وهو المطلوب .

ثم قال تعالى ﴿ولذلك خلقهم﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس : والرحمة خلقهم ، وهذا اختيار جمهور المعتزلة . قالوا : ولا يجوز أن يقال : والاختلاف خلقهم ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى من عوده إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة ، والاختلاف أبعدهما . والثاني : أنه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الإيمان ، لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه ، إذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف . الثالث : إذا فسرنا الآية بهذا المعنى ، كان مطابقاً لقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون)

وَكَلَّا نَقْصُ عَيْلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُمْ بِهِ فُقُودَكُمْ وَجَاءَكُمْ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

فان قيل : لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال : ولتلك خلقهم ولم يقل : ولذلك خلقهم
قلنا : إن تأنيك الرحمة ليس تأنيثاً حقيقياً ، فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله (هذا
رحمة من ربى) وقوله (ان رحمة الله قريب من المحسنين)
(والقول الثانى) أن المراد للاختلاف خلقهم .

(والقول الثالث) وهو المختار أنه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .
روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا ، وأهل العذاب لأن
يختلفوا ، وخلق الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، والذي يدل على صحة هذا
التأويل وجوه : الأول : الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما في العبد
إلا بتخليق الله تعالى . الثانى : أن يقال : إنه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وتلى
الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك ، وإلا لزم انقلاب العلم جهلا وهو
محال . الثالث : أنه تعالى قال بعده (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهذا
تصريح بأنه تعالى خلق أقواما للهداية والجنة ، وأقواما آخرين للضلالة والنار ، وذلك يقوى
هذا التأويل .

قوله تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة
وذكرى للمؤمنين﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة
(الفائدة الأولى) تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى ، وذلك لأن
الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبليّة فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا
عمت خفت ، فاذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع
اتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه ، وأمكنه الصبر عليه .

(والفائدة الثانية) قوله (وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) وفي قوله (في هذه)
وجود : أحدها : في هذه السورة . وثانيها : في هذه الآية . وثالثها : في هذه الدنيا ، وهذا بعيد غير
لائق بهذا الموضع .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلٰى مَكَاتِكُمْ اِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا
 اِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاِلَيْهِ يَرْجِعُ الْاَمْرُ
 كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك ، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالا مما ذكر في سائر السور ، ولولم يكن فيها إلا قوله (فاستقم كما أمرت) لكان الأمر كما ذكرنا ، ثم إنه تعالى بين أنه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة . الحق والموعظة والذكرى .

أما الحق : فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة .

وأما الذكرى : فهي إشارة إلى الارشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة .

وأما الموعظة : فهي إشارة إلى التنفير من الدنيا وتقييح أحوالها في الدار الآخرة ، والمذكورة لما هنالك من السعادة والشقاوة ، وذلك لأن الروح إنما جاء من ذلك العالم إلا أنه لاستغراقه في محبة الجسد في هذا العالم نسي أحوال ذلك العالم فالسلام الالهي يذكره أحوال ذلك العالم ، فلهذا السبب صح إطلاق لفظ الذكر عليه .

ثم هنا دقيقة أخرى عجيبية : وهي أن المعارف الالهية لا بد لها من قابل ومن موجب ، وقابلها هو القلب ، والقلب ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الالهية والتجليات القدسية ، لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل ، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب ، وهو تثبيت القواد ، ثم لما ذكر صلاح حال القابل ، أردفه بذكر الموجب ، وهو مجيء هذه السورة المشتملة على الحق والموعظة والذكرى ، وهذا الترتيب في غاية الشرف والجلالة .

قوله تعالى ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون﴾
 والله غيب السموات والارض وإليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية في الأعدار والانذار ، والترغيب والترهيب ، أتبع ذلك بأن قال للرسول (وقل للذين لا يؤمنون) ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة (اعملوا على مكاتكم انا عاملون) وهذا عين ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه ، والمعنى : افعلوا كل ما تقدرون

عليه في حق من الشر ، فنحن أيضا عاملون . وقوله (اعملوا) وإن كانت صيغته صيغة الأمر ، إلا أن المراد منها التهديد ، كقوله تعالى لا بليس (واستفز من استعظت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) وكقوله (فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان . قال ابن عباس رضي الله عنهما : (وانظروا) الهلاك فانا منتظرون لكم العذاب . ثم إنه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والأرض)

واعلم أن مجموع ما يحتاج الانسان إلى معرفته أمور ثلاثة . وهي : الماضي والحاضر والمستقبل . أما الماضي فهو أن يعرف الموجود الذي كان موجوداً قبله ، وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذي نقله من العدم إلى الوجود ، وذلك هو الاله تعالى وتقدس .

واعلم أن حقيقة ذات الاله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة ، وإنما المعلوم للبشر صفاته ، ثم إن صفاته قسيان : صفات الجلال ، وصفات الاكرام . أما صفات الجلال ، فهي سلوب ، كقولنا : إنه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا كذا ولا كذا . وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال ، لأن السلوب عدم ، والعدم المحض والتنى الصرف ، لا كمال فيه ، فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم إنما أفاد الكلام لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا ، ألا ترى أن الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله (وهو يطعم ولا يطعم) إنما أفاد الجلال والكمال والكبرياء ، لأن قوله (ولا يطعم) يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنياً عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه ، فثبت أن صفات الكمال والعز والعلو هي الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان : العلم والقدرة ، فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته في هذه الآية بهما في معرض التعظيم والثناء والمدح . أما صفة العلم فقوله (ولله غيب السموات والأرض) والمراد أن علمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات ، وتمام البيان والشرح في دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه وتعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) وأما صفة القدرة ، فقوله (وإليه يرجع الأمر كله) والمراد أن مرجع الكل إليه ، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذي يكون مبدأ لجميع الممكنات وإليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات ، كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهراً للعدم بالوجود والتحصيل جباراً له بالقوة والفعل والتكميل ، فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه .

(والمرتبة الثانية) من المراتب التي يجب على الانسان كونه عالماً بها أن يعرف ماهو مهم له في زمان حياته في الدنيا ، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلاليا القدسية ، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية . أما بدايتها فلاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية . أما العبادات الجسدانية ، فأفضل الحركات الصلاة ، وأكمل السكنات الصيام ، وأنفع البر الصدقة .
وأما العبادة الروحانية فهي : الفكر ، والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ، كما قال تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) وأما نهاية هذه المرتبة ، فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها ، وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات ، وتوجيه حدة العقل إلى نور عالم الجلال ، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء ، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولاً تائهاً في ساحة كبريائه هالكا فانياً في فناء سناء أسمائه . وحاصل الكلام : أن أول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله ، وآخرها التوكل على الله ، فلهذا السبب قال (فاعبده وتوكل عليه)

(والمرتبة الثالثة) من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل . وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية ، وهل لأعماله أثر في السعادة والشقاوة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) والمقصود أنه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين ، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقيروالقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير ، ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنة وفريق في السعير ، فظهر أن هذه الآية وافية بالإشارة إلى جميع المطالب العلوية ، والمقاصد القدسية ، وأنه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادي للصواب ، تمت الصورة بحمد الله وعونه ، وقد وجد بخط المصنف رضى الله عنه في النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة إحدى وستمائة ، وقد كان لى ولد صالح حسن السيرة فتوفى في الغربية في عنقوان شبابه ، وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب ، فانا أنشد الله إخوانى في الدين وشركائى في طلب اليقين وكل من نظر في هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة ، وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول (ربنا لاترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة يوسف

مكية، إلا الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧، فمدنية

وآياتها : ١١١، نزلت بعد سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

سورة يوسف

مائة وإحدى عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾

وقد ذكرنا في أول سورة يونس تفسير (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) فقوله (تلك) إشارة إلى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة المسماة (الر) هى (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن، وإنما وصف القرآن بكونه مبيّنًا لوجوه : الأول : أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم . والثانى : أنه بين فيه الهدى والرشد، والحلال والحرام، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبيّنًا لهذه الأشياء . الثالث : أنه بينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين .

ثم قال ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين، سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن كيفية قصة يوسف، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذكر فيها أنه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن

كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ، ليتمكنوا من فهمها ويقدرُوا على تحصيل المعرفة بها .
والتقدير : إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآناً عربياً ، وسمى بعض
القرآن قرآناً ، لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض .

(المسألة الثانية) احتج الجبائي بهذه الآية على كون القرآن مخلوقاً من ثلاثة أوجه : الأول :
أن قوله (إنا أنزلناه) يدل عليه . فإن القديم لا يجوز تنزيله وإنزاله وتحويله من حال إلى حال الثاني :
أنه تعالى وصفه بكونه عربياً والقديم لا يكون عربياً ولا فارسياً . الثالث : أنه لما قال (إنا أنزلناه
قرآناً عربياً) دل على أنه تعالى كان قادراً على أن ينزله لعربياً ، وذلك يدل على حدوثه . الرابع :
أن قوله (تلك آيات الكتاب) يدل على أنه مركب من الآيات والكلمات ، وكل ما كان مركباً
كان محدثاً .

والجواب عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول : إنها تدل على أن المركب من الحروف والكلمات
والألفاظ والعبارات محدث وذلك لانزاع فيه ، إنما الذي ندعى قدمه شيء آخر فسقط هذا الاستدلال
(المسألة الثالثة) احتج الجبائي بقوله (لعلكم تعقلون) فقال : كلمة «لعل» يجب حملها على الجزم
والتقدير : إنا أنزلناه قرآناً عربياً لتعقلوا معانيه في أمر الدين ، إذ لا يجوز أن يراد بلعلكم تعقلون؟
الشك لأنه على الله محال ، ثبت أن المراد أنه أنزله لارادة أن يعرفوا دلائله ، وذلك يدل على
أنه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه ، من عرف منهم ، ومن لم يعرف ،
بخلاف قول المجبرة .

والجواب : هب أن الأمر على ما ذكرتم إلا أنه يدل على أنه تعالى أنزل هذه السورة ، وأراد
منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم إنها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الايمان والعمل الصالح
قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت
من قبله لمن الغافلين)

وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) روى سعيد بن جبيرانه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه

وسلم وكان يتلوه على قومه ، فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزل (الله نزل أحسن الحديث كتاباً) فقالوا لو ذكرتنا فنزل (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)

(المسألة الثانية) القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة المتابعة قال تعالى (وقالت لاخته قصيه) أي اتبع أثره وقال تعالى (فارتدا على آثارهما قصصاً) أي اتبعا وإتباعاً سميت الحكاية قصصاً لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً كما يقال تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص يقال قص الحديث يقصه قصاً وقصصاً إذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله إرسالاً ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى أي مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أي معلومه وهذا جازاً نأى مرجونا فإن حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص ، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز ألا ترى أن هذه القصة المذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها فان إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه .

(والفائدة الثانية) دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان .

(والفائدة الثالثة) أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر فاز بمقصوده ، وكذلك في حق يوسف عليه السلام .

فأما قوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن) فالمعنى بوحينا إليك هذا القرآن ، وهذا التقدير إن جعلنا «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر .

ثم قال (وإن كنت من قبله) يريد من قبل أن نوحى إليك (لمن الغافلين) عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحي ، ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان)

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾
وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) تقدير الآية : اذكر (إذ قال يوسف) قال صاحب الكشاف : الصحيح أنه اسم عبرانى ، لأنه لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف ، وقرأ بعضهم (يوسف) بكسر السين (ويوسف) بفتحها . وأيضاً روى فى يونس هذه اللغات الثلاث ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام»

(المسألة الثانية) قرأ ابن عامر (يا أبت) بفتح التاء فى جميع القرآن ، والباقون بكسر التاء . أما الفتح فوجهه أنه كان فى الأصل يا أبتاه على سبيل الندبة ، فحذفت الألف والهاء . وأما الكسر فأصله يا أبى ، فحذفت الباء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال (يا أبت) ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الاضافة ، وهذا قول ثعلب وابن الأثير . واعلم أن النحويين طولوا فى هذه المسألة ، ومن أراد كلامهم فليطالع كتبهم .

(المسألة الثالثة) أن يوسف عليه السلام رأى فى المنام أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدت له ، وكان له أحد عشر نفرا من الاخوة ، ففسر الكواكب بالاخوة ، والشمس والقمر بالآب والام ، والسجود بتواضعهم له . ودخولهم تحت أمره ، وإنما حملنا قوله (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) على الرؤيا لوجهين : الأول : أن الكواكب لا تسجد فى الحقيقة ، فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا . والثانى : قول يعقوب عليه السلام (لاتقص رؤياك على إختوتك) وفى الآية سوالات :

(السؤال الأول) قوله (رأيتهم لى ساجدين) فقوله (ساجدين) لا يلىق إلا بالعقلاء ، والكواكب جمادات ، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات .

قلنا : إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية ، وكذلك احتجوا بقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء . وقال

الواحدى : إنه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل ، فأخبر عنها كما يخبر عن يعقل كما قال في صفة الأصنام (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) وكما في قوله (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم)

(السؤال الثاني) قال (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية ، وقال (رأيتهم لى ساجدين) فما الفائدة في هذا التكرير؟

الجواب : قال الففال رحمه : الله ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر ، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له ، وقال بعضهم : إنه لما قال (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) فكأنه قيل له : كيف رأيت ؟ فقال : رأيتهم لى ساجدين ، وقال آخرون : يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا ، وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيها الرؤيا فذكر قولنا بجمل غير مبين .

(السؤال الثالث) لم أخرج الشمس والقمر؟

قلنا : أخرهما لفضلهما على الكواكب ، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله (وملائكته ورسله وجبريل وميكال)

(السؤال الرابع) المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله :

ترى الآم فيه سجدا للحوافر

قلنا : كلاهما محتمل ، والأصل في الكلام حمله على حقيقته . ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له .

(السؤال الخامس) متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا؟

قلنا : لاشك أنه رآها حال الصغر ، فاما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالآخبار . قال وهب : رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طولا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة . وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعها فذكر ذلك لآبيه فقال إياك أن تذكر هذا لأخوتك ثم رأى وهو ابن ثلثي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على آبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا . وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير أخوته إليه أربعون سنة وقيل : ثمانون سنة .

واعلم أن الحكماء يقولون إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب ، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين . قالوا : والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضى أن لا يحصل الاعلام بوصول

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم .
(السؤال السادس) قال بعضهم : المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه ؟
قلنا : انما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا : ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام لا بد وأن تكون وحيأ وهذه الحججة غير قوية لأن يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الأنبياء .
(السؤال السابع) وما تلك الكواكب ؟

قلنا : روى صاحب الكشاف أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي «إن أخبرتك هل تسلم» قال نعم قال «جربان والطارق والذبال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين وآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له» فقال اليهودي : أي والله أنها لأسماؤها واعلم أن كثيراً من هذه الأسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال .

قوله تعالى (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم)
في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ حفص (يا بني) بفتح الياء والباقون بالكسر .

(المسألة الثانية) أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فخسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالآمارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً .

(المسألة الثالثة) قال الواحدي : الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى . إلا أنه لما صار اسماً لهذا المتخيل في المنام جرى مجرى الأسماء . قال صاحب الكشاف : الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة . فلا جرم فرق بينهما بحرفي التأنيث ، كما قيل : القرية والقري وقرى رويك بقلب الهمزة واواً وسمع الكسائي يقرأ ريك وريك بالادغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة .

ثم قال تعالى (فيكيدوا لك كيداً) وهو منصوب باضمار أن والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك فان قيل : فلم لم يقل فيكيدوك كما قال (فيكيدوني) .

قلنا : هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون ، وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ، وقيل هي من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيداً لك . قال أهل التحقيق : وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقداً وغضباً .

ثم قال (إن الشيطان للانسان عدو مبين) والسبب في هذا الكلام انهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافاً إلى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ، ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكروا أموراً : أولها : قوله (وكذلك يجتنيك ربك) يعني وكما اجتنباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتنيك لأمور عظام . قال الزجاج : الاجتناب مشتق من جيت الشيء إذا خلصته لنفسك ومنه جيت الماء في الحوض ، واختلفوا في المراد بهذا الاجتناب ، فقال الحسن : يجتنيك ربك بالنبوة ، وقال آخرون : المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه . وثانها : قوله (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وفيه وجوه : الأول : المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يؤل أمره إلى مارآه في المنام يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم . قالوا : إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية ، والثاني : تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله ، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثالث : الأحاديث جمع حديث ،

والحديث هو الحادث، وتأويلها مآلها، ومآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته، وثالثها: قوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب)

واعلم أن من فسر الاجتناب بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضاً وإلا لزم التكرار، بل يفسر إتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة. أما سعادات الدنيا فالأكثر من الأولاد والخدم والاتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد. وأما سعادات الآخرة: فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى. وأما من فسر الاجتناب بنيل الدرجات العالية، فههنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور: الأول: أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان. وما ذلك في حق البشر إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقصة بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق وإتمام المطلق في حق البشر ليس إلا بالنبوة، والثاني: قوله (كما أتمها على أبيك من قبل إبراهيم وإسحق) ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا بالنبوة، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة.

واعلم أننا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء، وذلك لأنه قال (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبق معمولاً به في حق أولاده. وأيضاً أن يوسف عليه السلام قال (إني رأيت أحد عشر كوكباً) وكان تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال. ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى. وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً.

فان قيل: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام؟ قلنا: ذلك وقع قبل النبوة، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها.

(القول الثاني) أن المراد من قوله (ويتم نعمته عليك) خلاصه من المحن، ويكون وجه التشبيه في ذلك بابراهيم وإسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على ابراهيم بإنجائه من النار وعلى ابنه إسحق بتخليصه من الذبح.

(والقول الثالث) أن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعمة الآخرة بأن

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمَسْئَلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾

جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة .

واعلم أن القول الصحيح هو الأول ، لأن النعمة النامة في حق البشر ليست إلا النبوة ، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها ، ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله (إن ربك عليم حكيم) فقوله (عليم) إشارة إلى قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وقوله (حكيم) إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث ، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية .

فان قيل : هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها أم لا ؟ فان كان قاطعا بصحتها ، فكيف حزن على يوسف عليه السلام ، وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله ، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه ، وكيف قال لإخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون ، مع علمه بأن الله سبحانه سيحجتيه ويجعله رسولا ، فاما إذا قلنا إنه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الأحوال ، فكيف قطع بها ؟ وكيف حكم بوقوعها ؟ حكما جازما من غير تردد .

قلنا : لا يبعد أن يكون قوله (وكذلك يجتنيك ربك) مشروطا بأن لا يكيدوه ، لأن ذكر ذلك قد تقدم ، وأيضاً فبتقدير أن يقال : إنه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لا يمتنع أن يقع في المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب) الزجر عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه .

قوله تعالى ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوסף وأخوه أحب إلى
أيننا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين﴾
في هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر صاحب الكشاف أسماء إخوة يوسف : يهودا ، روبيل ، شمعون
لاوي ، ربالون ، يشجر ، دينة ، دان ، نفتالي ، جاد ، آشر . ثم قال : السبعة الأولون من ليا بنت

خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريتين . زلفة وبلهة ، فلما توفيت لياتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف .

(المسألة الثانية) قوله (آيات للسائلين) قرأ ابن كثير آية بغير ألف حملة على شأن يوسف والباقيون (آيات) على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه .

(المسألة الثالثة) ذكروا في تفسير قوله تعالى (آيات للسائلين) وجوهاً الأول : قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة ، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع ، فقالوا له من عليك هذه القصة ؟ فقال : الله علي ، فنزل (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) وهذا الوجه عندي بعيد ، لأن المفهوم من الآية أن في واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذي نقلناه ما كانت الآيات في قصة يوسف ، بل كانت الآيات في أخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر . والثاني : أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد وبالآخرة فإن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجرآله عن الإقدام على الحسد والثالث : أن يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك أن الله تعالى لما وعد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء ، فاذا تأخر ذلك الموعد مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذباً فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه . الرابع : أن إخوة يوسف بالغوا في إبطال أمره ، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الأعداء ، فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في إبطال أمره . وأما قوله (للسائلين) فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ، وهو كقوله تعالى (في أربعة أيام سواء للسائلين)

ثم قال تعالى ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) قوله (ليوسف) اللام لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة . أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين ، وإنما قالوا أخوه ، وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ، وقيل إلى الأربعين سمو بذلك

لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ، ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ (ونحن عصبه) بالنصب قيل :
معناه ونحن نجتمع عصبه .

(المسألة الثانية) المراد منه بيان السبب الذي لاجله قصدوا إيذاء يوسف ، وذلك أن يعقوب
كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه : الأول : أنهم كانوا
أكبر سناً منهما . وثانيها : أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياماً بمصالح الأب منهما . وثالثها : أنهم
قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات ، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات . إذا ثبت
ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل ، ثم إنه عليه السلام كان يفضل
يوسف وأخاه عليهم . لاجرم قالوا (إن أبانا لفي ضلال مبين) يعنى هذا حيف ظاهر وضلال
بين . وههنا سوالات :

(السؤال الأول) إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد
والحسد ، ويورث الآفات . فلما كان يعقوب عليه السلام عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل
وأيضاً الأسن والأعلم والأنافع أفضل ، فلم قلب هذه القضية ؟
والجواب : أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة . والمحبة ليست في وسع
البشر فكان معذوراً فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم .

(السؤال الثاني) أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقاً من
عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه ، وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله ، وإن كانوا مكذبين
لنبوته . فهذا يوجب كفرهم .

والجواب : أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقاً من عند الله تعالى ، إلا أنهم
لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد ، ثم
إن اجتهادهم أدى إلى تخطئه أبيهم في ذلك الاجتهاد ، وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان
ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة
والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل . وأما يعقوب عليه السلام
فلعله كان يقول : زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة ، فليس لله على فيه تكليف . وأما تخصيصهما
بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه : أحدها : أن أمهما ماتت وهما صغار . وثانيها : لأنه كان يرى
فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد . وثالثها : لعله عليه السلام وإن كان صغيراً
إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد ، والحاصل

اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من
بعده قوماً صالحين ﴿٩﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة
الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴿١٠﴾

أن هذه المسألة كانت اجتهادية ، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة ، فلا يلزم من وقوع
الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه .

(السؤال الثالث) أنهم نسبوا أباهم الى الضلال المبين ، وذلك مبالغه في الذم والظعن ، ومن
بالغ في الظعن في الرسول كفر ، لاسيما اذا كان الطاعن ولداً فان حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم .
والجواب : المراد منه الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب .
(السؤال الرابع) أن قولهم (لوسف وأخوه أحب الى أينا منا) محض الحسد ، والحسد من
أمهات الكبائر ، لاسيما وقد أقدوا على الكذب بسبب ذلك الحسد ، وعلى تضييع ذلك الأخ
الصالح وإلقائه في ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق ، وألقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف
العظيم ، وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذهبهم ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد أتوا
بها ، وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة .

والجواب : الأمر كما ذكرتم ، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت
حصول النبوة . وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم .

قوله تعالى (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين)
واعلم انه لما قوى الحسد وبلغ النهاية قالوا لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه : وذلك لا يحصل
إلا بأحد طريقين : القتل ، أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه
في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ، ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم (يخل لكم وجه أبيكم) والمعنى
أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فاذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة (وتكونوا من بعده
قوماً صالحين) وفيه وجوه : الأول : أنهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا :
إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين . والثاني : أنه ليس المقصود ههنا صلاح الدين
بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محباً لكم مشتغلاً بشأنكم . الثالث : المراد أنكم بسبب

هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لاصلاح مهم ، فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم ، واختلفوا في أن هذا القائل الذي أمر بالقتل من كان ؟ على قولين : أحدهما : أن بعض إخوته قال هذا . والثاني : أنهم شاوروا أجنبياً فأشار عليهم بقتله ، ولم يقل ذلك أحد من إخوته ، فأما من قال بالأول فقد اختلفوا . فقال وهب : إنه شمعون ، وقال مقاتل : روييل .

فان قيل : كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء ؟

قلنا : من الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا في هذا الوقت مراقبين وما كانوا بالغين ، وهذا ضعيف ، لأنه يبعد من مثل نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح . وأيضاً أنهم قالوا (وتكفونوا من بعده قوماً صالحين) وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين ، وذلك يناقض كونهم من الصبيان ، ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغار ، وهذا أيضاً بعيد لأن إيذاء الأب الذي هو نبي معصوم ، والكذب معه والسعي في إهلاك الأخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر ، بل الجواب الصحيح أن يقال : إنهم ما كانوا أنبياء ، وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة .

ثم إنه تعالى حكى أن قاتلاً قال (لا تقتلوا يوسف) قيل إنه كان روييل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأياً فيه فمنعهم عن القتل ، وقيل يهودا ، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن .

ثم قال ﴿وألقوه في غياث الجب﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع (في غياث الجب) على الجمع في الحرفين ، وهذا والذي بعده ، والباقيون (غياث) على الواحد في الحرفين . أما وجه الغياث فهو أن للجب أقطارا ونواحي ، فيكون فيها غياثات ، ومن وحد قال : المقصود موضوع واحد من الجب يغيب فيه يوسف ، فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب . وقرأ الجحدري (في غيبة الجب)

﴿المسألة الثانية﴾ قال أهل اللغة : الغياث كل ما غيب شيئا وستره ، فغياث الجب غوره ، وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله ، والجب البئر التي ليست بمطوية سميت جبا ، لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبه ذلك ، وإنما ذكرت الغياث مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغياث هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين .

﴿المسألة الثالثة﴾ الألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق ، واختلفوا في ذلك الجب

قَالُوا يَا أَبَانَا مَالِكٌ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا

غَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

فقال قتادة: هو بئر بيت المقدس، وقال وهب: هو بأرض الأردن، وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وإنما عينوا ذلك الجب لليلة التي ذكروها وهي قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب، لأن السيارة إذا جازوا وردوها، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها، وإذا شاهده أخرجه وذهبوا به فكان القاؤه فيها أبعد عن الهلاك.

﴿المسألة الرابعة﴾ الالتقاط تناول الشيء من الطريق، ومنه: اللقطة واللقيط، وقرأ الحسن (تلتقطه) بالياء على المعنى، لأن بعض السيارة أيضاً سيارة، والسيارة الجماعة الذين يسرون في الطريق للسفر. قال ابن عباس: يريد المسارة وقوله (إن كنتم فاعلين) فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك، وأما إن كان ولا بد فاقصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى (وإن عاقبتهم فاعقبوا بمثل ما عوقبتهم به) يعني الأولى أن لا تفعلوا ذلك.

قوله تعالى «قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون»

اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول.

واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه، وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة إلى الرعي فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطيب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم. وفي الآية مسائل.

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف: (لا تأمنا) قرئ باظهار النون وبالادغام باشمام وبغير إشمام، والمعنى لم نخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به.

﴿المسألة الثانية﴾ في (يرتع ويلعب) خمس قراءات:

﴿القراءة الأولى﴾ قرأ ابن كثير: بالنون، وبكسر عين يرتع من الارتعاء، ويلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت، يقال: رعت الماشية الكلاً ترعاه رعيًا إذا أكلته. وقوله (يرتع)

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾

الارتعاء للابل والمواشى ، وقد أضافوه إلى أنفسهم ، لأن المعنى نرتع إبلنا ، ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم هم السبب في ذلك الرعى ، والحاصل أنهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال إلى أنفسهم لأنهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب إلى يوسف لصغره .

(القراءة الثانية) قرأ نافع : كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء إلى يوسف بمعنى أنه يباشر رعى الابل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان .

(القراءة الثالثة) قرأ أبو عمرو وابن عامر (رتع) بالنون وحزم العين ومثله نلعب . قال ابن الأعرابي : الرتع الأكل بشره ، وقيل : إنه الخصب ، وقيل : المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان ، وأما نلعب فروى أنه قيل لأبي عمرو : كيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لجابر «فهلأ بكرا تلاعبها وتلاعبك» وأيضا كان لعبهم الاستباق ، والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار ، والدليل عليه قولهم : إنا ذهبنا نستيق وإنما سموه لعبا لأنه في صورته .

(القراءة الرابعة) قرأ أهل الكوفة : كليهما بالياء وسكون العين ، ومعناه اسناد الرتع واللعب إلى يوسف عليه السلام .

(القراءة الخامسة) (رتع) بالياء (ونلعب) بالنون وهذا بعيد ، لأنهم إنما سألوا إرسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب ، والله أعلم .

قوله تعالى «قال إني ليحزنتي أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون»

اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة . والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به . قيل : إنه رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف ، فكان يحزنه فمن هذا ذكر ذلك ، وكأنه لقنهم الحجة ، وفي أمثالهم البلاء موكل بالمنطق . وقيل : الذئاب كانت في أراضهم كثيرة ، وقرئ (الذئب) بالهمز على الأصل وبالتخفيف . وقيل : اشتقاقه من

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لِتَتَّبِعَنَّهُمْ
بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

تذابت الريح إذا أتت من كل جهة ، فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) وفيه سؤالات :

(السؤال الأول) ما فائدة اللام في قوله (لئن أكله الذئب)

والجواب من وجهين : الأول : أن كلمة إن تفيد كون الشرط مستلزماً للجزاء ، أي إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون ، فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام . الثاني : قال صاحب الكشاف هذه اللام تدل على إضرار القسم تقديره : والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين .

(السؤال الثاني) ما فائدة الواو في قوله (ونحن عصبة)

الجواب : أنها واو الحال حلفوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالمهم أنهم عشرة رجال يمثلهم تعصب الأموز وتكفي الخطوب إنهم إذا لقوم خاسرون .

(السؤال الثالث) ما المراد من قولهم (إنا إذا لخاسرون)

الجواب فيه وجوه : الأول : خاسرون أي هالكون ضعفاً وعجزاً ، ونظيره قوله تعالى (لئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون) أي لعاجزون . الثاني : أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار . وأن يقال خسروهم الله تعالى ودمروهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون . الثالث : المعنى أنا ان لم تقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها . الرابع : أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم في خدمة أبيهم واجتهدوا في القيام بمهماتهما وإنما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا : لو قصرنا في هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الأعمال وخسرنا كل ما صدر منا من أنواع الخدمة .

(السؤال الرابع) أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

والجواب : أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول ، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه .

قوله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتتبعنهم بأمرهم

هذا وهم لا يشعرون)

اعلم أنه لا بد من الاضمار في هذه الآية في موضعين : الأول : أن تقدير الآية قالوا (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله (فلما ذهبوا به) والثاني أنه لا بد لقوله (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) من جواب إذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها ، وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه وههنا كذلك . قال السدي : إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة ، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحمة فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك ، فقال يهودا أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قيصه ، وكان غرضهم أن يبلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب ، فقال لهم ردوا علي قيصى لا توارى به ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكباً لتؤنسك ، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أنه رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فنعمهم وكان يهودا يأتيه بالطعام ، وروى أنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال يا شاهدا غير غائب . ويا قريبا غير بعيد . ويا غالباً غير مغلوب . اجعل لي من أمرى فرجا ومخرجا ، وروى أن ابراهيم عليه السلام لما ألقى في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، فدفعه ابراهيم إلى اسحق ، واسحق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تيممة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه إياه .

ثم قال تعالى ﴿وأوحينا اليه لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في قوله (وأوحينا اليه) قولان : أحدهما : أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغاً أو كان صبيّاً قال بعضهم : إنه كان في ذلك الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة ، وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام .

﴿والقول الثاني﴾ إن المراد من هذا الوحي الالهام كما في قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وقوله (وأوحى ربك إلى النحل) والأول : أولى ، لأن الظاهر من الوحي ذلك .

فان قيل : كيف يجعله نبياً في ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة ؟

قلنا : لا يمتنع أن يشرفه بالوحي والتنزيل ويأمره بقبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾
وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه .

(المسألة الثانية) في قوله (وهم لا يشعرون) قولان : الأول : المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون في ذلك الوقت إنك يوسف ، والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته . وروى أنهم حين دخلوا عليه لطلب الخنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرني هذا الجمام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه في البئر وقتلتم لأبيكم أكلة الذئب ، والثاني : أن المراد إنا أوحينا إلى يوسف عليه السلام في البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال ، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه ، والفائدة في إخفاء نزول ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فرجوا حسدكم فكانوا يقصدون قتله .

(المسألة الثالثة) إذا حملنا قوله (وهم لا يشعرون) على التفسير الأول ، كان هذا أمراً من الله تعالى نحو يوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه ، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة ، مع علمه بوجود أبيه به خوفاً من مخالفة أمر الله تعالى ، وصبر على تجرع تلك المرارة ، فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل إليه تلك الغيوم الشديدة والمهموم العظيمة ليكثر رجوعه إلى الله تعالى ، وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل إلى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة . والله أعلم .

قوله تعالى (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

اعلم أنهم لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جني

عشا بضم العين والتقصير. وقال: عشوا من البكاء فعند ذلك فرع يعقوب وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا لا قال: فما فعل يوسف؟ قالوا (ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص، وروى أن امرأة تحاكت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية ما تراها تبكي؟ قال: قد جاء أخوة يوسف ليكون وهم ظلمة كذبة. لا ينبغي للإنسان أن يقضى إلا بالحق، واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج: يسابق بعضهم بعضاً في الرمي، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر» يعني بالنصل الرمي، وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمى اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة، ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال: استبقا وتسابقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهماً ويدل على صحة هذا التفسير ما روى أن في قراءة عبد الله (إنا ذهبنا ننتضل)

(والقول الثاني) في تفسير الاستباق ما قاله السدي ومقاتل (نستبق) نشدت ونعدو ليتبين أينا أسرع عدواً.

فان قيل: كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان؟

قلنا: الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يحربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولأنه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة وقوله (فأكله الذئب) قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرضوا، وأرادوا أكل الذئب المتاع، والوجه هو الأول.

ثم قالوا (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق، بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أننا قد كذبنا. والحاصل أنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لأنك تهمننا. وقيل: المعنى: إنا وإن كنا صادقين فانك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمانة تدل على صدقنا.

(المسألة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق، لأن المراد من قوله (وما أنت بمؤمن لنا) أي بمصدق. وإذا ثبت أن الأمر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبقى في عرف الشرع كذلك، وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله (الذين يؤمنون بالغيب)

ثم قال تعالى (وجاؤا على قبيصه بدم كذب) وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) إنما جاؤا بهذا القميص المطلخ بالدم ليؤم كونهم صادقين في مقاتلتهم . قيل : ذبحوا جدياً ولطخوا ذلك القمص بدمه . قال القاضي : ولعل غرضهم في نزع قميصه عند لقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم ، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقرن بهذا الخذلان ، فلو خر قوه مع لطحه بالدم لكان الإيهام أقوى ، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحاً علم كذبهم .

(المسألة الثانية) قوله (وجاؤا على قميصه) أي وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال : جاؤا على جهلم بأحمال .

(المسألة الثالثة) قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الأنباري (بدم كذب) أي مكذوب فيه ، إلا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذي كذب ولكنه جعل نفسه كذباً للبالغة قالوا : والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال : ماء سكب ، أي مسكوب ودرهم ضرب الأمير وثوب نسج اليمن ، والفاعل كقوله (إن أصبح ماؤكم غوراً) ورجل عدل وصوم ، ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمي المصدر أيضاً بهما فقالوا : للعقل المعقول ، وللجلد المجلود ، ومنه قوله تعالى (بأيكم المفتون) وقوله (إذا مزقتم كل ممزق) قال الشعبي : قصة يوسف كلها في قميصه ، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخواه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال (إن كان قميصه قد من قبل) ولما أتى بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيرا ، ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص المطلخ بالدم قال يعقوب عليه السلام (بل سولت لكم أنفسكم أمراً)

قال ابن عباس : معناه : بل زينت لكم أنفسكم أمراً ، والتسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه قال الأزهري : كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان ، وهو أمينته التي يطلبها فتزين لطالها الباطل وغيره . وأصله مهموز غير أن العرب استقلوا فيه الهمز وقال صاحب الكشاف : (سولت) سهلت من السول وهو الاسترخاء

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (بل) رد لقولهم (أكله الذئب) كأنه قال : ليس كما تقولون (بل سولت لكم أنفسكم) في شأنه (أمراً) أي زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون ، واختلفوا في السبب الذي به عرف كونهم كاذبين على وجوه : الأول : أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم . والثاني : أنه كان عالماً بأنه حى لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف (وكذلك يحنئك ربك) وذلك دليل قاطع على أنهم كاذبون في ذلك .

القول الثالث : قال سعيد بن جبير : لما جاؤا على قبيصة بدم كذب ، وما كان متخرفاً ، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قبيصة ، وعن السدي أنه قال : إن يعقوب عليه السلام قال إن هذا الذئب كان رحيماً ، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قبيصة ؟ وقيل : إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم : بل قتله اللصوص ، فقال كيف قتلوه وتركوا قبيصة وهم إلى قبيصة أحوج منه إلى قتله ؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم . ثم قال يعقوب عليه السلام (فصبر جميل) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) منهم من قال : إنه مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف ، والتقدير : فصبر جميل أولى من الجزع ، ومنهم من أضمر المبتدأ قال الخليل : الذي أفعله صبر جميل . وقال قطرب : معناه : فصبري صبر جميل . وقال الفراء : فهو صبر جميل .

(المسألة الثانية) كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقه ، فقبل له : ما هذا ؟ فقال طول الزمان وكثرة الأحزان : فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني ؟ فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي . وروى عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك أنها قالت : والله لئن حلفت لا تصدقوني وإن اعتذرت لا تعذوني ، فثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فأنزله الله عز وجل في عذرها ما أنزل .

(المسألة الثالثة) عن الحسن أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله (فصبر جميل) فقال : «صبر لا شكوى فيه فن بث لم يصبر» ويدل عليه من القرآن قوله تعالى (إنما أشكوا بثي وحرزني إلى الله) وقال مجاهد : فصبر جميل ، أي من غير جزع ، وقال الثوري : من الصبر أن لا يتحدث بوجعك ولا بصيبتك ، ولا تزكي نفسك ، وههنا بحث وهو أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب فاما الصبر على ظلم الظالمين ، ومكر الماكرين فغير واجب ، بل الواجب إزالته لاسيما في الضرر العائد إلى الغير ، وههنا أن أخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ؟ ولم لم يبلغ في التفتيش والبحث سعياً منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان في الأحياء وفي إقامة القصص إن صح أنهم قتلوه ، فثبت أن الصبر في المقام مذموم .

ومما يقوى هذا السؤال أنه عليه الصلاة والسلام كان عالماً بأنه حتى سليم لأنه قال له (وكذلك يحتيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) والظاهر أنه إنما قال هذا الكلام من الوحي وإذا كان عالماً بأنه حتى سليم فكان من الواجب أن يسعى في طلبه ، وأيضاً إن يعقوب عليه السلام كان رجلاً عظيم القدر في نفسه ، وكان من يدت عظيم شريف ، وأهل العالم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلييس . فما السبب في أنه

عليه السلام مع شدة رغبته في حضور يوسف عليه السلام ، ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات . فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلاً وشرعاً .

والجواب عنه : أن نقول لاجواب عنه إلا أن يقال إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه ، وتغليظاً للأمر عليه ، وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص ، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقاتله ، وأيضاً لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة ، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده ومارضى بالقائم في السنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه ، فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالسكينة .

(المسألة الرابعة) قوله تعالى (فصبر جميل) يدل على أن الصبر على قسمين : منه ما قد يكون جميلاً وما قد يكون غير جميل ، فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية .

(والوجه الثاني) أنه يعلم أن منزل هذا البلاء ، حكيم لا يجهل ، وعالم لا يغفل ، عليم لا ينسى رحيم لا يظن ، وإذا كان كذلك ، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصواباً ، فعند ذلك يسكت ولا يعترض .

(والوجه الثالث) أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق ، فاستغراقه في شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء . ولذلك قيل . المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء ، لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ . وموصل النصيب لا يكون محبوباً بالذات بل بالعرض ، فهذا هو الصبر الجميل . أما إذا كان الصبر لاجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض . فذلك الصبر لا يكون جميلاً ، والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسناً وإلا فلا ، وههنا يظهر صدق ما روى في الأثر «استفت قلبك ، ولو أفتاك المفتون» فليتأمل الرجل تأملاً شافياً ، أن الذي أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا ؟ فإن أهل العلم لو أفتونا بالشئ مع أنه لا يكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة . ولما ذكر يعقوب قوله (فصبر جميل) قال (والله المستعان على

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ وَقَالَ يَا بَشْرَى هَذَا غُلَامٌ
وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ
مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

ما تصفون) والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية. والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فلم تحصل إغاثة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله (فصبر جميل) يجرى مجرى قوله (إياك نعبد) وقوله (والله المستعان على ما تصفون) يجرى مجرى قوله (وإياك نستعين) قوله تعالى ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشري هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾

اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة، فقال (وجاءت سيارة) يعنى رفقة تسير للسفر. قال ابن عباس: جاءت سيارة أى قوم يسرون من مدين إلى مصر فاخطوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الحزاعي ليطلب لهم الماء، والوارد الذى يرد الماء ليستقى القوم (فأدلى دلوه) ونقل الواحدى عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر ودلاها إذا نزعها من البئر يقال: أدلى يدلى إدلاء إذا أرسل ودلا يدلو دلواً إذا جذب وأخرج، والدلو معروف، واجمع دلاء (قال يا بشري هذا غلام) وههنا محذوف، والتقدير: فظهر يوسف قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالجليل فنظر الوارد إليه ورأى حسنه نادى، فقال: يا بشري. وفيه مسألتان:

(المسألة الأولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي (بشري) بغير الألف وبسكون الياء، والباقون يابشراى بالألف وفتح الياء على الإضافة.

(المسألة الثانية) في قوله (يا بشري) قولان:

(القول الأول) أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم: يا عجباً من كذا وقوله (يا أسفا

على يوسف) وعلى هذا القول ففي تفسير النداء وجهان: الأول: قال الزجاج: معنى النداء في هذه الاشياء التي لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فاذا قلت: يا عجباه فكأنك قلت اعجبوا. الثاني: قال أبو علي: كأنه يقول: يا أيها البشري هذا الوقت وقتك، ولو كنت ممن يخاطب لخطبت الآن ولأمرت بالحضور.

واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاماً في غاية الحسن وقالوا: نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى،

(والقول الثاني) وهو الذي ذكره السدي أن الذي نادى صاحبه وكان اسمه، فقال يا بشري كما تقول يا زيد. وعن الأعمش أنه قال: دعا امرأة اسمها بشري (يا بشري) قال أبو علي الفارسي: إن جعلنا البشري اسماً للبشارة، وهو الوجه جاز أن يكون في محل الرفع كما قيل: يارجل لا اختصاصه بالنداء، وجاز أن يكون في موضع النصب على تقدير: أنه جعل ذلك النداء شائعاً في جنس البشري، ولم يخص كما تقول: يارجل (ويا حسرة على العباد) وأما قوله تعالى (وأسروه بضاعة) ففيه مسألتان:

(المسألة الأولى) الضمير في (وأسروه) إلى من يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيها، وإن قلنا اشتريناه: سألونا الشركة، فالأصوب أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر. والثاني: نقل عن ابن عباس أنه قال (وأسروه) يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، والمعنى: أنهم أخفوا كونه أخوا لهم، بل قالوا: إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية، والأول أولى لأن قوله (وأسروه بضاعة) يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف.

(المسألة الثانية) البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم إذا قطعت. قال الزجاج: وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال: وأسروه حال ما جعلوه بضاعة.

ثم قال تعالى (والله عليم بما يعملون) والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر في النوم سجدت له وذكر ذلك حسده إخوته عليه واحتالوا في ابطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه في البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود، وأنه تعالى جعل وقوعه في ذلك البلاء سبباً إلى وصوله إلى مصر، ثم تمادت وقائمه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره

الله تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب ، فلهذا المعنى قال (والله عليم بما يعملون)
ثم قال تعالى ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ أما قوله (وشروه) ففيه قولان :
﴿ القول الأول ﴾ المراد من الشراء هو البيع ، وعلى هذا التقدير ففي ذلك البائع قولان :
﴿ القول الأول ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف
في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره ، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار
السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا : هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم : فيبعوه منا فباعوه منهم ،
والمراد من قوله (وشروه) أى باعوه يقال : شريت الشيء إذا بعته ، وإنما وجب حمل هذا الشراء
على البيع ، لأن الضمير في قوله (وشروه) وفي قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) عائد الى شيء واحد
لكن الضمير في قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) عائد الى الاخوة فكذا في قوله (وشروه) يجب
أن يكون عائداً الى الاخوة ، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر ، وقال محمد بن إسحق : ربك أعلم
أخوته باعوه أم السيارة ، وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال : المراد من الشراء نفس الشراء ، والمعنى
أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم علموا بقرائن الحال أن إخوة يوسف كذابون
في قولهم إنه عبدنا وربما عرفوا أيضاً أنه ولد يعقوب ففكرهوا شراءه خوفاً من الله تعالى ، ومن
ظهور تلك الواقعة ، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لأنهم اشتروه بثمن قليل . مع أنهم أظهرها
من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين ، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن ، ويحتمل أيضاً
أن يقال إن الاخوة لما قالوا : إنه عبدنا أبق صار المشتري عديم الرغبة فيه . قال مجاهد : وكانوا
يقولون استوثقوا منه لثلاث يابق .

ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث .

﴿ الصفة الأولى ﴾ كونه بخساً . قال ابن عباس : يريد حراماً لأن ثمن الحرام . وقال كل بخس
في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام ، قال الواحدي سموا الحرام بخساً لأنه ناقص البركة ، وقال
قتادة : بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أى نقصه ، وقال عكرمة والشعبي قليل وقيل : ناقص عن
القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقيل كانت الدراهم زبوافا ناقصة العيار . قال الواحدي رحمه الله تعالى : وعلى
الاقوال كلها ، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم ، والمعنى بثمن مبخوس .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (دراهم معدودة) قيل تعد عدداً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا
بلغ أوقية ، وهى الأربعون وبعدها مادنونها فقيل للقليل معدود ، لأن الكثيره يتمتع من عددها

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتَهُ أَكْرِمِي مِثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ تَتَخَذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَآلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

لكثرتها ، وعن ابن عباس كانت عشرين درهما ، وعن السدي اثنين وعشرين درهما . قالوا والاخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئا .

الصفة الثالثة ﴿ قوله ﴾ (وكانوا فيه من الزاهدين) ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه وأصله القلة . يقال : رجل زهيد إذا كان قليل الطمع ، وفيه وجوه : أحدها : أن إخوة يوسف باعوه ، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين . والثاني : أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بأى شيء يبيعه . أولانهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم ، فلاجرم باعوه بأوكس الأثمان . والثالث : أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين ، وقد سبق توجيه هذه الأقوال فيما تقدم ، والضمير في قوله (فيه) يحتمل أن يكون عائدا إلى يوسف عليه السلام ، ويحتمل أن يكون عائدا إلى الثمن البخرس والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غائب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه إما من الاخوة أو من الواردين على الماء ذهب به الى مصر وباعه هناك . وقيل إن الذي اشتراه قطفير أو إطفير وهو العزيز الذي كان بلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فآبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقيل كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعائة سنة بدليل قوله تعالى (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل اشتراه

العزير بعشرين ديناراً ، وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه في الوزن من المسك والورق والحرير . فابتاعه قطفير بذلك الثمن . وقالوا : اسم تلك المرأة زليخا ، وقيل راعيل .

واعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ، ولم يثبت أيضاً في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات ، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها .

(المسألة الثانية) قوله (أكرمى مشواه) أى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان إذا أقمت به ، ومصدره الثواء والمعنى : اجعلى منزله عندك كريماً حسناً مرضياً بدليل قوله (إنه ربى أحسن مشواى) وقال المحققون أمر العزير امرأته باكرام مشواه دون إكرام نفسه ، يدل على أنه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال : سلام الله على المجلس العالى ، ولما أمرها باكرام مشواه علل ذلك بأن قال (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) أى يقوم باصلاح مهماتنا ، أو نتخذه ولداً ، لأنه كان لا يولد له ولد ، وكان حصوراً .

ثم قال تعالى (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزير ، حتى توصل بذلك الى أن صار متمكناً من الأمر والنهى فى أرض مصر واعلم أن الكلمات الحقيقية ليست إلا القدرة والعلم وأنه سبحانه لما حاول إعلانه شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين ، أما تكميله فى صفة القدرة والمكنة فإليه الإشارة بقوله (مكنا ليوسف فى الأرض) وأما تكميله فى صفة العلم ، فإليه الإشارة بقوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) وقد تقدم تفسير هذه الكلمة .

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى (وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا) وذلك يدل ظاهراً على أنه تعالى أوحى اليه فى ذلك الوقت . وعندنا الارهاص جائز ، فلا يبعد أن يقال : إن ذلك الوحي اليه فى ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته الى الخلق ، بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره . ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام ، ثم انه تعالى قال ههنا (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) والمراد منه إرساله الى الخلق بتبليغ التكليف ، ودعوة الخلق الى الدين الحق ، ويحتمل أيضاً أن يقال : إن ذلك الوحي الأول كان لأجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) على أنه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله وقال ابن مسعود : أشد الناس فراسة ثلاثة : العزير حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مشواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة لما رأت موسى ، فقالت (يا أبت استأجره)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٢٢»

وأبو بكر حين استخلف عمر .

ثم قال تعالى ﴿ والله غالب على أمره ﴾ وفيه وجهان : الأول . غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه ، والثاني : والله غالب على أمر يوسف ، يعني أن انتظام أموره كان إلهياً ، وما كان بسعيه وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله . واعلم أن من تأمل في أحوال الدنيا ومعائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله ، وأن قضاء الله غالب . قوله تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ في الآية مسائل : (المسألة الأولى) وجه النظم أن يقال : بين تعالى أن إخوته لما أساؤا إليه ، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنته الله تعالى في الأرض ، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم ، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزء على صبره على تلك المحن ، ومن الناس من قال : إن النبوة جزاء على الأعمال الحسنة ، ومنهم من قال : إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة . واحتجوا على صحة قولهم : بأنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة .

ثم قال تعالى ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف ، فإن الله يعطيه تلك المناصب ، وهذا بعيد لانفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة . واعلم أن من قال : إن يوسف ما كان رسولا ولا نيا البتة ، وإنما كان عبداً أطاع الله تعالى فأحسن الله إليه ، وهذا القول باطل بالاجماع . وقال الحسن : إنه كان نيا من الوقت الذي قال الله تعالى في حقه (وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا) وما كان رسولا ، ثم إنه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) ومنهم من قال : إنه كان رسولا من الوقت الذي ألقى في غيابة الجب .

(المسألة الثانية) قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان وهذا اللفظ يستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ أشده وبلغوا أشدهم ، وقد ذكرنا تفسير الأشد في سورة الأنعام عند قوله (حتى يبلغ أشده) وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ، ولما بلغ أشده قال ثلاثاً وثلاثين سنة : وأقول هذه الرواية شديدة

الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا إن الانسان يحدث في أول الامر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال ، ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شيء ، فكانت حالته شبيهة بحال القمر، فانه يظهر هلالا ضعيفا ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بديرا تماما ، ثم يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق .

إذا عرفت هذا فنقول : مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوماً وكسرها جعلت هذه الدورة أربعة أقسام ، كان كل قسم منها سبعة أيام . فلاجرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع ، فالانسان إذا ولد كان ضعيف الخلقه نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين ، ثم إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة . ثم لا يزال في الترتق إلى أن يتم له أربع عشرة سنة . فإذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الأسبوع الثالث . وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتحرك فيه الشهوة ، ثم لا يزال يرتقى على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادية والعشرين ، وهناك يتم الأسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين ، وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشو والنماء ، فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء ، وينتقل الانسان منه إلى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ الانسان فيه أشده ، وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ، ثم إن هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان : فهذا الأسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدة والكمال يبدأ من السنة التاسعة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين ، وقد يمتد إلى الخامسة والثلاثين ، فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب ، والله أعلم بحقائق الأشياء .

(المسألة الثالثة) في تفسير الحكم والعلم ، وفيه أقوال :

(القول الأول) أن الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ، ومنعها عما يشينها ، فالمراد من الحكم الحكمة العملية ، والمراد من العلم الحكمة النظرية . وإنما قدم الحكمة العملية هنا على العملية ، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ، ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية . وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فانهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولا ، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية ، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول ، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات ، فلهذا السبب قال (آتيناه حكما وعلما)

(القول الثاني) الحكم هو النبوة ، لأن النبي يكون حاكما على الخلق ، والعلم علم الدين .

(والقول الثالث) يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه

الأمارة بالسوء مستعيلة عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي يَبْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

فاضت الأنوار القدسية والأضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والأنوار العقلية ، إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة . ومنها حرة ونذلة . ومنها شريفة وخسيسة ، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والاضعف والاكل والانقص فاذا اتفق أن كان جوهر النفس الناطقة جوهرأ مشرقا شريفا شديدا لاستعداد لقبول الأضواء العقلية واللوائح الالهية ، فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال . لأن النفس الناطقة إنما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها ، فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن انضجت تلك الرطوبات وقلد واعتدلت ، فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لأن تستعملها النفس الانسانية وإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الأضواء فيها ، فقوله (ولما بلغ أشده) إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية ، وقوله (آتيناه حكما وعلما) إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وراودته التي هو في يبتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ

الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن ، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال : أيدنا إن زوجها كان عاجزا يقال : راود فلان جاريتته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوطء . والجماع (وغلقت الأبواب) والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لاسيما إذا كان - تراما ، ومع قيام الخوف الشديد وقوله (وغلقت الابواب) أى أغلقتها قال الواحدي : وأصل هذا من قولهم في كل شيء تشبث في شيء فلزمه قد غلق يقال : غلق في الباطل وغلق في غضبه ، ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالالف فيقال : أغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه . قال المفسرون : وإنما جاء غلقت على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعت الى نفسها

ثم قال تعالى ﴿وقالت هيت لك﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى : هيت لك اسم للفعل نحو: رويدا ، وصه ، ومه . ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة ، وقال الأخفش (هيت لك) مفتوحة الهاء والتاء ، ويجوز أيضاً كسر التاء ورفعها . قال الواحدى : قال أبو الفضل المنذرى : أفادنى ابن التبريزى عن أبى زيد قال : هيت لك بالعبرانية هياح . أى تعال عربه القرآن ، وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران سقطت الى بكه فتكلموا بها . قال ابن الانبارى : وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى «القسطاس» ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغة العرب والترک فى «الغساق» ولغة العرب والحبشة فى «ناشئة الليل»

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء ، وقرأ ابن كثير (هيت لك) مثل حيث ، وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر (هيت لك) بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك ، والباقون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء ، ثم إنه تعالى قال : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام . قال يوسف عليه السلام (معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى) فقوله (معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذاً ، والضمير فى قوله (إنه) للشأن والحديث (ربى أحسن مثواى) أى ربى وسيدى ومالكى أحسن مثواى حين قال لك : أكرمى مثواه ، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الاحسان بهذه الخيانة القبيحة (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجازون الاحسان بالاساءة ، وقيل : أراد الزناة لانهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضى وضع الشئ فى غير موضعه ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أن يوسف عليه السلام كان حراً وما كان عبداً لأحد فقوله (إنه ربى) يكون كذباً وذلك ذنب وكبيرة .

والجواب : أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً له وأيضاً أنه رباؤه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربا له كونه مربياً له ، وهذا من باب المعارض الحسنة ، فان أهل الظاهر يحملونه على كونه ربا له وهو كان يعنى به أنه كان مربياً له ومنعماً عليه .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يدل قول يوسف عليه السلام (معاذ الله) على صحة مذهبنا فى القضاء والقدر والجواب : أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذاً ، طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل ، وتلك الاعاذة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل والآلة ، وازاحة

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

الاعذار ، وازالة الموانع وفعل اللطاف ، لأن كل ما كان في مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله ، فيكون ذلك إما طلباً لتحصيل الحاصل ، أو طلباً لتحصيل الممتنع وأنه محال فعلنا أن تلك الأعاذة التي طلبها يوسف من الله تعالى لامتني لها ، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة في جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية ، وذلك هو المطلوب ، والدليل على أن المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع بصره على زينب قال «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة ، وإزالة داعية المعصية فكذا ههنا ، وكذا قوله عليه السلام «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» فالمراد من الأصبعين داعية الفعل ، وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يحصلان الا بخلق الله تعالى ، والا لافتقرت إلى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت أن قول يوسف عليه السلام (معاذ الله) من أدل الدلائل على قولنا والله أعلم .

﴿السؤال الثالث﴾ ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء : أحدها : قوله (معاذ الله) والثاني : قوله تعالى عنه (انه ربي أحسن مشاوي) والثالث : قوله (انه لا يفلح الظالمون) فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض ؟

والجواب : هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة انعامه وألطفه في حق العبد فقوله (معاذ الله) إشارة الى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حق يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالاساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة قليلة قليلة يتبعها خزي في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة ، واللذة القليلة اذا لزمها ضرر شديد ، فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها فقوله (انه لا يفلح الظالمون) إشارة إليه ، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب .

قوله تعالى ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾

اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها وفي هذه الآية مسائل :

(المسألة الأولى) في انه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا؟ وفي هذه المسألة قولان :
 الأول : أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة . قال الواحدى : في كتاب البسيط قال المفسرون :
 الموثوق بعلمهم المرجوع الى روايتهم هم يوسف أيضاً بهذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس
 الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه . قال جعفر الصادق رضى الله
 عنه : باسناده عن على عليه السلام أنه قال : طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه هم أن
 يحل التكة ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وعنه أيضا
 أنها استلقت له وجلس بين رجلها ينزع ثيابه ، ثم إن الواحدى طول في كلمات عديدة الفائدة
 في هذا الباب ، وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يعول عليه في تصحيح هذه المقالة ، وما أمعن
 النظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة روى أن يوسف عليه السلام لما قال : ذلك ليعلم أنى لم
 أخنه بالغيب قال له جبريل عليه السلام ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك (وما أبرئ
 نفسى) ثم قال والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع
 منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا لهم عنه ، فهذا خلاصة كلامه في هذا الباب .

(والقول الثانى) أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل ، والهم المحرم ، وهذا
 قول المحققين من المفسرين والمتكلمين ، وبه نقول وعنه نذب .

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة ، ولقد استقصيناها
 في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها إلا أن نزيد هنا وجوها :

(فالحجة الأولى) أن الزنا من منكرات الكبائر والحياة في معرض الأمانة أيضا من منكرات
 الذنوب ، وأيضا مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضا من
 منكرات الذنوب ، وأيضا الصبي إذا تربى في حجر انسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول
 صباه إلى زمان شبابه وكال قوته فاقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الاساءة إلى ذلك المنعم
 المعظم من منكرات الأعمال .

إذا ثبت هذا فنقول : إن هذه المعصية التي نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة
 بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل
 خير لاستنكف منه ، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ! المؤيد بالمعجزات
 القاهرة الباهرة . ثم إنه تعالى قال في غير هذه الواقعة (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) وذلك
 يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ، ولاشك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع

وأخس أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من سوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء . وأيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر ، وذلك لأننا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه ، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة . ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن يحكى عنه ذلك الذنب العظيم ، فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبده أقبح الذنوب وأخس الاعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيب ، فإن ذلك يستنكر جداً فكذا ههنا والله أعلم . الثالث : أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة ، أو هفوة استعظموها ذلك وأتبعوها باظهار الندامة والتوبة والتواضع ، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية . الرابع : أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية .

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة . يوسف عليه السلام ، وتلك المرأة وزوجها ، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب ، وإبليس أقر ببراءته أيضاً عن المعصية ، وإذا كان الأمر كذلك ، فحيث لم يبق للسلم توقف في هذا الباب . أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام (هي راودتني عن نفسي) وقوله عليه السلام (رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه) وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وأيضاً قالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك ، فهو قوله (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك) وأما الشهود . فقوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات : أولها : قوله (لنصرف عنه السوء) واللام للتأكيد والمبالغة . والثاني : قوله (والفحشاء) أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . والثالث : قوله (إنه من عبادنا) مع أنه تعالى قال (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) والرابع : قوله (المخلصين) وفيه قرأتان : تارة باسم الفاعل وأخرى باسم

المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه اليه ، وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته ، فلأنه قال فبعتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين . لقوله تعالى (إنه من عبادنا المخلصين) فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى ، وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلمهم يقولون كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فردنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي :

و كنت امرأ من جند إبليس فارتقى بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بري عما يقوله هؤلاء الجهال .

وإذا عرفت هذا فنقول : الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين :

(المقام الأول) أن نقول لانسلم أن يوسف عليه السلام هم بها . والدليل عليه : أنه تعالى قال (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وجواب (لولا) ههنا مقدم ، وهو كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا أن فلانا خلصك ، وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين : الأول : أن تقديم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح . الثاني : أن (لولا) يجاب جوابها باللام ، فلو كان الأمر على ما ذكرتم لقال : ولقد همت ولهم بها لولا . وذكر غير الزجاج سؤالاً ثالثاً وهو أنه لو لم يوجد لهم لما كان لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

واعلم أن ما ذكره الزجاج بعيد ، لانا نسلم أن تأخير جواب (لولا) حسن جائز ، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب ، وكيف ونقل عن سيويه أنه قال : إنهم يقدمون الأهم فالأهم ، والذي هم بشأنه أعنى فكان الأمر في جواز التقديم والتأخير مربوطاً بشدة الاهتمام . وأما تعيين بعض الالفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة ، وأيضاً ذكر جواب (لولا) باللام جائز . أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز ، ثم إننا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج في هذين السؤالين ، وهو قوله تعالى (إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها)

(وأما السؤال الثالث) وهو أنه لو لم يوجد لهم لم يبق لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

فنقول : بل فيه أعظم الفوائد ، وهو بيان أن ترك الهمة بها ما كان لعدم رغبته في النساء ، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعه عن ذلك العمل ، ثم نقول : إن الذي يدل على أن جواب (لولا) ما ذكرناه أن (لولا) تستدعي جواباً ، وهذا المذكور يصلح جواباً له ، فوجب الحكم بكونه جواباً له لا يقال إنا نضم له جواباً ، وترك الجواب كثير في القرآن ، لآنا نقول : لانزاع أنه كثير في القرآن ، إلا أن الأصل أن لا يكون محذوفاً . وأيضاً فالجواب إنما يحسن تركه وحذفه إذا حصل في اللفظ ما يدل على تعينه ، وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفاً فليس في اللفظ ما يدل على تعين ذلك الجواب ، فإن ههنا أنواعاً من الاضمارات يحسن إضمار كل واحد منها ، وليس إضمار بعضها أولى من إضمار الباقي فظهر الفرق . والله أعلم .

(المقام الثاني) في الكلام على هذه الآية أن نقول : سلمنا أن الهمة قد حصل إلا أنا نقول : إن قوله (وهم بها) لا يمكن حمله على ظاهره لأن تعليق الهمة بذات المرأة محال لأن الهمة من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية ، ثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهمة وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضم شيئاً آخر يغير ما ذكره وبيانه من وجوه : الأول : المراد أنه عليه السلام هم يدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأن الهمة هو القصد ، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به ، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقال : همت بفلان أي بضربه ودفعه فان قالوا : فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين : الأول : أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم يدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله ، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صوتاً للنفس عن الهلاك ، والثاني : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلق به ، فكان يتمزق ثوبه من قدام ، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه ممزقاً من خلف لكانت المرأة هي الخائنة ، فآله تعالى أعلمه بهذا للمعنى ، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً عنها ، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية .

(الوجه الثاني) في الجواب أن يفسر الهمة بالشهوة ، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة . يقول القائل : فيما لا يشتهي ما يهمني هذا ، وفيما يشتهي هذا أهم الأشياء إلى ، فسمى الله تعالى شهوة يوسف

عليه السلام هما، فعنى الآية: ولقد اشتته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود. الثالث: أن يفسر الهم بتحديث النفس، وذلك لأن المرأة الفاتقة في الحسن والجمال اذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوي فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة. فاهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية، ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف، اذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فان طبيعته تحمله على شربه، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه، فهذا لا يدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل، فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذى ذهبنا اليه ولم يبق في يد الواحدى إلا مجرد التصلف وتعدد أسماء المفسرين، ولو كان قد ذكر فى تقرير ذلك القول شبهة لأجبنا عنها، إلا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين.

واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما كذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات» فقلت الأولى أن لا تقبل مثل هذه الاخبار فقال على طريق الاستنكار فان لم يقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له: يامسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب ابراهيم عليه السلام وان ارددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولاشك أن صون ابراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.

اذا عرفت هذا الأصل فنقول للواحدى: ومن الذى يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين، والله أعلم.

(المسألة الثانية) فى أن المراد بذلك البرهان ما هو أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه: الأول: أنه حجة الله تعالى فى تحريم الزنا. والعلم بما على الزانى من العقاب والثانى: أن الله تعالى طهر نفوس الانبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة. بل نقول: انه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الاقدام على المنكرات. والثالث: أنه رأى مكتوباً فى سقف البيت (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) والرابع: أنه النبوة المسانعة من ارتكاب الفواحش، والدليل عليه أن الانبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح. فلو أنهم منعوا الناس عنها، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأخشأ أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)

وأيضاً أن الله تعالى عير اليهود بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وما يكون عيباً في حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات .

وأما الذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام فقد ذكروا في تفسير ذلك البرهان أموراً :
 الأول : قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك ؟ قالت أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصية . فقال يوسف أستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبداً قالوا : فهذا هو البرهان . الثاني : نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاصياً على أصابعه ويقول له : أنتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء فاستحي منه . قال وهو قول عكرمة . ومجاهد . والحسن . وسعيد بن جبیر . وقتادة . والضحاك . ومقاتل . وابن سيرين قال سعيد بن جبیر : تمثل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله . والثالث : قالوا إنه سمع في الهواء قائلاً يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه . والرابع : نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جببريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج ، ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال : هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عن شاهد التنزيل فيقال له : انك لا تأتينا البتة إلا بهذه التصلفات التي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل ، وأيضاً فإن ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز ، وأنه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعاً عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية ، فلما انضاف إليها هذه الزواجر قوى الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جبرواً دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وبقى هناك بغير عمله قالوا : فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوماً ، وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبريل عليه السلام ، والعجب أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام . ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلاً بفاحشة فإذا دخل عليه رجل على زى الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل ، وههنا أنه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت إليه ، ثم إن جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضاً عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام إلى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوتنا عن الغي في الدين ، والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام المخلص في هذه المسألة والله أعلم .

(المسألة الثالثة) في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه : الأول : أن السوء جنابة اليد

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ
 مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢٥» قَالَ هِيَ
 رَأَوْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ
 وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٢٦» وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ «٢٧» فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدُكُنَّ
 عَظِيمٌ «٢٨» يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ
 مِنَ الْخَاطِئِينَ «٢٩»

والفحشاء هو الزنا . الثاني : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة . والفحشاء هو الزنا .
 أما قوله (إنه من عبادنا المخلصين) أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين
 خلصهم الله من الأسواء ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذين قال الله
 فيهم (إنا أخلصناهم بخالصة)

(المسألة الرابعة) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام فى جميع القرآن
 والباقون بفتح اللام .

قوله تعالى (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من
 أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان
 قميصه قد من دبر فكذبت وهي من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن
 عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين)

اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها (همت) أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال (واستبقا الباب) والمراد
 أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها ، والاستباق طلب
 سبق إلى الشيء ، ومعناه تبادر إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح

الباب وخرج ، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لثلاثي يخرج ، وقوله (واستبقا الباب) أى استبقا إلى الباب كقوله (واختار موسى قومه سبعين رجلاً) أى من قومه .
واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته ، أى قطعت طويلاً ، وفى ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله (والفيا سيدها لدى الباب) أى صادفاً بعلمها تقول المرأة لبعلمها سيدى ، وإنما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكاً لذلك الرجل فى الحقيقة ، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح ، وقالت : ماجزء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، والمعنى ظاهر . وفى الآية لطائف : إحداها : أن «ما» يحتمل أن تكون نافية ، أى ليس جزاؤه إلا السجن ، ويجوز أيضاً أن تكون استفهامية يعنى أى شىء جزاؤه إلا أن يسجن كما تقول : من فى الدار إلا زيد . وثانيها : أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى فى إيلاام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوتاً للمحبوب عن الذكر بالسوء والالم ، وأيضاً قالت (إلا أن يسجن) والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف .

فأما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام فى قوله (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) وثالثها : أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها أنه كان فى عنفوان العمر وكال القوة ونهاية الشهوة ، عظم اعتقادها فى طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول إن يوسف عليه السلام قصدنى بالسوء ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض ، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعدقريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح . ورابعها : أن يوسف عليه السلام أراد يضربها ويدفعها عن نفسه ، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء فقولها : ماجزء من أراد بأهلك سوءاً ، جارياً مجرى التعريض فلعبا بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها . وفى ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدنى بما لا ينبغي .

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال : هى راودتنى عن نفسى ، وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها فى أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر .

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق : فالأول : أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسط على مولاه إلى هذا الحد والثاني : أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه ، والثالث : أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه ، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ، الرابع : أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر ، وذلك أيضاً مما يقوى الظن ، الخامس : أن المرأة مانسته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً بجملاً مبهماً ، وأما يوسف عليه السلام فانه صرح بالأمرو لو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فان الخائن خائف : السادس : قيل : إن زوج المرأة كان عاجزاً وأثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فالحاق هذه الفتنة بها أولى ، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعله بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبه ، وهو قوله (وشهد شاهد من أهلها) وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال : الأول : أنه كان له ابن عم وكان رجلاً حكماً . واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجليلة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لاندرى أيكما قدام صاحبه ، فان كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب . وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظر والى القميص ورأوا الشق من خلفه ، قال ابن عمها (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى من عملكن . ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها استغفري لذنبك ، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين . والثاني : وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك : ان ذلك الشاهد كان صبياً أنظفه الله تعالى في المهدي ، فقال ابن عباس : تكلم في المهدي أربعة صغار شاهد يوسف ، وابن ماشطة بنت فرعون ، وعيسى بن مريم ، وصاحب جريج الراهب الراهب قال الجبائي : والقول الأول أولى لوجوه : الأول : أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافياً وبرهاناً قاطعاً ، لأنه من البراهين القاطعة القاهرة ، والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظني ضعيف والعدول عن الحجّة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز . الثاني : أنه تعالى قال (وشهد شاهد من أهلها) وإنما قال من أهلها

ليكون أولى بالقبول في حق المرأة لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والاضرار ، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات إنما يصار إليها عند كون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادرا عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة . ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر . والثالث : أن لفظ الشاهد لا يقع في العرف الاعلى من تقدمت له معرفة بالواقعة وأحاطة بها .

(والقول الثالث) أن ذلك الشاهد هو القميص ، قال مجاهد : الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر ، وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل . واعلم أن القول الأول عليه أيضا إشكال وذلك لأن العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لأن من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبت له لقصده أن تضربه ضربا وجيعا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع أن المرأة تكون بريئة عن الذنب والرجل يكون مذنباً .

وجوابه : أنا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعولوا في الحكم عليها ، بل لأجل أن يكون ذلك جاريا مجرى المقويات والمرجحات ثم إنه تعالى أخبر وقال : (فلسا رأى قميصه) وذلك يحتمل السيد الذي هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه ، قال (إنه من كيدكن) أي ان قولك ماجزاء من أراد بأهلك سوءا من كيدكن إن كيدكن عظيم .

فان قيل : إنه تعالى لما خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم ، وأيضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء .

والجواب عن الأول : أن خلقه الانسان بالنسبة الى خلقه الملائكة والسماوات والكواكب خلقه ضعيفا وكيد النسوات بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضا فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل مالا يكون للرجال ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار مالا يورثه كيد الرجال .

واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال (يوسف أعرض عن هذا) فقيل : إن هذا من قول العزيز ، وقيل : إنه من قول الشاهد ، ومعناه : أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها . وكما أمر يوسف بكتبان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال (واستغفري لذنبك) وظاهر ذلك طلب المغفرة ،

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا
 إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ
 لَهُنَّ مَتَكِنًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجَ عَلَيْنَّ فَلَمَّارَيْنَهُ
 أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
 كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح ، وعلى هذا التقدير فالأقرب أن قائل هذا القول هو الشاهد ، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله ، لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد للقيوم) وعلى هذا التقدير : فيجوز أن يكون القائل هو الزوج . وقول (إنك كنت من الخاطئين) نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم ، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف في أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف منها إقدامها على ما لا ينبغي . وقال أبو بكر الأصم : إن ذلك لزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار . قال صاحب الكشاف : وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير ، تغليبا للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يقال : المراد إنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم . قوله تعالى ﴿وقال نسوة في المدينة امرات العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكنا وآتت كل واحدة منهن سكيना وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾

وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) لم لم يقل (وقالت نسوة) قلنا لوجهين : الأول : أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيته غير حقيقى فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ، الثانى : قال الواحدى تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع .

(المسألة الثانية) قال الكلبي: هن أربع، امرأة ساقى العزيز. وامرأة خبازة. وامرأة صاحب بجنه. وامرأة صاحب دوابه، وزاد مقاتل وامرأة الحاجب. والاشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء. وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومه (تراود فتاها عن نفسه) الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة (قدشغفها حباً) وفيه مسألتان:

(المسألة الأولى) أن الشغاف فيه وجوه: الأول: أن الشغاف جلدة محيطه بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلاناً إذا أصبت شغافه كما تقول كبده أي أصبت كبده فقوله (شغفها حباً) أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب. والثاني: أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجاباً بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه. والثالث: قال الزجاج: الشغاف حبة القلب وسويداء القلب، والمعنى: أنه وصل حبه الى سويداء قلبها، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

(المسألة الثانية) قرأ جماعة من الصحابة والتابعين (شعفها) بالعين. قال ابن السكيت: يقال شعفه الهوى إذا بلغ الحد الاحتراق، وشعف الهناء البعير إذا بلغ منه الألم الى حد الاحتراق، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال: الشعف بالعين إحراق الحب القلب مع لذة يجدها، كما أن البعير إذا هنى بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه. وقال ابن الأنباري: الشعف رؤس الجبال، ومعنى شعف بفلان إذا ارتفع حبه الى أعلى المواضع من قلبه.

(المسألة الثالثة) قوله (حبها) نصب على التمييز،

ثم قال (إننا لنها في ضلال مبين) أي في ضلال عن طريق الرشd بسبب حبها إياه كقوله (إن أبانا لفي ضلال مبين)

ثم قال تعالى (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئاً) وفي الآية مسائل: (المسألة الأولى) المراد من قوله (فلما سمعت بمكرهن) أنها سمعت قولهن وإنما سمى قولهن مكرراً لوجوه: الأول: أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه. لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن. الثاني: أن امرأة العزيز أسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر، فلما أظهرن السر كان ذلك عذراً ومكراً. الثالث: أنهن وقعن في غيبتها، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

(المسألة الثانية) أنها لما سمعت أنهم يلبسها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعدت لهم متكاً ، وفي تفسيره وجوه : الأول : المتكاً الخمرق الذي يتكأ عليه . الثاني أن المتكاً هو الطعام . قال العتبي والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة تسمى الطعام متكاً على الاستعارة ، والثالث : متكاً أترجا ، وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكة في ذلك المجلس . والرابع : متكاً طعاماً يحتاج إلى أن يقطع بالسكين ، لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع . ثم نقول : حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً أى لاجل أكل الفاكة أو لاجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ماقدر على مخالفتها خوفاً منها (فلسا رأيت أنه أكبره وقطعن أيديهن) وههنا مسائل :

(المسألة الأولى) في (أ أكبره) قولان : الأول : أعظمه . والثاني (أ أكبره) بمعنى حضن . قال الأزهرى والهاء للسكت يقال أ كبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر . وفيه وجه آخر ، وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فخاضت ، فازصح تفسير الاكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله (قطعن أيديهن) كناية عن دهشتن وحيرتهن ، والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تمطع الفاكة وكانت تقطع يد نفسها ، أو يقال : إنها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدتها وكانت تأخذ الجانب الخاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها .

(المسألة الثالثة) اتفق الاكثرون على أنهم إنما أ أكبره بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل : كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بي الى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا ؟ فقال هذا يوسف فقيل يا رسول الله كيف رأيت به ؟ قال : كالقمر ليلة البدر» وقيل : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلاً لؤلؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها ، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه ، وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه ، وعندى أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهم إنما أ أكبره لأنهم رأين عليه نور النبوة وسيا الرسالة ، وآثار الخضوع والاحتشام ، وشاهدن منه مهابة النبوة ، وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح ، وعدم الاعتداد بهن ، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيبة فتعجبن من تلك

الحالة فلا جرم أكبره وعظمه ، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهم ، وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى .

فان قيل : فاذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها (فذلكم الذي لمننى فيه) وكيف تصير هذه الحالة عذراً لها في قوة العشق وافرط المحبة ؟

قلنا : قد تقرر أن الممنوع متبوع فكأنها قالت لمن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنة يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهاذا الاسبب وقعت في المحبة ، والحسرة ، والارق والقلق ، وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم (المسألة الثالثة) قرأ أبو عمرو (وقلن حاشا لله) باثبات الألف بعد الشين وهي رواية الاصمعي عن نافع وهي الأصل لأنها من المحاشاة وهي التنحية والتباعد ، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن اتباعاً للصحف «وحاشا» كلمة يفيد معنى التنزيه ، والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من المعجز حيث قدر على خلق جميل مثله . وأما قوله (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله .

(المسألة الرابعة) قوله (ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) فيه وجهان :

(الوجه الأول) وهو المشهور أن المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا : لأنه تعالى ركز في الطباع أن لاحى أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لاحى أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم (طلعها كأنه رؤس الشياطين) وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لاجرم شبهته بالملك .

(والوجه الثاني) وهو الأقرب عندى أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة ، وجواذب الغضب ، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتف اليهن البتة ورأين عليه هيئة النبوة وهيبة الرسالة ، وسما الطهارة قلن انا مارأينا فيه أثراً من أثر الشهوة ، ولا شيئاً من البشرية ، ولا صفة من الانسانية ، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغرورة في البشر ، وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل في الملكية .

فان قالوا : فان كان المراد ما ذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة ؟ فالجواب قد

سبق . والله أعلم .

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾

(المسألة الخامسة) القائلون بأن الملك أفضل من البشر . احتجوا بهذه الآية فقالوا : لاشك أنهم إنما ذكرت هذا الكلام في معرض تعظيم يوسف عليه السلام . فوجب أن يكون إخراجهم من البشرية وإدخاله في الملكية سبباً لتعظيم شأنه وإعلاء مرتبته ، وإنما يكون الأمر كذلك لو كان الملك أعلى حالاً من البشر ، ثم نقول : لا يخلو إما أن يكون المقصود بيان كمال حاله في الحسن الذى هو الخلق الظاهر ، أو كمال حاله في الحسن الذى هو الخلق الباطن ، والاول باطل لوجهين : الأول : أنهم وصفوه بكونه كريماً ، وإنما يكون كريماً بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلق الظاهرة ، والثانى : أنا نعلم بالضرورة أن وجه الانسان لا يشبه وجوه الملائكة البتة . أما كونه بعيداً عن الشهوة والغضب معرضاً عن اللذات الجسدية متوجهاً الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب ، والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة .

وإذا ثبت هذا فنقول : تشبيه الانسان بالملك فى الأمر الذى حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة ، فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى هذه الآية . انما وقع فى الخلق الباطن ، لا فى الصورة الظاهرة ، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالاً من الانسان فى هذه الفضائل ، فثبت أن الملك أفضل من البشر والله أعلم .

(المسألة السادسة) لغة أهل الحجاز اعمال «ما» عمل ليس وبها ورد قوله (ما هذا بشراً) ومنها قوله (ماهن أمهاتهم) ومن قرأ على لغة بنى تميم . قرأ (ما هذا بشراً) وهى قراءة ابن مسعود وقرى . (ما هذا بشراً) أى ما هو بعد مملوك للبشر (إن هذا إلا ملك كريم) ثم نقول : ما هذا بشراً ، أى حاصل بشراً بمعنى هذا مشتري ، وتقول : هذا لك بشراً أم بكراً ، والقراءة المعتمدة هى الأولى لموافقها المصحف ، ولقابلة البشر للملك .

قوله تعالى «قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونا من الصاغرين»

اعلم أن النسوة لما قلن فى امرأة العزيز قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين ، عظم ذلك

قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ «٣٣» فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣٤»

عليها فجمعتن (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها .

فان قيل : فلم قالت (فذلكن) مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرا ؟

والجواب عنه من وجوه : الأول : قال ابن الأنباري : أشارت بصيغة ذلكن إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس . والثاني : وهو الذي ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ما قيل : إن النسوة كن يقن إنهن عاشقت عبدها الكنعاني ، فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني فيه يعني : أنكرن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة .

واعلم أنها لما أظهرت عندها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت (واقدر أودته عن نفسه فاستعصم)

وادلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة ، وعن السدي أنه قال (فاستعصم) بعد حل السراويل . وما الذي يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب .

ثم قال (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار ، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام ، وقوله (وليكونا) كان حمزة والكسائي يقفان على (وليكونا) بالالف ، وكذلك قوله (لنسفعا) والله أعلم .

قوله تعالى (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)

واعلم أن المرأة لما قالت (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها

وإلا وقعت في السجن وفي الصغار ، فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة : أحدها : أن زليخا كانت في غاية الحسن . والثاني : أنها كانت ذات مال وثروة ، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها . والثالث : أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء في هذا الباب شديد ، والرابع : أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه ، فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها ، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه .

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تنى بمحصول هذه العصمة القوية ، فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال (رب السجن أحب إلى مما يدعونني اليه) وقرئ (السجن) بالفتح على المصدر ، وفيه سؤالان :

(السؤال الأول) السجن في غاية المكروهية ، وما دعونه اليه في غاية المطلوية ، فكيف قال : المشقة أحب الى من اللذة :

والجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة ، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، وذلك المكروه وهو اختيار السجن ، كان يستعقب سعادات عظيمة ، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة ، فلهذا السبب قال (السجن أحب إلى مما يدعونني إليه)

(السؤال الثاني) أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية .

والجواب : تقدير الكلام أنه إذا كان لا بد من التزام أحد الأمرين أعنى الزنا والسجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شراً فأكفهما أو لهما بالتحمل .

ثم قال (وإلا تصرف عنى كيدهن وأصب إليهن وأكن من الجاهلين) أصب إليهن أمل إليهن يقال : صبأ الى اللهو يصبو صبواً اذا مال ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الانسان لا يتصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها قالوا : لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقديره : أن القدرة والداعي إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل ، لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولها حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال ، وإن حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد . وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية ، بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحاً لأنه متى

ثُمَّ بَدَّاهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ
السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ
فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا تَأْوِيلُهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان ، فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان
حال حصول المرجوحية ، وهو يقتضى حصول الجمع بين التقيضين وهو محال ، فثبت بهذا أن
انصراف العبد عن القبيح ليس لإيمان الله تعالى . ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر ، وهو
أنه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية . وهو الارتفاع
بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعموم وحصل في الأعراض عنها جميع الأسباب المنفرة ، ومتى
كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك ، فطلب من الله سبحانه
وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية . إذ لو لم يحصل هذا
المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية غالبا عما يعارضه ، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو
المراد بقوله (أصب إليهن وأكن من الجاهلين)

قوله تعالى ﴿ ثم بداهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنته حتى حين ودخل معه السجين فتیان قال
أحدهما إني أراي أعصر خمرا وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبرا تأكل الطير منه نبثنا
بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾

وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم
لم يتعرض له ، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على
مرادها ، فلم يلتفت يوسف اليها ، فلما أيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها : إن هذا
العبد العبراني فضحنى في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه ، وأنا لا أقدر على إظهار عذرى ، فاما
أن تأذن لي فأخرج واعتذر وإما أن تحبسه كما حبستني ، فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصح
حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة ، فهذا هو المراد من قوله
(ثم بداهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنته حتى حين) لأن البداء عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه

في الأول ، والمراد من الآيات برأته بقدر القميص من دبر ، وخمش الوجه ، وإلزام الحكم إياها بقوله (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع آخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيًا في إخفاء الفضيحة .

(المسألة الثالثة) قوله (بداهم) فعل وفاعله في هذا الموضع قوله (ليسجننه) وظاهر هذا الكلام يقتضى إسناد الفعل الى فعل آخر ، إلا أن النحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل الى الفعل لا يجوز ، فإذا قلت خرج ضرب لم يفد البتة ، فعند هذا قالوا : تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه ، إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم ، وأقول : الذوق يشهد بأن جعل الفعل مخبر عنه لا يجوز وليس لأحد أن يقول الفعل خبرا لجعل الخبر مخبرا عنه لا يجوز ، لانا نقول : الاسم قد يكون خبرا كقولك : زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلنا أن كون الشيء خبراً لا ينافي كونه مخبراً عنه ، بل نقول في هذا المقام : شكوك أحدها : أنا إذا قلنا : ضرب فعل فالخبر عنه بأنه فعل هو ضرب ، فالفعل صار مخبراً عنه . فان قالوا : المخبر عنه هو هذه الصيغة وهي اسم فنقول : فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لافعل وذلك كذب وباطل ، بل نقول المخبر عنه بأنه فعل ان كان فعلا فقد ثبت أن الفعل يصح الاخبار عنه وان كان اسماً كان معناه : انا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم أنه باطل . وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في كتب المعقولات .

(المسألة الثالثة) قال أهل اللغة : الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه ، وعلى الطويل ، وقال ابن عباس : يريد الى انقطاع المقالة . وما شاع في المدينة من الفاحشة ، ثم قيل : الحين ههنا خمس سنين ، وقيل : بل سبع سنين ، وقال مقاتل بن سليمان : حبس يوسف اثنتي عشر سنة ، والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة ، وإنما القدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى (وادكر بعد أمة)

أما قوله تعالى (ودخل معه السجن فتيان) فههنا محذوف ، والتقدير : لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله (ودخل معه السجن فتيان) عليه قيل : هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه ، والآخر صاحب شرابه رفع اليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقى في الآية سؤالات :

(السؤال الأول) كيف عرفا أنه عليه السلام عالم بالتعبير؟

والجواب : لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا إنا رأينا في المنام هذه الرؤيا ، ويحتمل أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤيا فعندها ذكرا له ذلك .

{السؤال الثاني} كيف عرف أنهما كانا عبيد للملك :

الجواب : لقوله (فيسقى ربه خمرا) أي مولاه وبقوله (اذكرني عند ربك)

{السؤال الثالث} كيف عرف أن أحدهما صاحب شراب الملك ، والآخر صاحب طعامه ؟

والجواب : رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر والآخر كأنه

يحمل فوق رأسه خبزاً .

{السؤال الرابع} كيف وقعت رؤية المنام ؟

والجواب : فيه قولان :

{القول الأول} أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله إني أعبر الأحلام فقال

أحد الفتين ، هلم فلنختبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكون رأيا شيئاً .

قال ابن مسعود : ما كانا رأيا شيئاً وإنما تحالما ليختبرا عليه .

{والقول الثاني} قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام

فسألاه عنها ، فقال الساقى أيها العالم إني رأيت كأنني في بستان فاذا بأصل عنب حسنة فيها ثلاثة أغصان

عليها ثلاثة عناقيد من عنب لجنيتها وكان كأس الملك يدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك

قوله (إني أراي أعصر خمرا) وقال صاحب الطعام إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها

خبز وألوان وأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى (وقال الآخر إني أراي أحمل

فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه)

{السؤال الخامس} كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله (إني أراي أعصر

خمراً) رؤيا المنام ؟

الجواب : لوجوه : الأول : أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله (أعصر) يغنيه عن ذكر قوله

(أراي) والثاني : دل عليه قوله (نبقنا بتأويله)

{السؤال السادس} كيف يعقل عصر الخمر ؟

الجواب : فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أي العنب الذي يكون

عصيره خمراً مخدفاً المضاف . الثاني : أن العرب تسمى الشيء بأسم ما يؤل إليه إذا انكشف المعنى

ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيراً . والثالث : قال أبو صالح : أهل عمان

يسمون العنب بالخمر فوقت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك : نزل القرآن

بالسنة جميع العرب .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ

(السؤال السابع) مامعنى التأويل فى قوله (نبأنا بتأويله)

الجواب : تأويل الشئ ما يرجع إليه وهو الذى يؤول إليه آخر ذلك الأمر .

(السؤال الثامن) ما المراد من قوله (إنا نراك من المحسنين)

الجواب من وجوه : الأول : معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتى بمكارم الاخلاق وجميع
الافعال الحميدة . قيل : إنه كان يعود مرضاهم ، ويؤنس حزينهم فقالوا إنك من المحسنين ، أى فى حق
الشركاء والأصحاب ، وقيل : إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك
من المحسنين فى أمر الدين ، ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا ، وفى سائر
الأمور . وقيل : المراد (إنا نراك من المحسنين) فى علم التعبير ، وذلك لأنه متى عبر لم يخط كما قال
(وعلمتنى من تأويل الأحاديث)

(السؤال التاسع) ما حقيقة علم التعبير ؟

الجواب : القرآن والبرهان يدلان على صحته . أما القرآن فهو هذه الآية ، وأما البرهان فهو أنه
قد ثبت أنه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ، ومطالعة
اللوح المحفوظ والمسافع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفى وقت النوم يقل هذا التشاغل
فتقوى على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثاراً مخصوصة مناسبة
لذلك الإدراك الروحاني إلى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الإدراكات
العقلية فهذا كلام مجمل ، وتفصيله مذکور فى الكتب العقلية ، والشريعة مؤكدة له روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال «الرؤيا ثلاثة : رؤيا ما يحدث به الرجل نفسه ، ورؤيا تحدث من الشيطان
ورؤيا التى هى الرؤيا الصادقة حقة» وهذا تقسيم صحيح فى العلوم العقلية وقال عليه السلام «رؤيا
الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»

قوله عز وجل (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكمما علمنى
ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعتم ملة آبائى إبراهيم وإسحق

شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن
أكثر الناس لا يشكرون ﴿
وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لمسألا عنه فلا بد ههنا من بيان
الوجه الذي لأجله عدل عن ذكر الجواب الى هذا الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوهاً : الأول :
أنه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب ، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته
عن سماع هذا الكلام ، فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وعلامه ، حتى اذا جاء
بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة . الثاني : لعله عليه السلام أراد أن
يبين أن دجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه ، وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير ، ولا شك
أن هذا العلم مبنى على الظن والتخمين ، فبين لهما أنه لا يمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع
واليقين مع عجز كل الخلق عنه ، واذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس في علم التعبير
كان أولى ، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا في علم التعبير واصلا فيه الى ما لم
يصل غيره ، والثالث : قال السدي (لا يأتيكما طعام ترزقانه) في النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا
ليس بمقصود على شيء دون غيره ، ولذلك قال (إلا نبأتكما بتأويله) الرابع : لعله عليه السلام لما
علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله : فأورد عليهما ما يدل على كونه رسولا من عند الله تعالى ، فان الاشتغال
باصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا ، والخامس : لعله عليه السلام لما علم أن
ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الاسلام حتى لا يموت على الكفر ، ولا يستوجب
العقاب الشديد (وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) والسادس : قوله (لا يأتيكما طعام
ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) محمول على اليقظة ، والمعنى : أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما أى
طعام هو ، وأى لون هو ، وكم هو ، وكيف يكون عاقبته ؟ أى اذا أكله الانسان فهو يفيد الصحة
أو السقم ، وفيه وجه آخر ، قيل : كان الملك اذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما فأرسله اليه ،
فقال يوسف لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما أن فيه سما أم لا ، هذا هو المراد من قوله (لا يأتيكما طعام
ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) وحاصله راجع إلى أنه ادعى الاخبار عن الغيب ، وهو يجرى مجرى

قول عيسى عليه السلام ، وأنبتكم بما تأكلون ، وما تدخرون في بيوتكم ، فالوجوه الثلاثة الأولى لتقرير كونه فائقاً في علم التعبير ، والوجوه الثلاثة الأخرى لتقرير كونه نبياً صادقاً من عند الله تعالى .

فان قيل : كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم ادعاء النبوة ؟ قلنا : إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لا بد وأن يقال : إنه كان قد ذكره ، وأيضاً ففي قوله (ذلكما علمني ربي) وفي قوله (واتبعت ملة آبائي) ما يدل على ذلك .

ثم قال تعالى (ذلكما علمني ربي) أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبركما بروحي من الله وعلم حصل بتعليم الله .

ثم قال (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) وفيه مسائل : (المسألة الأولى) لقائل أن يقول : في قوله (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة . فنقول جوابه من وجوه : الأولى : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه . والثاني : وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية ، ثم إنه أظهره في هذا الوقت ، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أو تلك الكفرة بحسب الظاهر .

(المسألة الثانية) تكرير لفظ (هم) في قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل انكارهم للمعاد كان أشد من انكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم في انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) إشارة إلى علم المبدأ . وقوله (وهم بالآخرة هم كافرون) إشارة إلى علم المعاد ، ومن تأمل في القرآن المجيد وتفكر في كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإزالة الكتب صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد ، وإن ما وراء ذلك عبث ،

ثم قال تعالى (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) وفيه سؤالات :

(السؤال الأول) ما الفائدة في ذكر هذا الكلام

الجواب : أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة ، وأن أباه وجدته وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله . فان الإنسان متى ادعى حرفة

أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه ، وأبضا فكما أن درجة ابراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهوراً في الدنيا ، فاذا ظهر أنه ولد لهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال ، فكان انقيادهم له آتم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل .

(السؤال الثاني) لما كان نبيا فكيف قال . إني اتبعت ملة آبائي ، والنبي لا بد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه .

قلنا : لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير ، وأيضا لعله كان رسولا من عند الله ، إلا أنه كان على شريعة ابراهيم عليه السلام .

(السؤال الثالث) لم قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) وحال كل المكلفين كذلك ؟
والجواب : ليس المراد بقوله (ما كان لنا) أنه حرم ذلك عليهم ، بل المراد أنه تعالى طهر آباءه عن الكفر ، ونظيره قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد)
(السؤال الرابع) ما الفائدة في قوله (من شيء) .

الجواب : أن أصناف الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة ، فقوله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق ، وإرشاد الى الدين الحق ، وهو أنه لا موجد الا الله ولا خالق الا الله ولا رازق الا الله .

ثم قال (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) وفيه مسألة . وهي أنه قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) .

ثم قال (ذلك من فضل الله) فقوله (ذلك) اشارة الى ما تقدم من عدم الاشرار ، فهذا يدل على أن عدم الاشرار وحصول الايمان من الله . ثم بين أن الامر كذلك في حقه بعينه ، وفي حق الناس . ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون ، ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الايمان ، حكى أن واحدا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر ، وقال : هل تشكر الله على الايمان أم لا . فان قلت لا ، فقد خالفت الاجماع ، وان شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلا له ، فقال له بشر إننا نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة ، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة ، فاما أن نشكره على الايمان مع أن الايمان ليس فعلا له ، فذلك باطل ، وصعب الكلام على بشر ، فدخل عليهم ثمامة بن الأشرس وقال : إنا لا نشكر الله على الايمان ، بل الله يشكرنا عليه كما قال (أولئك كانت سعيهم مشكورا) فقال بشر : لما صعب الكلام سهل .

يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهَا أُمَّ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ الْآتِعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

واعلم أن الذي الزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية ، وذلك لأنه تعالى بين أن عدم الاشرار
 من فضل الله ، ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة ، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل
 هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الايمان ، حينئذ تقوى الحجة وتكمل
 الدلالة . قال القاضي قوله (ذلك) ان جعلناه اشارة إلى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى
 لأنه انما حصل بالطفاه وتسهيله ، ويحتمل أن يكون اشارة إلى النبوة .

والجواب : أن ذلك اشارة إلى المذكور السابق ، وذلك هو ترك الاشرار فوجب أن يكون
 ترك الاشرار من فضل الله تعالى ، والقاضي يصره إلى اللطاف والتسهيل ، فكان هذا تركاً للظاهر
 وأما صرفه إلى النبوة فبعيد ، لأن اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه إلى أقرب المذكورات
 وهو ههنا عدم الاشرار .

قوله تعالى ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه
 إلا أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه
 ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (يا صاحبي السجن) يريد صاحبي في السجن ، ويحتمل أيضاً أنه لما
 حصلت مراقبتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبا
 فن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الأولى وكان اثبات النبوة
 مبنياً على إثبات الالهيات لاجرم شرع في هذه الآية في تقرير الالهيات ، ولما كان أكثر الخلق
 مقرين بوجود الاله العالم القادر وإنما الشأن في أنهم يتخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكية

ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضرر منها لاجرم كان سعى أكثر الأنبياء في المنع من عبادة الأوثان ، فكان الأمر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب شرع ههنا في ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الأصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج .

(الحجة الأولى) قوله (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وتقرير هذه الحجة أن نقول : إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل ، وكون الإله واحداً يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات . قال ههنا (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار .

(والحجة الثانية) أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة ، فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها ، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم فعال قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار ، فقوله (أأرباب) إشارة إلى الكثرة لجعل في مقابلته كونه تعالى واحداً وقوله (متفرقون) إشارة إلى كونها مختلفة في الكبر والصغر ، واللون والشكل ، وكل ذلك إنما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله (متفرقون) إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهاراً فهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين .

(والحجة الثالثة) أن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته ، لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أننا نعبد هذا أم ذلك ، وفيه إشارة إلى ما يدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لانعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتها ومعاونتها ، وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذلك أما إذا كان المعبود واحداً ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في أنه لا يستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات إلا هو ، فهذا أيضاً وجه لطيف مستنبط من هذه الآية .

(الحجة الرابعة) أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الأصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات ، إلا أنه لا نزاع في أنها تنفع في أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة ، والآله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى .

(الحجة الخامسة) وهى شريفة عالية ، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ماسواه وهذا يقتضى أن يكون الاله واجب الوجود لذاته إذ لو كان يمكننا لكان مقهوراً لافاهرا ويجب أن يكون واحداً ، إذ لو حصل فى الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ماسواه ، فالاله لا يكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً ، وإذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضى أن يكون الاله شيئاً غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة ، وغير العقل والنفس ، فأما من تمسك بالكواكب فهى أرباب متفرقون وهى ليست موصوفة بأنها قهارة ، وكذا القول فى الطبايع والأرواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف فى إثبات هذا التوحيد المطابق وأنه مقام عال فهذا بمجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقى فيها سؤالان : (السؤال الأول) لم سماها أرباباً وليست كذلك .

والجواب : لا اعتقادهم فيها أنها كذلك ، وأيضاً الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير : والمعنى أنها إن كانت أرباباً فهى خير أم الله الواحد القهار .

(السؤال الثانى) هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال إنها خير أم الله الواحد القهار ؟

الجواب : أنه خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار .

ثم قال (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) وفيه سؤال : وهو أنه تعالى قال فيما قبل هذه الآية (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وذلك يدل على وجود هذه المسميات . ثم قال عقيب تلك الآية (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) وهذا يدل على أن المسمى غير حاصل وبينهما تناقض .

الجواب : أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالاله غير حاصل . وبيانه مزوجيهين : الأول : أن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الالهية ، وإذا كان كذلك كان الشئ الذى هو مسمى بالاله فى الحقيقة غير موجود ولا حاصل ، الثانى : يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الاله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان ومعبودهم فى الحقيقة هو تلك الأنوار السماوية ، وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسماً كبيراً مستقراً على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح أنهم لا يعبدون إلا مجرد الأسماء .

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

واعلم أن جماعة ممن يعبدون الأصنام قالوا نحن لانقول : إن هذه الأصنام آلهة للعالم بمعنى أنها هي التي خلقت العالم إلا أنا نطلق عليها اسم الآلهة ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله أمرنا بذلك ، فأجاب الله تعالى عنه ، فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهاناً ولا دليلاً ولا سلطاناً ، وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس الآلهة ، ثم إنه أمر أن لا تعبدوا إلاياه ، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والجلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الآلهة تعالى لأن منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ، ونعم الله كثيرة وجهات إحسانه إلى الخلق غير متناهية ثم إنه تعالى لما بين هذه الأشياء ، قال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وتفسيره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لأجل أنه تقرر في العقول أن الحادث لا بد له من سبب. فاذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الأربعة ، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك ربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس ، ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة ، فهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ، ثم إنه تعالى اذا وفق إنساناً حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذواتها وصفاتها مفتقرة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم ، فذلك الشخص يكون في غاية الندرة ، فلهذا قال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

قوله عز وجل ﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكره ، والمعنى ظاهر ، وذلك لأن الساقى لما قص رؤياه على يوسف ، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف : ما أحسن ما رأيت . أما حسن العنبه فهو حسن حاله ، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن ، وقال للنخاز : لما قص

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٣﴾

عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ، ثم نقل في التفسير أنهما قالوا مارأينا شيئا فقال (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) واختلف فيما لاجله قالوا مارأينا شيئا ف قيل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما مارأيا شيئا وقيل : إنهما لما كرها ذلك الجواب قالوا مارأينا شيئا .

فان قيل : هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحي من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير ، والاول باطل لأن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نقل أنه إنما ذكره على سبيل التعبير ، وأيضا قال تعالى (وقال للذي ظن أنه ناج منهما) ولو كان ذلك التعبير مبنيا على الوحي لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين ، والثانى : أيضا باطل لأن علم التعبير مبنى على الظن والحسبان .

الجواب : لا يبعد أن يقال : إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فان الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص ، فلما نزل الوحي بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع فى الظن أنه ذكره على سبيل التعبير ، ولا يبعد أيضا أن يقال : إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير ، وقوله (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) ماعنى به ان الذى ذكره واقع لاحالة بل عنى به أنه حكمه فى تعبیر ماسألاه عنه ذلك الذى ذكره .

قوله عز وجل ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾

فيه مسائل :

(المسألة الأولى) اختلفوا فى أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجى فعلى الاول كان المعنى وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا ، وعلى هذا القول ففيه وجهان : الأول : أن تحمل هذا الظن على العلم واليقين ، وهذا اذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي . قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن . قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) وقال (إني ظننت أنى ملاق حسايه) والثانى : أن تحمل هذا الظن على حقيقة

الظن ، وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لانه على الوحي ، بل على الاصول المذكورة في ذلك العلم ، وهي لا تفيد الا الظن والحسبان .

(والقول الثاني) أن هذا الظن صفة الناجي ، فان الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ، ولكنهما كانا حاسني الاعتقاد فيه ، فكان قوله لا يفيد في حقهما الا مجرد الظن .

(المسألة الثانية) قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذي حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك (اذكرني عند ربك) أي عند الملك . والمعنى : اذكر عنده أنه مظلوم من جهة اخوته لما أخرجوه وباعوه ، ثم انه مظلوم في هذه الواقعة التي لاجلها حبس ، فهذا هو المراد من الذكر .

ثم قال تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) وفيه قولان : الأول : أنه راجع الى يوسف ، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه ، وعلى هذا القول ففيه وجهان : أحدهما : أن تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه ، وتقريره من وجوه : الأول : أن مصلحته كانت في أن لا يرجع في تلك الواقعة الى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله ، وأن يقتدى بجده ابراهيم عليه السلام ، فانه حين وضع في المنجنيق ليرمى إلى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال : هل من حاجة ، فقال أما ليك فلا ، فلما رجع يوسف إلى المخلوق لاجرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض ، وذلك التوحيد ، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين ، ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقي لذلك السبب في السجن بضع سنين ، والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين ، وحاصل الأمر أن رجوع يوسف إلى المخلوق صار سبباً لأمرين : أحدهما : أنه صار سبباً لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه . الثاني : أنه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدة طويلة .

(الوجه الثاني) أن يوسف عليه السلام قال في ابطال عبادة الأوثان (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ثم إنه ههنا أثبت ربا غيره حيث قال (اذكرني عند ربك) ومعاذ الله أن يقال إنه حكم عليه بكونه ربا بمعنى كونه إلهيا ، بل حكم عليه بالربوبية كما يقال : رب الدار ، ورب الثوب على أن اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفي الأرباب .

(الوجه الثالث) أنه قال في تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، وذلك نفي للشرك على الاطلاق ، وتفويض الأمور بالكلية الى الله تعالى ، فههنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد .

واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين

فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا الا بمسبب الأسباب .

(الوجه الثاني) في تأويل الآية أن يقال : هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى أن يشرح حاله عند ذلك الملك ، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلى ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول ان شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك .

(القول الثاني) أن يقال إن قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) راجع إلى الناجي والمعنى : أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر (فلبث في السجن بضع سنين) بهذا السبب ، ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روى عنه عليه السلام قال «رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك مالبت في السجن» وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله ، وعن ابراهيم التيمي أنه لما انتهى إلى باب السجن قال له صاحبه : ما حاجتك قال : أن تذكرني عند رب سوى الرب الذي قال يوسف ، وعن مالك لما قال يوسف للساقى اذكرني عند ربك قيل : يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لا طيلح حبسك فبكى يوسف وقال : طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاخوتي .

قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازي رحمه الله ، والذي جربته من أول عمرى إلى آخره أن الانسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة ، والشدة والرزية ، وإذاعول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بلغت فيه إلى السابع والخسين ، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا ملصحة للانسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى واحسانه ومن الناس من رجح القول الثاني لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق ، ولأن الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة .

واعلم أن الحق هو القول الأول وما ذكره هذا القائل الثاني تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الأول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة ، ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه ، وأيضاً ففي لفظ الآية ما يدل على أن هذا القول ضعيف ، لأنه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه .

(المسألة الثالثة) الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا انكار عليه الا أنه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين في بحار العبودية لاجرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانَ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ
خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا
تَعْبُرُونَ «٤٣» قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ «٤٤»

به ، وعند هذا نقول : الذي يصير مؤاخذا بهذا القدر لأن يصير مؤاخذاً بالاقدام على طلب الزنا
ومكافأة الاحسان بالاساءة كان أولى . فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ، ولم يؤاخذه في تلك
القضية البتة ، وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علينا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبته
الجهال والحشوية اليه .

(المسألة الرابعة) الشيطان يمكنه اتقاء الوسوسة ، وأما النسيان فلا ، لأنه عبارة عن ازالة
العلم عن القلب ، والشيطان لا قدرة له عليه . والالكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم .
وجوابه : أنه يمكنه من حيث أنه بوسوسته يدعو إلى سائر الاعمال واشتغال الانسان بسائر
الاعمال يمنع عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة .

(المسألة الخامسة) قوله (فلبث في السجن بضع سنين) فيه بحثان :

(البحث الأول) بحسب اللغة قال الزجاج : اشتقاقه من بضععت بمعنى قطعت ومعناه القطعة
من العدد قال الفراء : ولا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى التسعين . وذلك يقتضي أن يكون
مخصوصاً بما بين الثلاثة إلى التسعة . وقال هكذا رأيت العرب يقولون ومارأيتهم يقولون بضع
ومائة ، وروى الشعبي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه «م البضع» قالوا الله ورسوله أعلم
قال «مادون العشرة» واتفقوا أكثر على أن المراد ههنا بضع سنين . سبع سنين قالوا : إن يوسف
عليه السلام حين قال لذلك الرجل (اذكرني عند ربك) كان قد بقى في السجن خمس سنين ثم بقى
بعد ذلك سبع سنين . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل
كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين ، وروى أن الحسن
روى قوله صلوات الله عليه وسلامه «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها لما لبث في السجن
هذه المدة الطويلة» ثم بكى الحسن وقال : نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس .

قوله تعالى ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن

بتأويل الاحلام بعالمين ﴿

اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هياً له أسباباً ، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس . وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضرة قد انعقد حبها . وسبعاً أخر يابسات ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله (يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي) فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا تقدر على تأويلها وتعبيرها ، فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الليث : العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والأثني عجفاء والجمع عجاف في الذكران والإناث ، وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعاً على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا : سمان وعجاف لأنهما نقيضان ، ومن دأبهم حمل النظير على النظير ، والنقيض على النقيض ، واللام في قوله (لرؤيا تعبرون) على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل ، وقال صاحب الكشاف : يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه وتعبرون خبراً آخر أو حالاً ، ويقال عبرت الرؤيا أعبرها عبارة وعبرتها تعبيراً إذا فسرتها ، وحكى الأزهري أن هذا مأخوذ من العبر ، وهو جانب النهر . ومعنى عبرت النهر ، والطريق قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر ، لأنه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر ، والأضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى (وخذ بيدك ضغثاً)

إذا عرفت هذا فنقول : الرؤيا إن كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه السلام من السجن ، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه ، لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى فشهدت فطرته بأن هذا ليس بحيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه والشئ إذا صار معلوماً من وجهه وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في اتمام الناقص لاسيما إذا كان الانسان عظيم الشأن واسع المملكة ، وكان ذلك الشئ دالاً على الشر من بعض الوجوه . فهذه الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ، ثم إنه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماء عليهم ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة .

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «٤٥»
يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ افْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ «٤٦»

واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير ، بل قالوا : إن علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الاضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لانتهدى اليها ولا يحيط عقلا بها وفيه ايهام أن الكامل في هذا العلم والمتبحر فيه قد يتهدى اليها ، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشراي واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم.

قوله تعالى ﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾

اعلم أن الملك لما سأل الملاء عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشراي إن في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل . وما أخطأ في حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب ، فهذا هو قوله (وقال الذي نجا منهما)

وأما قوله ﴿وادكر بعد أمة﴾ فنقول : سيجيء ادكر في تفسير قوله تعالى (من مدكر) في سورة القمر قال صاحب الكشاف (وادكر) بالدال هو الفصيح عن الحسن (وادكر) بالذال أي تذكر ، وأما الأمة ففيه وجوه : الأول (بعد أمة) أي بعد حين ، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الأيام والساعات والثاني : قرأ الأشهب العقيلي (بعد أمة) بكسر الهمزة والأمة النعمة قال عدى :

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تَأْكُلُونَ «٤٧» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا
مِمَّا تَحْصِنُونَ «٤٨» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ
يَعْصِرُونَ «٤٩»

والمعنى : بعد ما أنعم عليه بالنجاة . الثالث : قرئ (بعد أمة) أى بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها
إذا نسى والصحيح أنها بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم ، وحاصل الكلام أنه إما أن يكون
المراد وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة من الوقت الذى أوصاه يوسف عليه السلام بذكره
عند الملك ، والمراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادكر بعد النسيان .
فان قيل : قوله (وادكر بعد أمة) يدل على أن الناسى هو الشرابى وأتم تقولون الناسى هو
يوسف عليه السلام .

قلنا : قال ابن الانبارى : اذكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقى
انما لم يذكره للملك خوفاً من أن يكون ذلك اذكراً لذنبه الذى من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل
أيضاً أن يقال : حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضاً لذلك الشرابى . وأما قوله
(فأرسلون) خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم ، أما قوله (يوسف أيها
الصدىق) ففيه محذوف ، والتقدير : فأرسل وأتاه وقال أيها الصدىق ، والصدىق هو البالغ فى الصدىق
وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذباً وقيل : لأنه صدق فى تعبير رؤياه وهذا يدل على أن
من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فانه يجب عليه أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالاجلال
ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك ونعم مافعل ، فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب
اختلاف اللفظ كما هو مذكور فى ذلك العلم .

أما قوله تعالى (لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) فالمراد لعلى أرجع إلى الناس بفتواك لعلهم
يعلمون فضلك وعلبك وانما قال لعلى أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب
هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها ، فلهذا السبب قال (لعلى أرجع الى الناس)
قوله عز وجل (قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سبيله إلا قليلاً مما

تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿

اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال (تزرعون) وهو خبر بمعنى الأمر، كقوله (والمطلقات يتربصن . والوالدات يرضعن) وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر، ويخرج الأمر في صورة الخبر للبالغة في الإيجاب، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه . والدليل على كونه في معنى الأمر قوله (فدروه في سنبله) وقوله (دأباً) قال أهل اللغة: الدأب استمرار الشيء على حالة واحدة . وهو دأب يفعل كذا إذا استمر في فعله، وقد دأب يدأب دأباً ودأباً أي زراعة متوالية في هذه السنين . قال أبو علي الفارسي: الأكثرون في دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة، فيكون كشمع وشمع، ونهر ونهر . قال الزجاج: وانتصب دأباً على معنى تدأبون دأباً . وقيل: إنه مصدر وضع في موضع الحال، وتقديره تزرعون دائبين فاحصدتم فدروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه، لأن إبقاء البنية في سنبله يوجب بقاءها على الصلاح (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد) أي سبع سنين مجذبات، والشداد الصعاب التي تشتد على الناس، وقوله (يأكلن ما قدمتم لهن) هذا مجاز، فإن السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسنداً إلى السنين . وقوله (إلا قليلاً مما تحصنون) الإحصان الاحراز . وهو إلقاء الشيء في الحصن يقال أحصنه إحصاناً إذا جعله في حرز، والمراد إلا قليلاً مما تحرزون أي تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) قال المفسرون السبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا، وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شيء يدل عليه بل حصل ذلك من الوحي فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة الخصبية . والسبعة المجذبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم، وعن قتادة زاده الله علم سنة .

فان قيل: لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجذبة لا تزيد على هذا العدد، ومن المعلوم أن الحاصل بعد اقتضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضاً من مدلولات المنام، فلم قلتم إنه حصل بالوحي والالهام؟

فلنا: هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام، أما تفصيل الحال فيه، وهو قوله (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) لا يعلم إلا بالوحي، قال ابن السكيت يقال: غاث الله البلاد يغثها غيثاً إذا أنزل فيها الغيث وقد غيئت الأرض تغاث، وقوله (يغاث الناس) معناه يمحطون، ويجوز أن

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ
النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ
حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ
أَخْنُهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

يكون من قولهم : أغاثه الله إذا ألقاه من كرب أو غم ، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجذب ،
وقوله (وفيه يعصرون) أي يعصرون السمسم دهناً والعب خمراً والزيتون زيتاً ، وهذا يدل على
ذهاب الجذب وحصول الخصب والخير ، وقيل : يجلبون الضروع ، وقرئ (يعصرون) من عصره
إذا نجاه ، وقيل : معناه يمحطون من أعصرت السحابة إذا أعصرت بالمطر ، ومنه قوله (وأنزلنا من
المعصرات ماءً نجاجاً)

قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال
النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم قال ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن
حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الان حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه
من الصادقين ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين﴾

اعلم أنه لما رجع الشرايى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام
استحسنه الملك فقال : ائتوني به ، وهذا يدل على فضيلة العلم ، فانه سبحانه جعل علمه سبباً للخلاصه من
الحمة الدينوية ، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الاخروية ، فعاد الشرايى الى يوسف
عليه السلام قال أجب الملك ، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف
أمره وتزول التهمة بالكلية عنه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «عجبت من يوسف وكرمه
وصبره والله يعفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى
اشترطت أن يخرجولى» ولقد عجبت منه حين أمناه الرسول فقال (ارجع الى ربك) ولو كنت مكانه
ولبثت فى السجن ما لبثت لأسرع الاجابة وبادرتهم الى الباب ؛ ولما ابتغيت العذر أنه كان
حليماً ذا أناة .

واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف الى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل ، وبيانه من وجوه : الأول : أنه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها . فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على برأته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها الى الطعن فيه . الثاني : أن الانسان الذي يقى في السجن اثنتي عشرة سنة اذا طلبه الملك وأمر باخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتاناً . الثالث : أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته إذ لو كان ملوثا بوجه ما ، لكان خائفا أن يذكر ما سبق . الرابع : أنه حين قال للشرابي (اذكرني عند ربك) فبقى بسبب هذه الكلمة في السجن بضع سنين ، وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقم لطلبه وزنا ، واشتغل باظهار برأته عن التهمة ، ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى في قلبه التفات الى رد الملك وقبوله ، وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافي لما صدر من التوسل اليه في قوله (اذكرني عند ربك) ليظهر أيضا هذا المعنى لذلك الشرابي ، فانه هو الذي كان واسطة في الحالتين معا .

أما قوله ﴿ فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي (فسله) بغير همز والباقون (فأسأله) بالهمز ، وقرأ عاصم برواية أبي بكر عنه (النسوة) بضم النون والباقون بكسر النون ، وهما لغتان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف : أولها : أن معنى الآية : فسأل الملك بأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن . ليعلم برأته عن تلك التهمة ، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لثلاثي لفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل وثانيها : أنه لم يذكر سيده مع أنها هي التي سعت في القائه في السجن الطويل ، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة . وثالثها : أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبته الى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك ، فاقصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل . ثم قال يوسف بعد ذلك (إن ربي بكيدهن عليم) وفي المراد من قوله (ان ربي) وجهان : الأول : أنه هو الله تعالى ، لأنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور . والثاني : أن المراد الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مرييا له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ، واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل وجوها : أحدها : أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه ،

فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه الى القبيح . وثانيتها : لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيده علي مرادها ، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز ، فأشار بقوله (إن ربى بكيدهن عليم) الى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة . وثالثها : أنه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذلك ، ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه لما التمس ذلك ، أمر الملك باحضارهن وقال لهن (ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) وفيه وجهان : الأول : أن قوله (إذ راودتن يوسف عن نفسه) وإن كانت صيغة الجمع . فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) والثاني : أن المراد منه خطاب الجماعة . ثم ههنا وجهان : الأول : أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها . والثاني : أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه ، وعند هذا السؤال (قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء) وهذا كالتأكيدي لما ذكرنا في أول الأمر في حقه وهو قولهن (ما هذا بشر إلا هذا إلا ملك كريم) واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة ، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهراً عن جميع العيوب ، وههنا دقيقة ، وهى أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال (مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتفظيماً لجانبها وإخفاء للأمر عليها ، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزال الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل ، ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجهها إلى القاضي وادعت عليه المهر ، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة الى ذلك ، فاني مقر بصدقها في دعواها ، فقالت المرأة لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك .

(المسألة الثانية) قال أهل اللغة (حصحص الحق) معناه : وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم : حصحص البعير في بروكه ، إذا تمكن واستقر في الأرض . قال الزجاج : اشتقاقه في اللغة من الحصاة ، أى بان حصة الحق من حصاة الباطل .

(المسألة الثالثة) اختلفوا في أن قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كلام من؟ وفيه أقوال :
 (القول الأول) وهو قول الأكثرين انه قول يوسف عليه السلام . قال الفراء : ولا يبعد
 وصل كلام انسان بكلام انسان آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله ، قوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا
 قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) وهذا كلام بلقيس . ثم إنه تعالى قال (وكذلك يفعلون)
 وأيضاً قوله تعالى (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) كلام الداعي .
 ثم قال (إن الله لا يخلف الميعاد) بقی على هذا القول سؤالات :

(السؤال الأول) قوله (ذلك) إشارة الى الغائب ، والمراد هنا : الإشارة إلى تلك
 الحادثة الحاضرة .

والجواب : أجبنا عنه في قوله (ذلك الكتاب) وقيل : ذلك إشارة الى ما فعله من رد الرسول كأنه
 يقول ذلك الذي فعلت من ردی الرسول إنما كان ، ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب .

(السؤال الثاني) متى قال يوسف عليه السلام هذا القول ؟

الجواب : روى عطاء عن ابن عباس رضی الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على
 الملك قال ذلك ليعلم وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيماً للملك عن الخطاب والأولى أنه عليه السلام
 إنما قال ذلك عند عود الرسول إليه لأن ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب .

(السؤال الثالث) هذه الحيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب)
 والجواب : قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة ، وقيل إنه إذا خان وزيره فقد
 خانه من بعض الوجوه ، وقيل إن الشرايبي لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال
 ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب . ثم ختم الكلام بقوله (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولعل
 المراد منه أني لو كنت خائناً لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة ، وحيث خلصني منها ظهر أني
 كنت مبرأ عما نسبوني إليه .

(والقول الثاني) ان قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كلام امرأة العزيز والمعنى : أني
 وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكنني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته ، أي لم أقل فيه وهو
 في السجن خلاف الحق . ثم إنها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول ، وقالت (وأن الله لا يهدي كيد
 الخائنين) يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر . لا جرم افترضت وأنه لما كان بريئاً عن الذنب
 لا جرم طهره الله تعالى عنه . قال صاحب هذا القول : والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام
 ما كان حاضراً في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها (الآن حصحص الحق أنا وأودته

عن نفسه وإنه لمن الصادقين) ففي تلك الحالة يقول يوسف (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) بل يحتاج فيه إلى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية ، ثم إن يوسف يقول ابتداء (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنيين ماجاء البتة في نثر ولا نظم فعلنا أن هذا من تمام كلام المرأة .

(المسألة الرابعة) هذه الآية دالة على ظهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة الأول : أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متمماً بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لا استحجال بحسب العرف ، والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة ، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيًا منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك ، وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته إلا أنه لاشك أنه كان عاقلًا ، والعاقل يتمتع أن يسعى في فضيحة نفسه وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في اظهار عيوبه . والثاني : أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن (حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) وفي المرة الثانية حيث قلن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء) والثالث : أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وفي المرة الثانية في هذه الآية .

واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه : أولها : قول المرأة (أنا راودته عن نفسه) وثانيها : قولها (وإنه لمن الصادقين) وهو إشارة إلى أنه صادق في قوله (هي راودتني عن نفسي) وثالثها : قول يوسف عليه السلام (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام . قال جبريل عليه السلام : ولا حين هممت ، وهذا من رواياتهم الحثيثة وما صححت هذه الرواية في كتاب معتمد ، بل هم يلحقونها بهذا الموضوع سعيًا منهم في تحريف ظاهر القرآن . ورابعها : قوله (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) يعني أن صاحب الخيانة لا بد وأن يفتضح ، فلو كنت خائناً لوجب أن افتضح وحيث لم افتضح وخلصني الله تعالى من هذه الورطة ، فكل ذلك يدل على أني ما كنت من الخائنين ، وههنا وجه آخر وهو أقوى من الكل ، وهو أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة ، وتلك المحنة صارت منتهية ، فاقداه على قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة اقدم على وقاحة عظيمة ، وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما ، والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء ، فكيف يليق اسناده إلى سيد العقلاء ، وقدوة الأصفياء ؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على

وَمَا أBRئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

برأته مما يقوله الجهال والحشوية .

قوله تعالى ﴿وما أبرئ نفسي﴾ إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴿

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لانا إن قلنا إن قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كلام يوسف كان هذا أيضاً من كلام يوسف ، وإن قلنا ان ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضاً كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا التقديرين ، أما اذا قلنا ان هذا كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا : إنه عليه السلام لما قال (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف (وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء) أي بالزنا (إلا ما رحم ربي) أي عصم ربي (إن ربي غفور) اللهم الذي هممت به (رحيم) أي لو فعلته لتاب علي .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف فانا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على برأته عن الذنب بقى أن يقال : فما جوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أنه عليه السلام لما قال (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كان ذلك جارياً بجرى مدح النفس وتزكيتها ، وقال تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) فاستدرك ذلك على نفسه بقوله (وما أبرئ نفسي) والمعنى : وما أركى نفسي ان النفس لأماراة بالسوء ميالة إلى القبائح رغبة في المعصية

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب أن الآية لاندل البتة على شيء مما ذكره وذلك لأن يوسف عليه السلام لما قال (إني لم أخنه بالغيب) بين أن ترك الحيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة . لأن النفس أماراة بالسوء والطبيعة تواقفة إلى اللذات فبين بهذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة ، بل لقيام الخوف من الله تعالى . أما إذا قلنا : إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان : الأول : وما أبرئ نفسي عن مرادته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام في قوله (هي راودتني عن نفسي) الثاني : أنها لما قالت (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قالت وما أبرئ نفسي عن الحيانة مطلقاً فاني قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت (ماجزاء من أراد بأهلك

سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) وأودعته السجن كأنها أرادت الاعتذار بما كان .

فان قيل : جعل هذا الكلام كلاماً ليوسف أولى أم جعله كلاماً للمرأة ؟

قلنا : جعله كلاماً ليوسف مشكل ، لأن قوله (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) كلام موصول ببعضه ببعض الى آخره ، فالقول بأن ببعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجازين بعيد ، وأيضا جعله كلاماً للمرأة مشكل أيضاً ، لأن قوله (وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء الا مارحم ربي) كلام لا يحسن صدوره الا من احتراز عن المعاصي ، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس ، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهودها في المعصية .

(المسألة الثانية) قالوا (ما) في قوله (الا مارحم ربي) بمعنى «من» والتقدير : الا من رحم ربي ، وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقال (ومنهم من يمشي على أربع) وقوله (الا مارحم ربي) استثناء متصل أو منقطع ، فيه وجهان : الأول : أنه متصل ، وفي تقريره وجهان : الأول : أن يكون قوله (الا مارحم ربي) أى الا البعض الذى رحمه ربي بالعصمة كالملائكة . الثانى : الا مارحم ربي أى الا وقت رحمة ربي يعنى أنها أماراة بالسوء فى كل وقت الا فى وقت العصمة .

(والقول الثانى) انه استثناء منقطع أى ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الاساءة كقوله (ولا هم ينصرون الا رحمة منا)

(المسألة الثالثة) اختلف الحكماء فى أن النفس الأماراة بالسوء ماهى والمحققون ؟ قالوا إن النفس الانسانية شىء واحد ، ولها صفات كثيرة . فاذا مالت الى العالم الالهى كانت نفساً مطمئنة ، وإذا مالت الى الشهوة والغضب كانت أماراة بالسوء ، وكونها أماراة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألقت المحسوسات والتذت بها وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجرىات وميلها اليه ، فذلك لا يحصل إلا نادراً فى حق الواحد ، فالواحد وذلك الواحد فأنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره فى الأوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها الى العالم الجسدانى وكان ميلها الى الصعود الى العالم الأعلى نادراً لاجرم حكم عليها بكونها أماراة بالسوء ، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية ، والكلام فى تحقيق الحق فى هذا الباب مذكور فى المعقولات .

(المسألة الرابعة) تمسك أصحابنا فى أن الطاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله بقوله

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ أَتَخْلُصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

(الإمام رحم ربي) قالوا ذلك الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته ؛ ولطف
الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف . فنقول : لا يمكن تفسير هذه الرحمة
باعطاء العقل والقدرة والالطاف كما قاله القاضى لأن كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب
تفسيرها بشيء آخر ، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضاً بالبرهان
القاطع وحيفئذ يحصل منه المطلوب .

قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين
قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال : هو العزيز ، ومنهم من قال : بل هو
الريان الذى هو الملك الأكبر ، وهذا هو الأظهر لوجهين : الأول : أن قول يوسف (اجعلنى على
خزائن الأرض) يدل عليه . الثانى : أن قوله (أستخلصه لنفسي) يدل على أنه قبل ذلك ما كان
خالصاً له ، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصاً للعزيز ، فدل هذا على أن هذا الملك
هو الملك الأكبر .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا أن جبريل السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو فى الحبس
وقال «قل اللهم اجعل لى من عندك فرجاً ومخرجاً وارزقنى من حيث لا أحتسب» فقبل الله دعاه
وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن ، وتقرير الكلام : أن الملك عظم اعتقاده فى يوسف
لوجوه : أحدها : أنه عظم اعتقاده فى علمه ، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو
على الجواب الموافق الذى يشهد العقل بصحته مال الطبع اليه ، وثانيها : أنه عظم اعتقاده فى صبره
وثباته ، وذلك لأنه بعد أن بقى فى السجن بضع سنين لما أذن له فى الخروج ما أسرع الى الخروج
بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم ، وثالثها : أنه عظم اعتقاده فى حسن
أدبه ، وذلك لأنه اقتصر على قوله (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وإن كان غرضه ذكر امرأة
العزيز فستر ذكرها ، وتعرض لأمسائر النسوة مع أنه وصل اليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء

وهذا من الأدب العجيب . ورابعها : براءة حاله عن جميع أنواع التهم فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبرائة عن الجرم . وخامسها : أن الشرايى وصف له جده فى الطاعات واجتهاده فى الاحسان إلى الذين كانوا فى السجن . وسادسها : انه بقى فى السجن بضع سنين ، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الانسان . فكيف مجموعها . فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئاً جمع أسبابه وقواها .

إذا عرفت هذا فنقول : لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال (ائتوني به أستخلصه لنفسى) روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام قم إلى الملك متنظفاً من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء . ولما دخل عليه قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به .

روى أن الملك قال ليوسف عليه السلام ما من شيء إلا وأحب أن تشركنى فيه إلا فى أهلى وفى أن لا تأكل معى فقال يوسف عليه السلام ، أما ترى أن آكل معك ، وأنا يوسف بن يعقوب ابن إسحق الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام . ثم قال (فلما كلمه) وفيه قولان : أحدهما : أن المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لأن فى مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبتدىء بالكلام وإنما الذى يبتدىء به هو الملك ، والثانى : أن المراد : فلما كلم يوسف الملك قيل : لما صار يوسف إلى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة ، فلما رآه الملك حدثاً شاباً قال للشرايى : هذا هو الذى علم تأويل رؤياى مع أن السحرة والكهنة ما علموها قال نعم ، فأقبل على يوسف وقال : إني أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاهاً ، فأجاب بذلك الجواب شفاهاً وشهد قلبه بصحته ، فعند ذلك قال له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) يقال : فلان مكين عند فلان بين المكانة أى المنزلة ، وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد . وقوله (أمين) أى قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت إليه ،

واعلم أن قوله (مكين أمين) كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب ، وذلك لأنه لا بد فى كونه مكيناً من القدرة والعلم . أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة . وأما العلم فلأن كونه متمكناً من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالماً بما ينبغى وبما لا ينبغى لا يمكنه تخصيص ما ينبغى

بالفعل ، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك ، ثبت أن كونه مكينا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم . أما كونه أميناً فهو عبارة عن كونه حكيماً لا يفعل الفعل لداعي الشهوة بل إنما يفعله لداعي الحكمة ، ثبت أن كونه مكينا أميناً يدل على كونه قادراً ، وعلى كونه عالماً بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعي الشهوة ، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة اثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا إنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنياً عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا : وإنما يكون غنياً عن القبيح إذا كان قادراً . وإذا كان منزهاً عن داعية السفه ثبت أن وصفه بكونه مكيناً أميناً نهاية ما يمكن ذكره في هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال في هذا المقام (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال المفسرون : لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بن يديه قال له الملك : فما ترى أيها الصديق قال : أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنون المجذبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلني على خزائن الأرض) أي على خزائن أرض مصر وأدخل الألف واللام على الأرض ، والمراد منه المعهود السابق . روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أنه قال «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة» وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع في ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى .

(المسألة الثانية) لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الأمانة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمره «لا تسأل الأمانة» وأيضاً فكيف طلب الأمانة من سلطان كافر ، وأيضاً لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة في طلب الأمانة في الحال ، وأيضاً لم طلب أمر الخزائن في أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع تهمة . وأيضاً كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله (إني حفيظ عليم) مع أنه تعالى يقول (فلا تزكوا أنفسكم) وأيضاً فما الفائدة في قوله (إني حفيظ عليم) وأيضاً لم ترك الاستثناء في هذا فإن الأحسن أن يقول : إني حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها . فنقول : الأصل في جواب هذه

المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجبا عليه ، فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان ، إنما قلنا : إن ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجوه : الأول : أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق ، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الامكان . والثاني : وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضييق الشديد الذى ربما أفضى الى هلاك الخلق العظيم ، فعمله تعالى أمره بأن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لا جله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق ، والثالث : أن السعى فى إيصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول .

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، فكان هذا الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الأسئلة بالكفاية ، وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى : كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة ، وأقول : لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعله بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلاجل هذا المعنى ترك الاستثناء ، وأما قوله لم مدح نفسه لجوابه من وجوه : الأول : لأنسلم أنه مدح نفسه لسكنه بين كونه مصوفا بهاتين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب ، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكنه ما كان عالما بأنه يقى بهذا الأمر ، ثم تقول هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير مايجل ، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) المراد منه تزكية النفس حال مايعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية (هو أعلم بمن اتقى) أما إذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم .

قوله ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ علم ؟

قلنا : إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال ، علم بالجهات التى تصلح لأن يصرف المال اليها ، ويقال : حفيظ بجميع مصالح الناس ، علم بجهات حاجاتهم أو يقال : حفيظ لوجوه أياديك وكرمك ، علم بوجود مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراد .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ
 بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأِخْرَةَ خَيْرٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾
 فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال : قد فعلت ، بل الله سبحانه قال (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) فههنا المفسرون قالوا في الكلام محذوف وتقديره : قال الملك قد فعلت ، إلا أن تمكين الله له في الأرض يدل على أن الملك قد أجابه الى ما سأله . وأقول : ما قالوه حسن ، إلا أن ههنا ما هو أحسن منه وهو أن إجابة الملك له سبب في عالم الظاهر . وأما المؤثر الحقيقي : فليس إلا أنه تعالى مكنته في الأرض ، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكنا من القبول ومن الرد ، فنسبة قدرته الى القبول وإلى الرد على التساوى ، وما دام يبقى هذا التساوى امتنع حصول القبول ، فلا بد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك ، وذلك الترجيح لا يكون إلا بمرجح يخلق الله تعالى ، وإذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة ، فالتمكن ليوسف في الأرض ليس إلا من خلق الله تعالى في قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب الأثر ، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهي ، لأن المؤثر الحقيقي ليس إلا هو .

﴿المسألة الثانية﴾ روى أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله في أصبه وقلده بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدب والياقوت ، فقال يوسف عليه السلام : أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، وجلس على السرير ودانت له القوم ، وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومه ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت ، فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرام وميشا . وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدرهم والدنانير في السنة الأولى . ثم بالحلى والجواهر في السنة الثانية

ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار . ثم برقابهم حتى استرقهم سنين . فقالوا والله ما رأينا ملكاً أعظم شأناً من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيداً له فلما سمع ذلك قال إني أشهد الله أنني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاً بهم ، وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير ثلاثاً يضيق الطعام على الباقيين هكذا رواه صاحب الكشاف والله أعلم .

(المسألة الثالثة) قوله (وكذلك) الكاف منصوبة بالتمسكين ، وذلك إشارة إلى ما تقدم يعنى به ومثل ذلك الانعام الذي أنعمنا عليه في تقريرنا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من غم الحبس ، وقوله (مكننا ليوسف في الأرض) أى أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله (يتبوا منها حيث يشاء) يتبوا في موضع نصب على الحال تقديره مكنناه متبواً وقرأ ابن كثير (نشأ) بالنون مضافاً إلى الله تعالى والباقيون بالياء مضافاً إلى يوسف .

واعلم أن قوله (يتبوا منها حيث يشاء) يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد . ولا ينازعه منازع بل صار مستقلاً بكل ما شاء وأراد . ثم بين تعالى ما يؤكد أن ذلك من قبله فقال (نصيب برحمتنا من نشأ)

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أن ذلك التمسكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله (كذلك مكننا ليوسف في الأرض) ثم أكد ذلك ثانياً بقوله (نصيب برحمتنا من نشأ) وفيه فائدتان :
(الفائدة الأولى) أن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى . قال القاضى : تلك المملكة لما لم تتم إلا بالأمور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى .

وجوابه : أنا ندعى أن نفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى ، لأن لفظ القرآن يدل على قولنا ، والبرهان القاطع الذى ذكرناه يقوى قولنا ، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه .

(الفائدة الثانية) أنه أتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الإلهية والقدرة النافذة . قال القاضى : هذه الآية تدل على أنه تعالى يجرى أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح .

قلنا : الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الإلهية والقدرة المحضة . فأما رعاية قيد الصلاح ، فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه .

ثم قال تعالى (ولا نضيع أجر المحسنين) وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى ، فكانت الإضاعة ممتنعة .

واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق القول

بأنه جلس بين شعبها الأربع لامتتع أن يقال : انه كان من المحسنين ، فهنا لم يتم إتمام تكذيب الله في حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لم يتم تكذيب الحشوي فيما رواه وهو عين الإيمان والحق .

ثم قال تعالى ﴿ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في تفسير هذه الآية قولان :

(القول الأول) المراد منه أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا . إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل . وجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً ، وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذي يكون نفعاً خالصاً دائماً مقروناً بالتعظيم ، وكل هذه القيود الأربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا .

(القول الثاني) أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخبرين أفضل من الآخر كما يقال : الجلاب خير من الماء وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيراً من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال : الثريد خير من الله . يعنى الثريد خير من الخيرات حصل باحسان من الله .

إذا ثبت هذا فقوله (ولاجر الآخرة خير) إن حملناه على الوجه الأول لم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضاً ، وأما إن حملناه على الوجه الثاني لم أن لا يقال ان منافع الدنيا أيضاً خيرات . بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير ، وأما ما سواه فعبث .

(المسألة الثانية) لاشك أن المراد من قوله (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهذا تنصيب من الله عز وجل . على أنه كان في الزمان السابق من المتقين ، وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال الله فيه (ولقد هممت به وهم بها) فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين ، وأيضاً قوله (ولا نضيع أجر المحسنين) شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان من المحسنين ، وقوله (إنه من عبادنا المخلصين) شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين ثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين ، والجاهل الحشوي يقول : إنه كان من الأخرسين المذنبين ، ولا شك أن من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخرسين .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ «٥٨» وَمَا
 جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْآتِرُونَ أَنِّي أُوْفِي السَّكِيلَ وَأَنَا
 خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «٥٩» فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ «٦٠» قَالُوا
 سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ «٦١»

(المسألة الثالثة) قال القاضى : قوله تعالى (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) يدل على بطلان قول المرجئة : الذين يزعمون أن الثواب يحصل فى الآخرة لمن لم يتق الكبائر .

قلنا : هذا ضعيف ، لانا ان حملنا لفظ خير على أفضل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلا ، وان حملناه على أصل معنى الخيرية ، فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على أن غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير .

قوله تعالى (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون وما جهزهم بجهازهم قال اتونى بأخ لكم من ايككم الاترون انى أوف السكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قالوا سوراود عنه أباه وإنا لفاعلون)

اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل أيضا الى البلدة التى كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبيه إن بمصر رجلا صالحا يبيع الناس فاذهبوا اليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا اليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف عليه السلام مع اخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه فى قوله ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه فى الجب (لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وأخبر تعالى أن يوسف عرفهم وهم ما عرفوه البتة ، أمانه عرفهم فلانه تعالى كان قد أخبره فى قوله (لتنبئتهم بأمرهم) بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه ، وأيضا الرؤيا التى رآها كانت دليلا على أنهم يصلون اليه ، فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصدا لذلك الأمر ، وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف أن هؤلاء الواصلين هل هم اخوته أم لا فلما وصل إخوة

يوسف إلى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصا ظهر له أنهم اخوته ، وأما أنهم ما عرفوه فلجوه : الأول : أنه عليه السلام أمر حجابيه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم إلا بالواسطة ومتى كان الأمر كذلك لاجرم أنهم لم يعرفوه لاسيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف ، وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذي عنده يحصل العرفان . والثاني : هو أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيرا ، ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية ، وتغير الزى والهيشة فانهم رأوه جالسا على سريره ، وعليه ثياب الحرير ، وفي عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج من ذهب ، والقوم أيضا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة . فيقال : إن من وقت ما ألقوه في الجب الى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة ، وكل واحد من هذه الأسباب يمنع من حصول المعرفة ، لاسيما عند اجتماعها ، والثالث : أن حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى ، فعله تعالى ما خلق ذلك المرفان والتذكير في قلوبهم تحقيقا لما أخبره عنه بقوله (لتبشئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام ،

ثم قال تعالى ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ قال الليث : جهزت القوم تجهيزا إذا تكلفت لهم جهازهم للسفر ، وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج اليه في وجهه . قال : وسمعت أهل البصرة يقولون : الجهاز بالكسر . قال الأزهري : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة ليست بجيدة ، قال المفسرون : حمل لكل رجل منهم بهيرا وأكرمهم أيضا بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا اليه في السفر ، فذلك قوله (جهزهم بجهازهم) ثم بين تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال (اتتوني بأخ لكم من أيكم)

واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيه ، وذكروا فيه وجوها :

(الوجه الأول) وهو أحسنها إن عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا يزيد عليه ولا أقص ، وإخوة يوسف الذين ذهبوا اليه كانوا عشرة ، فأعطاهم عشرة أحمال ، فقالوا : إن لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقي معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقي في خدمة أبيه ولا بد لها أيضا من شيء من الطعام فجهاز لها أيضا بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على أن حب أيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شيء عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة في العقل ، وفي الفضل والأدب لجيثوني به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب

(والوجه الثانى) أنهم لما دخلوا عليه ، عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد جئنا نمتار فقال : لعلكم جئتم عيوننا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبي اسمه يعقوب قال : كم أنتم قالوا : كنا اثني عشر فهلك منا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذى هلك ، ونحن عشرة وقد جئناك قال : فدعوا بعضهم عندى رهينة واتوني بأخ لكم من أيكم ليبلغ الى رسالة أيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده .

(والوجه الثالث) لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف : فلم تركتموه وحيدا فريدا ؟ قالوا : ما تركناه وحيدا ، بل بقى عنده واحد . فقال لهم : لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لأجل نقص فى جسده ؟ فقالوا : لا . بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد فعند هذا قال يوسف لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة ، ثم انه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدا عليكم فى الفضل ، وصفات الكمال مع انى أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتقت نفسى إلى رؤية ذلك الأخ فاتونى به ، والسبب الثانى : ذكره المفسرون ، والأول والثالث محتمل والله أعلم .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه قال (ألا ترون أنى أوف الكيل) أى آتمه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم ، وأنا خير المنزلين ، أى خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم . وأقول : هذا الكلام يضعف الوجه الثانى وهو الذى نقلناه عن المفسرين ، لأن مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ، ولو شافهمم بذلك الكلام فلا يلبق به أن يقوم لهم (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون ، مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة ، لأن البهتان لا يلبق بحال الصديق .

ثم قال (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون)

واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب . أما الترغيب : فهو قوله (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) وأما الترهيب : فهو قوله (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) وذلك لأنهم كانوا فى نهاية الحاجة الى تحصيل الطعام ، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فاذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترغيب والتخويف ، ثم إنهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا (سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) أى سنجتهد ونحتال على أن نزرعه من يده ، وإنا لفاعلون هذه المرادة ، والغرض من التكرير

وَقَالَ لَفَتْيَانَهُ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى
 أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا
 آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾

التأكيـد ، ويحتمل أن يكون (وإننا لفاعلون) أن نجيتك به ، ويحتمل (وإننا لفاعلون) كل ما في وسعنا
 من هذا الباب .

قوله تعالى ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم
 لعلهم يرجعون فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فإرسال معنا أخانا نكتل
 وإننا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنكم على أخيه من قبل فإله خير حافظا وهو
 أرحم الراحمين﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم لفتيانه بالالف والنون والباقون
 (لفتيته) بالتاء من غير ألف ، وهما الغتان كالصبيان والصدية ، والاخوان والاخوة قال أبو علي الفارسي
 الفتية جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير ، فوجه البناء الذي للعدد القليل أن الذين يحيطون
 بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لأن هذا من باب الاسرار فوجب صونه إلا
 عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) والرحال تغيد العدد
 الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين .

﴿المسألة الثانية﴾ اتفق الأكترون على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم
 ومنهم من قال إنهم كانوا عارفين به ، وهو ضعيف لأن قوله (لعلهم يعرفونها) يبطل ذلك ثم اختلفوا
 في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه : الأول : أنهم متى فتحوا
 المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه ، علموا أن ذلك كان كرمأ من يوسف وسخا محضا فيبعثهم ذلك على العود
 إليه والحرص على معاملته . الثاني : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان الفحط . الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لئوم . الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالمهم . وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالمهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه ، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكة . السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة . السابع : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخر لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن . الثامن : أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الأكرام فلا يتقل على أبيه إرسال أخيه . التاسع : أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق ، فوضع تلك الدراهم في رحالمهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم . العاشر : أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم .

ثم انه تعالى حكى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم قالوا ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ وفيه قولان : الأول : أنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقي عنده منعوا منه ، فقولهم (منع منا الكيل) إشارة إليه . والثاني : أنه منع الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) والدليل على أن المراد ذلك قولهم (فأرسل معنا أخانا نكتل) قرأ حمزة والكسائي : (يكتل) بالياء ، والباقون بالنون ، والقراءة الأولى أقوى القول الأول ، والقراءة الثانية أقوى القول الثاني . ثم قالوا (وإننا له لحافظون) ضمنوا كونهم حافظين له ، فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) والمعنى أنكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم له حفظه حيث قلتم (وإننا له لحافظون) ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أماناً إلا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل ههنا ،

ثم قال ﴿ فآله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ﴾ قرأ حمزة . والكسائي (حافظاً) بالالف على التمييز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظا كقولهم : هو خيرهم رجلا والله دره فارسا ، وقيل : على الحال والباقون (حفظا) بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظا يعني حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم ، وقرأ الأعمش (فآله خير حافظ) وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه خير الحفاظين وهو أرحم الراحمين ، وقيل : معناه وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان قالان أتوكل على الله في حفظ بنيامين .

فإن قيل : لم يعنه معهم وقد شاهد ماشاهد .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ
يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

قلنا : لوجوه : أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح ، وثانيها : أنه كان يشاهد أنه ليس
بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام ، وثالثها : أن ضرورة
القحط أحوجته إلى ذلك ، ورابعها : لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه .
فان قيل : هل يدل قوله (فالله خير حافظا) على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت .
قلنا : إلا كثرون قالوا : يدل عليه . وقال آخرون : لا يدل عليه ، وفيه وجهان : الأول : التقدير
أنه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لافي حفظهم . الثاني : أنه لما ذكر يوسف قال :
(فالله خير حافظا) أي ليوسف لأنه كان يعلم أنه حي .

قوله تعالى ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا
ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾
اعلم أن المتاع ما يصلح لأن يستمتع به وهو عام في كل شيء ، ويجوز أن يراد به ههنا الطعام الذي
حملوه ، ويجوز أن يراد به أوعيه الطعام .
ثم قال ﴿وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ واختلف القراء في (ردت) فالأكثر بضم الراء ،
وقرأ علقمة بكسر الراء . قال صاحب الكشاف : كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل
ويبع . وحكى قطرب أنهم قالوا في قولنا : ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد .
وأما قوله (مانبغى) ففي كلمة (ما) قولان :

﴿القول الأول﴾ أنها للنفى ، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه : الأول : أنهم كانوا قد وصفوا
يوسف بالكرم واللطف وقالوا : إنا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان
رجلا من آل يعقوب لما فعل ذلك ، فقولهم (مانبغى) أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذبا ولا
ذكر شيء لم يكن . الثاني : أنه بلغ في الإكرام إلى غاية ما وراءها شيء آخر ، فانه بعد أن بالغ
في إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت إلينا . الثالث : المعنى أنه رد بضاعتنا إلينا ، فنحن لانبغى منك عند
رجوعنا إليه بضاعة أخرى ، فان هذه التي معنا كافية لنا .

قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

(والقول الثاني) أن كلمة «ما» ههنا للاستفهام ، والمعنى : لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا : ما نبغى بعد هذا ، أى أعطانا الطعام ، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه . فأى شىء نبغى وراء ذلك ؟

واعلم أنا إذا حملنا «ما» على الاستفهام صار التقدير أى شىء نبغى فوق هذا الاكرام إن الرجل رد دراهمنا إلينا فإذا ذهبنا إليه نغير أهلنا ونحفظ أغانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخيها . قال الأصمعى : يقال ماره يميده ميلا إذا أتاه بميرة أى بطعام ومنه يقال : ما عنده خير ولا مير وقوله (ونزداد كيل بعير) معناه : أن يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فإذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل ، وأما إذا حملنا كلمة «ما» على النفي كان المعنى لا نبغى شيئا آخر هذه بضاعتنا ردت إلينا فهى كافية لثمن الطعام فى الذهاب الثانى ، ثم نفع كذا وكذا .

وأما قوله (ذلك كيل يسير) ففيه وجوه : الأول : قال مقاتل : ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج . والثانى : ذلك كيل يدبير ، أى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . والثالث : أن يكون المراد ذلك الذى يدفع إلينا دون أخيها شىء يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى تبديل تلك القلة بالكثرة .

قوله تعالى (قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) .

اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة ، ومعناه : العهد الذى يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول : لن أرسله معكم حتى تعطوننى عهدا موثقا به وقوله (من الله) أى عهدا موثقا به بسبب تأكده بأشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه ، وقوله (لتأتنني به) دخلت اللام ههنا لأجل أنا بينا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره : حتى تحلفوا بالله لتأتنني به . وقوله (إلا أن يحاط بكم) فيه بحثان :

(البحث الأول) قال صاحب الكشاف : هذا الاستثناء متصل . فقوله (إلا أن يحاط بكم) مفعول له ، والكلام المثبت الذى هو قوله (لتأتنني به) فى تأويل المنفى ، فكان المعنى : لا تتمنون

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي
عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

من الاياتان به لعله من العلل لإلحالة واحدة .

(البحث الثاني) قال الواحدي للمفسرين فيه قولان :

(القول الأول) ان قوله (إلا أن يحاط بكم) معناه الهلاك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندى ، والعرب تقول أحيط بفلان إذا قرب هلاكه قال تعالى (وأحيط بشمره) أى أصابه ما أهلكه . وقال تعالى (وظنوا أنهم أحيط بهم) وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه ، فقيل : لكل من هلك قد أحيط به .

(والقول الثاني) ما ذكره قتادة (إلا أن يحاط بكم) إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين ، فلا تقدر على الرجوع .

ثم قال تعالى (فلبس آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) يريد شهيد ، لأن الشهيد وكيل بمعنى أنه موكل اليه هذا العهد فان وفيم به جازاكم بأحسن الجزاء ، وإن غدرتم فيه كافاكم بأعظم العقوبات .

قوله تعالى ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴿

اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر . وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وفيه قولان : الأول : وهو قول جمهور المفسرين أنه خاف من العين عليهم ولنا ههنا مقامان :

(المقام الأول) اثبات ان العين حق والذي يدل عليه وجوه : الأول : اطلاق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك . والثاني : ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول هكذا كان يعوذ إبراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله عليهم . والثالث : ما روى عبادة ابن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيت شديدا الوجع ثم

عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال «إن جبريل عليه السلام أتاني فرقاني فقال : بسم الله أريك من كل شيء يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك» قال فأقمت والرابع : روى أن بنى جعفر ابن أبي طالب كانوا غلبانا أيضا . فقالت أسماء : يا رسول الله إن العين اليهم سريرة أفأسترق لهم من العين فقال لها نعم . والخامس : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكى فقالوا : يا رسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين . والسادس : قوله عليه السلام «العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر» والسابع : قالت عائشة رضي الله عنها : كان يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذي أصيب بالعين .

(المقام الثاني) في الكشف عن ماهيته فنقول : إن أبا علي الجبائي أنكر هذا المعنى انكارا بليغا ولم يذكر في انكاره شبهة فضلا عن حجة ، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهاً : الأول : قال الحافظ : إنه يمتد من العين أجزاء فتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسمى فيه كتأثير المسح والسم والنار ، وإن كان مخالفاً في جهة التأثير لهذه الأشياء قال القاضي : وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال ، لوجب أن يؤثر في الشخص الذي لا يستحسن كتأثيره في المستحسن واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف ، وذلك لأنه إذا استحسن شيئاً فقد يجب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه ، وقد يكره بقاءه أيضاً كما إذا أحس الحاسد بشيء حصل لعدوه ، فإن كان الأول فإنه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح في داخل القلب فينتد سخن القلب والروح جداً ، ويحصل في الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة وإن كان الثاني : فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحرز عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه . والحزن أيضاً يوجب انحصار الروح في داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة ، ثبت أن عند الاستحسان القوى تسخن الروح جداً فيسخن شعاع العين بخلاف ما إذا لم يستحسن فإنه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ، ولهذا السبب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال .

(الوجه الثاني) قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي إنه لا يمتنع أن تكون العين حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به . فهذا المعنى غير ممتنع ، ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه تقيته ذلك ، فعنده تعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لاجرم قيل العين حق .

(الوجه الثالث) وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبني على مقدمة ، وهي أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أثنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعاً على الأرض ، قدر الإنسان على المشي عليه . ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه ، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلينا أن التأثيرات النفسانية موجودة ، وأيضاً أن الإنسان إذا تصور كونه فلان مؤذياً له حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً فبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان . فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان وأيضاً جواهر النفوس المختلفة بالمساهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه ، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك .

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية باصابة العين كلام حق لا يمكن رده .

(القول الثاني) وهو قول أبي علي الجبائي : أن أبناء يعقوب اشتروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وإحسانهم . فقال (لا تدخلوا) تلك المدينة (من باب واحد) على ما أتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال : لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه ، ونقل عن الحسن أنه قال : خاف عليهم العين ، فقال : (لا تدخلوا من باب واحد) ثم رجع إلى علمه وقال (وما أغنى عنكم من الله من شيء) وعرف أن العين ليست بشيء وكان قتادة يفسر الآية باصابة العين ويقول : ليس في قوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) إبطال له لأن العين وإن صح فالله قادر على دفع أثره .

(القول الثالث) أنه عليه السلام كان عالماً بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له في إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال (لا تدخلوا من باب واحد) وادخلوا من أبواب متفرقة) وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف في وقت الخلوة ، وهذا قول إبراهيم النخعي ، فأما

قوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) فاعلم أن الانسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويحزم بأنه لا يصل اليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الخذر لا ينجي من القدر، فإن الانسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة، والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان. ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازما بأنه لا يصل اليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) فهو إشارة الى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) إشارة الى عدم الالتفات الى الأسباب والى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى وقول القائل: كيف السبيل الى الجمع بين هذين القولين، فهذا السؤال غير مختص به، وذلك لأنه لا نزاع في أنه لا بد من اقامة الطاعات، والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أننا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه، وأن الشقي من شقي في بطن أمه. فكذا ههنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان الا بتقدير الله تعالى، فكذا ههنا، فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السعى البليغ والجد الجهد فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فلا بد وأن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى، فقال (إن الحكم إلا لله)

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر، وذلك لأن الحكم عبارة عن الازام والمنع من النقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم، لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم إنما سمي حكما لأنه يقتضى ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممنوع الحصول، فبين تعالى أن الحكم بهذا التفسير ليس إلا لله سبحانه وتعالى، وذلك يدل على أن جميع الممكنات مستندة إلى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه، إما بغير واسطة وإما بواسطة ثم قال (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) ومعناه أنه لما ثبت أن الكل من الله ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا في رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم، وثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله، ويوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا إلى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٦٨»

قوله تعالى ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال المفسرون : لما قال يعقوب : وما أغنى عنكم من الله من شيء ، صدقه الله في ذلك فقال : وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء وفيه بحثان :
﴿البحث الأول﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرا قدره الله . وقال الزجاج : إن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون . وقال ابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم ، وهذه الكلمات متقاربة ، وحاصلها أن الحذر لا يدفع القدر .
﴿البحث الثاني﴾ قوله (من شيء) يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية .
﴿أما الأول﴾ فهو كقوله ما رأيت من أحد ، والتقدير : ما رأيت أحدا ، فكذا ههنا تقدير الآية : أن تفرقهم ما كان يغني من قضاء الله شيئا ، أي ذلك التفرق ما كان يخرج شيئا من تحت قضاء الله تعالى .

﴿وأما الثاني﴾ فكقولك : ما جاءني من أحد ، وتقديره ما جاءني أحد . فكذا ههنا التقدير : ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه .

أما قوله ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ فقال الزجاج : إنه استثناء منقطع ، والمعنى : لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها ، يعني أن الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة في نفس يعقوب قضاها ، ثم ذكروا في تفسير تلك الحاجة وجوها : أحدها : خوفه عليهم من إصابة العين ، وثانيها : خوفه عليهم من حسد أهل مصر ، وثالثها : خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر ، ورابعها : خوفه عليهم من أن لا يرجعوا اليه ، وكل هذه الوجوه متقاربة .

وأما قوله ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ فقال الواحدي : يحتمل أن تكون (ما) مصدرية والهاء عائدة إلى يعقوب ، والتقدير : وإنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه ، ويمكن أن تكون (ما) بمعنى الذي والهاء

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا
تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ
زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

عائدة إليها ، والتأويل وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه ، يعنى انما علمناه شيئا حصل له العلم بذلك الشيء .
وفي الآية قولان آخران : الأول : أن المراد بالعلم الحفظ ، أى أنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة
له والثانى : لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو اشارة الى كونه عاملا بما علمه ، ثم قال
(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفيه وجهان : الأول : ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم
يعقوب . والثانى : لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، والمراد بأكثر الناس . المشركون ، فانهم
لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أوليائه إلى العلوم التى تفعمهم فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا
يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رجلي أخيه ثم أذن مؤذنا أيتها العير إنكم لسارقون
قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم
اعلم انهم لما اتوه بأخيه بنيامين اكرمهم واطافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى
بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا
فاجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتا وقال : هذا لائى له فأتزكوه معى فأواه
إليه ، ولما رأى يوسف نأسفه على أخ له هلك قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك
قال : من يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه
وعانقه وقال : انى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (آوى إليه أخاه) أى أنزله فى الموضع الذى كان يأوى إليه .
وقوله (إنى أنا أخرك) فيه قولان : قال وهب : لم يرد انه أخوه من النسب ، ولكن أراد به إنى

أقوم لك مقام أخيك في الايناس لثلا تستوحش بالتفرد . والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه اراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الانس ، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها الى المجاز من غير ضرورة .

وأما قوله ﴿فلا تبتئس﴾ فقال أهل اللغة : تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس . وقوله ﴿بما كانوا يعملون﴾ فيه وجوه : الأول : المراد بما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أينا عنا ، الثاني : أن يوسف عليه السلام ما بقى في قلبه شيء من العداوة وصار صافيا مع إخوته ، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيا معهم أيضا ، فقال ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أى لا تلتفت الى ما صنعوه فيما تقدم ، ولا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى أقدموا عليها . الثالث : أنهم إنما فعلوا بيوسف ما فعلوه ، لأنهم حسدوه على إقبال الأب عليه وتخصيصه بمزيد الاكرام . تخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب أن الملك خصه بمزيد الاكرام ، فأمنه منه وقال : لا تلتفت الى ذلك فان الله قد جمع بينى وبينك . الرابع . روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب أن جدتهما أبا أمهما كان يعبد الأصنام ، وأن أم يوسف امرأت يوسف فسرق جونة كانت لأبيها فيها أصنام رجا . أن يترك عبادتها اذا فقدها . فقال له ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أى من التعبير لنا بما كان عليه جدنا . والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه﴾ وقد مضى الكلام في الجهاز والرحل ، أما السقاية فقال صاحب الكشاف : مشربة يسقى بها وهو الصواع قيل : كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به ، وهو بعيد لأن الاناء الذى يشرب الملك الكبير منه لا يصلح أن يجعل صاعا ، وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضا وهذا أقرب ، ثم قال وقيل كانت من فضة موهة بالذهب ، وقيل : كانت من ذهب ، وقيل : كانت مرصمة بالجواهر وهذا أيضا بعيد لأن الآنية التى يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك ، والأولى أن يقال : كان ذلك الاناء شيئا له قيمة ، أما الى هذا الحد الذى ذكره فلا .

ثم قال تعالى ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ يقال : أذنه أى أعلمه وفى الفرق بين اذن وبين أذن وجهان : قال ابن الانبارى : أذن معناه أعلم اعلاما بعد إعلام لأن فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز أن يكون اعلاما واحدا من قبيل أن العرب تجعل فعل بمعنى أفعل فى كثير من المواضع ، وقال سيويه : أذنت وأذنت معناه أعلمت لافرق بينهما ، والتأذين معناه : النداء والتصويت بالاعلام .

وأما قوله تعالى ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قال أبو الهيثم: كل ماسير عليه من الإبل والحير والبالغ فهو عير وقول من قال العير الإبل خاصة باطل، وقيل: العير الإبل التي عليها الاحمال لأنها تعبر أي تذهب وتجيء، وقيل: هي قافلة الحير، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وجمعها فعل كسقف وسقف.

إذا عرفت هذا فنقول (أيتها العير) المراد أصحاب العير كقوله يا خيل الله اركبي وقرأ ابن مسعود (وجعل السقاية) على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون).

فان قيل: هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره؟ فان كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً وبهتاناً، وإن كان الثاني وهو أنه ما كان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر برائتهم عن تلك التهمة.

قلنا: العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوهاً: الأول: أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له: إني أريد أن أحبسك ههنا، ولا سبيل إليه إلا بهذه الخيلة فان رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنباً. والثاني: أن المراد إنكم لسارقون يوسف من أيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام. والمعاريض لا تكون إلا كذلك. والثالث: أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذباً. الرابع: ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لم يطلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها ثم إن إخوة يوسف (قالوا أو قبلوا عليهم ماذا تفقدون) وقرأ أبو عبد الرحمن السلي (تفقدون) من أفقده إذا وجدته فقيداً قالوا تفقد صواع المالك. قال صاحب الكشاف: قرى صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة. قال بعضهم جمع صواع صيعان، كغراب وغربان، وجمع صاع أصواع، كباب وأبواب. وقال آخرون: لا فرق بين الصاع والصواع، والدليل عليه قراءة أبي هريرة (قالوا تفقد صاع الملك) وقال بعضهم: الصواع اسم، والسقاية وصف، كقولهم: كوز وسقاء، فالكوز اسم والسقاء وصف.

ثم قال ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي من الطعام وأنا به زعيم. قال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي أذن، وتفسير زعيم كفيل. قال الكلبي: الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن. روى أبو عبيدة

قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا
فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَمَوْجَزَاؤُهُ
كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

عن الكسائي: زعمت به تزعم زعما وزعامه. أي كفلت به، وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «الزعيم غارم» فان قيل: هذه كفاله بشيء مجهول؟

قلنا: حل بعير من الطعام كان معلوما عندهم، فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئا على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم.

قوله تعالى ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك يجزي الظالمين﴾ قال البصريون: الواو في (واته) بدل من التاء والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الاسماء وجمعت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل. قال المفسرون: حلفوا على أمرين: أحدهما: على أنهم ما جاؤا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، حتى روى أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث في زرع، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات، ومن كانت هذه صفته فالفساد في الأرض لا يليق به. والثاني: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم فيه شاهداً قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها. والسارق لا يفعل ذلك البتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ فأجابوا و﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ قال ابن عباس كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقة، وكان استعباد السارق في شرعهم يجزى بجزى وجوب القطع في شرعنا، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق في رحله، أي ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم، والمعنى: أن استعباده هو جزاء ذلك الجرم، قال الزجاج: وفيه وجهان: أحدهما: أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن وجد في رحله خبره. والمعنى: جزاء السرقة هو الإنسان الذي

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا
لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ
نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

وجد في رحله السرقة ، ويكون قوله (فهو جزاؤه) زيادة في البيان. كما تقول جزاء السارق القطع
فهو جزاؤه. الثاني : أي يقال (جزاؤه) مبتدأ وقوله (من) وجد في رحله فهو جزاؤه) جملة وهي
في موضع خبر المبتدأ. والتقدير : كأنه قيل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، إلا أنه أقام المضمرة
للتأكيد والمبالغة في البيان وأنشد النحويون :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . نغص الموت الغنى والفقير

وأما قوله (كذلك نجزي الظالمين) أي مثل هذا الجزاء . جزاء الظالمين . يريد إذا سرق استرق
ثم قيل : هذا من بقية كلام أخوة يوسف . وقيل : إنهم لما قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو
جزاؤه ، فقال أصحاب يوسف (كذلك نجزي الظالمين)

قوله تعالى (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا
ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل
ذو علم عليم)

اعلم أن أخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله لجزاؤه أن يسترق قال لهم
المؤذن : انه لا بد من تفتيش أمتعتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) لازالة
التهمة . والأوعية جمع الوعاء وهو كل ما إذا وضع فيه شيء أحاط به استخرجها من وعاء أخيه ، وقرأ
الحسن (وعاء أخيه) بضم الواو وهي لغة ، وقرأ سعيد بن جبير (عاء أخيه) فقلب الواو همزة .
فان قيل : لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنه ؟

قلنا : قالوا رجع ضمير المؤنث إلى السقاية وضمير المذكر إلى الصواع أو يقال : الصواع يؤنث
ويذكر ، فكان كل واحد منهما جائزا أو يقال : لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا فقد
وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعا ، عن قتادة أنه قال : كان لا ينظر في وعاء
إلا استغفر الله تائباً مما قد فهم به ، حتى انه لما لم يبق إلا أخوه قال ما أرى هنذا قد أخذ شيئاً ،

فقالوا: لانذهب حتى تتفحص عن حاله أيضا، فلما نظروا في متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق، فأخذوا برقبته وجروا به الى دار يوسف.

ثم قال تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ وفيه بحثان: الأول: المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف، وذلك إشارة الى الحكم باسترقاق السارق، أى مثل هذا الحكم الذى ذكره إخوة يوسف حكما ليوسف. الثانى: لفظ الكيد مشعرا بالحيلة والخديعة، وذلك فى حق الله تعالى محال. إلا أنا ذكرنا قانونا معتبرا فى هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لاعلى بدايات الأغراض، وقررنا هذا الأصل فى تفسير قوله تعالى (إن الله لا يستحي) فالكيد السعى فى الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء الانسان من حيث لا يشعر فى أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه، فالكيد فى حق الله تعالى محمول على هذا المعنى. ثم اختلفوا فى المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم: المراد أن إخوة يوسف سعوا فى إبطال أمر يوسف، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره. وقال آخرون: المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى فى قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق، لاجرم لما ظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق، وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه.

ثم قال تعالى ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ والمعنى: أنه كان حكم الملك فى السارق أن يضرب ويفرم ضعفى ماسرق، فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه، إلا أنه تعالى كاد له ماجرى على لسان اخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا أن هذا الكلام توسل به الى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله (إلا أن يشاء الله) ثم قال (ترفع درجات من نشاء) وفيه مسالتان:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي (درجات) بالتثنية غير مضاف، والباقون بالاضافة.

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من قوله (ترفع درجات من نشاء) هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد، ويخصه بأنواع العلوم، وأقسام الفضائل، والمراد ههنا هو أنه تعالى رفع درجات يوسف على اخوته فى كل شىء.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لاجل ذلك فقال (ترفع درجات من نشاء) وأيضا وصف ابراهيم عليه السلام بقوله (ترفع درجات من نشاء) عند إرادته ذكر دلائل التوحيد والبراهة عن

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدَاهَا
لَهُمْ قَالَتْ لَكُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ «٧٧»

الهيئة الشمس والقمر والكواكب ووصف، ههنا يوسف أيضا بقوله (نرفع درجات من نشاء) لما هداه إلى هذه الحيلة وكما بين المرتبتين من التفاوت .

ثم قال تعالى (وفوق كل ذي علم عليم) والمعنى أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء ، إلا أن يوسف كان زائدا عليهم في العلم .

واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعلم . فقالوا : لو كان عالما بالعلم لكان ذاعلم . ولو كان كذلك ، لحصل فوقة عليم تمسكا بعموم هذه الآية وهذا باطل .

واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على إثبات العلم لله تعالى وهي قوله (إن الله عنده علم الساعة . وأنزله بعلمه . ولا يحيطون بشيء من علمه . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) وإذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التي تمسك الخصم بها على واقعة يوسف وإخوته خاصة غاية ما في الباب أنه يوجب تخصيص العموم ، إلا أنه لا بد من المصير إليه لأن العالم مشتق من العلم ، والمشتق مركب والمشتق منه مفرد ، وحصول المركب بدون حصول المفرد محال في بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا ،

قوله تعالى (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون)

اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخى يوسف نكس إخوته رؤسهم وقالوا : هذه الواقعة عجيبة أن راحيل ولدت ولدين لصين ، ثم قالوا : يا بنى راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم ، فقال بنيامين ما أكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخى وضيعتموه في المفازة ، ثم تقولون لى هذا الكلام ، قالوا له : فكيف خرج الصواع من رحلك ، فقال : وضعه في رحلى من وضع البضاعة في رحالكم .

واعلم أن ظاهر الآية يقتضى أنهم قالوا للملك : إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذى هلك كان أيضا سارقا ، وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، وهو وأخوه محتصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ، واختلفوا في السرقة التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال : الأول : قال سعيد بن جبير : كان جده أبو أمه كافرا يعبد الأوثان فأمرته

أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك ، فهذا هو السرقة ،
والثاني : أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه الى الفقراء . وقيل سرق عناقاً من أبيه
ودفعه الى المسكين وقيل دجاجة . والثالث : أن عمته كانت تحبه حباً شديداً فارادت أن تمسكه عند
نفسها ، وكان قد بقي عندها من منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشذتها على وسط يوسف
ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسرق ، فتوسلت بهذه الحيلة إلى امساكه عند
نفسها . والرابع : أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك
الوقائع ، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة ، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يظهر
عن الغل البتة .

ثم قال تعالى ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله
(فأسرها يوسف) إلى أي شيء يعود على قولين قال الزجاج : فأسرها اضماراً على شريطة التفسير ،
تفسيره أتم شر مكانا وإنما أنت لأن قوله (أتم شر مكانا) جملة أو كلمة لأنهم يسمون الطائفة من
الكلام كلمة كأنه قال : فاسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أتم شر مكانا) وفي قراءة ابن مسعود
(فاسر) بالتذكير يريد القول أو الكلام وطعن أبو علي الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على
الزجاج من وجهين :

(الوجه الأول) قال الاضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين : أحدهما : أن يفسر
بمفرد كقولنا : نعم رجلا زيد ففي نعم ضمير فاعلها ، ورجلا تفسير لذلك الفاعل المضمر والآخر أن
يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله (فاذاهي شاخصة أبصار الذين كفروا . وقل هو الله أحد)
والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والأمر الله أحد . ثم إن العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر
تدخل عليه أيضاً نحو ان كقوله (إنه من يأت ربه مجرماً . فلنحيا لا نعلمي الأبصار)

إذا عرفت هذا فنقول : نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي
حصل منها الاضمار ، ولا يكون خارجاً عن تلك الجملة ولا مبيناً لها . وههنا التفسير منفصل عن
الجملة التي حصل منها الاضمار فوجب أن لا يحسن . والثاني : أنه تعالى قال (أتم شر مكانا) وذلك
يدل على أنه ذكر هذا الكلام ، ولو قلنا : إنه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله انه قال ذلك
كذباً . واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه :

(أما الأول) فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الأولين قبح قسم ثالث .

(وأما الثاني) فلأننا نحمل ذلك على أنه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير
يسقط هذا السؤال .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

(والوجه الثاني) وهو أن الضمير في قوله (فأسرها) عائد إلى الإجابة كأنهم قالوا (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) فأسر يوسف إجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يدها لهم في تلك الحالة إلى وقت ثان ويجوز أيضاً أن يكون إضماراً للبقالة . والمعنى : أسر يوسف مقاتلتهم ، والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق . وبالعلم المعلوم . يعنى أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة ، ولم يبين لهم انها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والظعن . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همومها ، عوقب بالحبس ويقوله (اذكرنى عند ربك) عوقب بالحبس الطويل ويقوله (إنكم لسارقون) عوقب بقولهم (فقد سرق أخ له من قبل) ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال (أتم شرمكانا) أى أتم شرمزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أيبكم فأخذتم أحاكم وطرحتموه فى الجب ، ثم قلمت لايكم إن الذئب أكله وأتم كاذبون ، ثم بعتموه بعشرين درهما ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد مازال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة .

ثم قال تعالى (والله أعلم بما تصفون) يريد أن سرقة يوسف كانت رضا لله ، وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة فى سرقة لا يوجب شيء منها عود الذم واللوم اليه ، والمعنى : والله أعلم بأن هذا الذى وصفتموه به هل يوجب عود مذمة اليه أم لا .

قوله تعالى (قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون)

اعلم أنه تعالى بين أنهم بعد الذى ذكروه من قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أجوا موافقته والعدول الى طريقة الشفاعة فانهم وان كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى فى السارق أن يستعبد ، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضاً جائزاً ، فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً أى فى السن ، ويجوز أن يكون فى القدر والدين ، وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابناً لرجل كبير القدر

فَلَمَّا اسْتِيَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ
عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنْ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى
يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

يوجب العفو والصفح . ثم قالوا (فخذ أحدنا مكانه) يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستبعاد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء اليك . ثم قالوا (إنا نراك من المحسنين) وفيه وجوه : أحدها : إنا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك . وثانيها : إنا نراك من المحسنين الينا حيث أكرمتنا وأعطينا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ورددت إلينا ثمن الطعام . وثالثها نقل انه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئاً يشترون به الطعام ، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سبباً لصيرورة أكثر أهل مصر عبيداً له ثم إنه اعتق الكل ، فلعلهم قالوا : (إنا نراك من المحسنين) إلى عامة الناس بالاعتناق فكن محسناً أيضاً إلى هذا الانسان باعتاقه من هذه المحنة ، فقال يوسف (معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، أى أعوذ بالله أن آخذ بريئاً بمذنب قال الزجاج : موضع «أن» نصب والمعنى : أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة «من» انتصب الفعل عليه وقوله (إنا إذا لظالمون) أى لقد تعديت وظلمت إن أذيت إنساناً بجرم صدر عن غيره .

فان قيل : هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب ، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الاقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لاسيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشدغمه ، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير إلى هذا الحد .

والجواب : لعله تعالى أمره بذلك تشديداً للحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البذل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقى لطنى وكفر .

قوله تعالى ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موقفاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿٨٠﴾

في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنهم لما قالوا (فخذوا حذرنا مكانه) وهو نهاية ما يمكنهم بذلك فقال يوسف في جوابه (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده، فعند هذا قال تعالى (فلما استأسوا منه خلصوا نجيا) وهو مبالغة في بأسهم من رده (وخلصوا نجيا) أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون ويتحولون الرأي فيما وقعوا فيه، لانهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواقف المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين في حق يوسف فلم يعدوه إلى أبيهم لحصلت محن كثيرة: أحدها: أنه لو لم يعودوا إلى أبيهم وكان شيخا كبيرا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة. وثانيها: أن أهل بيتهم كانوا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة. وثالثها: أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا إلى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فإن ظاهر الأمر يوم أنهم خانوه في هذا الابن كما أنهم خانوه في الابن الأول، ولكان يوم أيضا أنهم ما أقاموا تلك المواقف المؤكدة وزنا ولا شك أن هذا الموضع هو وضع فكرة وحيرة، وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبا للأصلح الأصوب فهذا هو المراد من قوله (فلما استأسوا منه خلصوا نجيا)

(المسألة الثانية) قال الواحدى روى عن ابن كثير، استأسوا. وحتى إذا استأس الرسل بغير همز وفي بيتس لعتان يتس ويأس مثل حسب ويحسب ومن قال استأس قلب العين إلى موضع الفاء فصار استعفل وأصله استأس ثم خففت الهمزة. قال صاحب الكشاف: استأسوا يتسوا، وزيادة السين والتاء للبالغة كما في قوله (استعصم) وقوله (خلصوا) قال الواحدى: يقال خلص الشيء يخلص خلوصا إذا ذهب عنه الشائب من غيره، ثم فيه وجهان: الأول: قال الزجاج خلصوا أي انفردوا، وليس معهم أخوهم، والثاني: قال الباقون تميزوا عن الأجانب، وهذا هو الأظهر. وأما قوله (نجيا) فقال صاحب الكشاف: النجى على معنيين يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر. ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) وبمعنى المصدر الذى هو التناجى كما قيل: النجوى بمعنى المتناجين، فعلى هذا معنى (خلصوا نجيا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يتخالطهم سواهم (نجيا) أي مناجيا. روى (نجوى) أي فوجا (نجيا) أي مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا، وأحسن الوجوه أن يقال: إنهم تمحضوا تناجيا، لأن من كل حصول أمر من الأمور فيه وصف بأنه صار غير ذلك الشيء، فلما أخذوا في التناجى على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم، صاروا نفس التناجى حقيقة.

أما قوله تعالى (قال كبيرهم) فقيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل، وقيل كبيرهم في العقل

ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ قَد سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا
وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا
فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

وهو يهودا ، وهو الذى نهام عن قتل يوسف ، ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال (ألم تعلموا
أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قال يوسف عليه السلام (معاذ الله أن
نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) غضب يهودا ، وكان اذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل
إلا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض إخوته
اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فسه
فذهب غضبه وهم أن يصبح فر كض يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملابسه وجذبه
فسقط فعنده قال يا أيها العزيز ، فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا : إن أبانا قد أخذ
علينا موثقا عظيما من الله . وأيضاً نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة .

(المسألة الثانية) لفظ ما في قوله (ما فرطتم) فيها وجوه : الأول : أن يكون أصله من قبل هذا
فرطتم في شأن يوسف عليه السلام ، ولم تحفظوا عهد أبيكم . الثاني : أن تكون مصدرية ومحل
الرفع على الابتداء وخبره الظرف ، وهو من قبل . ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف ، الثالث :
النصب عطفاً على مفعول (ألم تعلموا) والتقدير : ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل
في يوسف . الرابع : أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا ما فرطتموه أى قدمتموه في حق
يوسف من الخيانة العظيمة ، ومحل الرفع والنصب على الوجهين المذكورين ، ثم قال (فلن أخرج
الأرض) أى فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى فى الانصراف إليه أو يحكم الله لى بالخروج
منها . أو بالاتصاف بمن أخذ أخى أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وهو خير الحاكمين ، لأنه
لا يحكم إلا بالعدل والحق ، وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياة وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعا
إلى الله تعالى فى إظهار عذره بوجه من الوجوه .

قوله تعالى (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا
للغيب حافظين وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون)

واعلم أنهم لما تفكروا في الأصوب ما هو ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع ، وأن يذكروا
لأبيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت ، والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير
الذى قال (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى) قيل إنه روييل ، وبقى هو في مصر وبعث سائر
إخوته إلى الأب .

فان قيل : كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة ، لاسيما وهو قد أجاب بالجواب الشافي ،
فقال الذى جعل الصواع في رحلى هو الذى جعل البضاعة في رحلكم .

والجواب عنه من وجوه :

(الوجه الأول) أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعا في موضع ما كان يدخله أحدا لهم ،
فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذى أخذ الصواع ، وأما
قوله : وضع الصواع في رحلى من وضع البضاعة في رحالكم ، فالفرق ظاهر ، لأن هناك لما رجعوا
البضاعة اليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحلكم ، وأما هذا الصواع فان أحدا لم يعترف
بأنه هو الذى وضع الصواع في رحله فظهر الفرق . فلهذا السبب غلب على ظنونهم انه سرق ،
فشهدوا بناء على هذا الظن ، ثم بينهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا وما
كنا للغيب حافظين)

(والوجه الثانى) فى الجواب ان تقدير الكلام (ان ابنك سرق) فى قول الملك واصحابه ومثله
كثير فى القرآن . قال تعالى (إنك لآنت الحليم الرشيد) أى عند نفسك ، وقال تعالى (ذق إنك أنت
العزبز الكريم) أى عند نفسك وأما عندنا فلا فكندا ههنا .

(الوجه الثالث) فى الجواب أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة
فان اطلاق اسم أحد الشبهين على الشبه الآخر جائز فى القرآن قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)
(الوجه الرابع) أن القوم ما كانوا أنبياء فى ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال : إنهم ذكروا هذا
الكلام على سبيل المجازفة لاسيما وقد شاهدوا شيئا يوم ذلك .

(الوجه الخامس) أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ (ان ابنك سرق) بالتشديد ، أى
نسب إلى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة ، إلا انا ذكرنا
فى هذا الكتاب أن امثال هذه القراءات لاتدفع السؤال ، لأن الاشكال انما يدفع إذا قلنا القراءة
الأولى باطلة ، والقراءة الحققة هى هذه . أما إذا سلمنا أن القراءة الأولى حققة كان الاشكال باقياً
سواء صححت هذه القراءة الثانية أو لم تصح ، فثبت أنه لا بد من الرجوع إلى أحد الوجوه المذكورة

أما قوله (وما شهدنا إلا بما علمنا) فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى (وما شهدنا إلا بما علمنا) وذلك يقتضى كون الشهادة مغايرة للعلم ولأنه عليه السلام قال: إذا علمت مثل الشمس فاشهد، وذلك أيضا يقتضى ما ذكرناه وليست الشهادة أيضا عبارة عن قوله أشهد لأن قوله أشهد اخبار عن الشهادة والاخبار عن الشهادة غير الشهادة.

إذا ثبت هذا فنقول: الشهادة عبارة عن الحكم الذهني وهو الذي يسميه المتكلمون بكلام النفس، وأما قوله (وما كنا للغيب حافظين) ففيه وجوه: الأول: أنا قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله. والثاني: قال عكرمة: معناه: لعل الصواع دس في متاعه بالليل فإن الغيب لا يعلمه إلا الله. والثالث: قال مجاهد والحسن وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به إلى الملك وما أعطيناك موثقا من الله في رده إليك. والرابع: نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم: فهب أنه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بني إسرائيل أن من سرق يسترق، بل أتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام: أنا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنا نعلم أن هذه الواقعة تقع فيها فقوله (وما كنا للغيب حافظين) إشارة إلى هذا المعنى.

فإن قيل: فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى في إخفاء حكم الله تعالى على هذا القول قلنا: لعله كان ذلك الحكم مخصوصا بما إذا كان المسروق منه مسلما فلماذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذي ظنه كافرا.

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا (واسأل القرية التي كنا فيها والعرير التي أقبلنا فيها)

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا (واسأل القرية التي كنا فيها) والآكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم، بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش، ثم فيه قولان: الأول: المراد وأسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للإيجاز والاختصار، وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب قال أبو علي الفارسي ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات. والثاني: قال أبو بكر الأنباري المعنى: أسأل القرية والعرير والجدار والحيطان فإنها تجميلك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجملات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه، وفيه وجه ثالث، وهو أن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً كاملاً فقد يقال فيه، سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

ما بقى للشك فيه مجال .

أما قوله (والعير التي أقبلنا فيها) فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا : سلمهم عن هذه الواقعة . ثم إنهم لما بالغوا في التأكيد والتقرير قالوا (وإنا لصادقون) يعنى سواء نسبتنا إلى التهمة أو لم ننسبنا إليها فحن صادقون ، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لأن هذا يجرى مجرى إثبات الشيء بنفسه ، بل الانسان إذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده وأنا صادق في ذلك يعنى فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبيئات لتزول عنك الشبهة قوله تعالى (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم)

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما في واقعة يوسف فقال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) فذكر هذا الكلام بعينه في هذه الواقعة إلا أنه قال في واقعة يوسف عليه السلام (والله المستعان على ما تصفون) وقال ههنا (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال بعضهم إن قوله (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عنى والمصير به إلى مصر طلبا للنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألحتم على في ارساله معكم ولم تعلقوا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديرهم وقيل : بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرا خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق .

(المسألة الثانية) قيل إن روييل لما عزم على الإقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع اخوته فقال اتركونى وإلا صحت صيحة لاتبقى بمصر امرأة حامل إلا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما رجع القوم الى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال : يا بني لاتخرجوا من عندى مرة إلا ونقص بعضكم ، ذهبتم مرة فنقص يوسف ، وفي الثانية نقص شمعون ، وفي هذه الثالثة نقص روييل وبنيامين ، ثم بكى وقال : عسى الله أن يأتيني بهم جميعا . وإنما حكم بهذا الحكم لوجوه : الأول : أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْنَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
 الْمَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ
 رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

على سبيل حسن الظن برحمة الله . والثاني : لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف أنه حى أو ظهرت
 له علامات ذلك وإنما قال (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني
 عشر فضع يوسف وبقي أحد عشر ، ولما أرسلهم الى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف
 واحتبس ذلك الكبير الذي قال (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) فلما كان
 الغائبون ثلاثة لاجرم (قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً)

ثم قال (إنه هو العليم الحكيم) يعنى هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق
 للفضل والاحسان والرحمة والمصلحة .

قوله تعالى ﴿وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾
 قالوا تالله تفتوا تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من المالكين قال إنما أشكو بثي
 وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من
 روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون

واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً وأعرض عنهم وفارقهم ثم
 بالآخرة طلبهم وعاد اليهم .

(أما المقام الأول) وهو أنه أعرض عنهم ، وفر منهم فهو قوله (وتولى عنهم وقال
 يا أسنى على يوسف)

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين عظم أسفه على

يوسف عليه السلام (وقال يا أسنى على يوسف) وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

(الوجه الأول) أن الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامن . والقدر إذا وقع على القدر كان أوجع وقال متمم بن نويرة:

وقد لامنى عند القبور على البكا رفيق لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيت له لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعنى فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه إذا رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه ، فأجاب بأن الأسى يبعث

الأسى . وقال آخر:

فلم تنسى أوفى المصيبات بعده ولكن نكاه القرح بالقرح أوجع

(والوجه الثاني) أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة . وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد ،

(الوجه الثالث) أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفا على الكل . الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها . وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه ، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوما له ، وأيضا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة . وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت ، فلهذه الأسباب عظم وجدته على مفارقتها وقويت مصيبته على الجهل بحاله .

(المسألة الثانية) من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله (يا أسنى على يوسف) قال لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز ، والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل ، وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكأوه ، وهو المراد من قوله (وابيضت عيناه من الحزن) ثم أمسك لسانه عن النياحة ، وذكر ما لا ينبغي ، وهو المراد من قوله (فهو كظيم) ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله (إنما أشكوبنى وحزنى إلى الله) وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فانه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم . روى أن يوسف عليه السلام سأل جبريل

هل لك علم يعقوب؟ قال نعم، قال وكيف حزنه؟ قال حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت. قال فهل له فيه أجر؟ قال نعم أجر مائة شهيد.

فان قيل: روى عن محمد بن علي الباقر قال: مر يعقوب شيخ كبير فقال له أنت ابراهيم فقال أنا ابن ابنة والمعموم غيرتي وذهبت بحسني وقوتي، فأوحى الله تعالى اليه «حتى متى تشكوني إلى عبادي وعزتي وجلالي لو لم تشكني لأبدلتك لما خيرا من لحك ودما خيرا من دمك» فكان من بعد يقول إنما أشكوبثي وحزني إلى الله وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان يعقوب أخ مواخ» فقال له: ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوس ظهري الحزن على بنيامين، فأوحى الله تعالى اليه «أما تستحي تشكوني إلى غيري» فقال إنما أشكوبثي وحزني إلى الله، فقال يارب أمارحم الشيخ الكبير قوست ظهري، وأذهبت بصري، فأردد على ريجاتي يوسف وبنيامين فأناه جبريل عليه السلام بالبشري وقال: لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعاما للمساكين، فان أحب عبادي إلى الأنبياء والمساكين، وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء نادى مناديه من أراد الغداء فليتعد مع يعقوب، وإذا كان صائما نادى مثله عند الافطار. وروى أنه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر، فقال له رجل: ما هذا الذي أراه بك، قال طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله اليه «أشكوبثي يا يعقوب» فقال: يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي.

قلنا: انا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة. وروى أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له: جئت لتقبضني قبل أن أرى حبيبي فقال لا، ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك، وأما البكاء فليس من المعاصي. وروى أن النبي عليه الصلاة والسلام: بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال «إن القلب ليحزن والعين تدمع، ولا نقول: ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم محزونون» وأيضا فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره، فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف. وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه، وأما ماورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبية فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأيضا ففقه دقيقة أخرى وهي أن الإنسان اذا كان في موضع التحير والتردد لا بد وأن يرجع إلى الله تعالى، فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقى حيا أم صار ميتا، فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ماسوى الله تعالى إلا في هذه الواقعة، وكانت أحواله في هذه الواقعة مختلفة، فربما صار في بعض الأوقات مستغرقا في ذكر الله تعالى، فان عن تذكر هذه الواقعة، فكان ذكرها كلا سواها،

فلهذا السبب صارت هذه الواقعة بالنسبة اليه ، جارية مجرى الالقاء في النار للخليل عليه السلام
ومجرى الذبح لابنه الذبيح .

فان قيل : أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول (إنا لله وإنا اليه راجعون)
حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله (وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون)

قلنا : قال بعض المفسرين إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هذه الأمة فأكرمهم الله تعالى إذا
أصابهم مصيبة وهذا عندي ضعيف لأن قوله (إنا لله) إشارة إلى أنا مملوكون لله وهو الذي خلقنا
وأوجدنا ، وقوله (وإنا اليه راجعون) إشارة إلى أنه لا بد من الحشر والقيامة ، ومن المحال أن أمة
من الأمم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه لا بد في العاقبة من رجوعه
الى الله تعالى ، فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة . ومن المحال أن يكون المؤمن بالله
غير عارف بذلك .

(المسألة الثالثة) قوله (يا أسنى على يوسف نداء الأسف وهو كقوله (يا عجبا) والتقدير كأنه
ينادى الأسف ويقول : هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة
منها في تفسير قوله (حاش الله) والأسف الحزن على مافات . قال الليث : اذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه
فأنت أسيف أى حزين ومتأسف أيضا . قال الزجاج : الأصل (يا أسنى) الا أن ياء الاضافة يجوز
ابدالها بالالف لحنفة الألف والفتحة .

ثم قال تعالى (وابيضت عيناه من الحزن) وفيه وجهان :

(الوجه الأول) أنه لما قال يا أسنى على يوسف غلبه البكاء ، وعند غلبة البكاء يكثر الماء
في العين فتصير العين كأنها ابيضت من يياض ذلك الماء وقوله (وابيضت عيناه من الحزن) كناية
عن غلبة البكاء ، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو
حملنا الايضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً . ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا
التعليل ، فكان ما ذكرناه أولى . وهذا للتفسير مع الدليل رواه الواحدى في البسيط عن ابن عباس
رضى الله عنهما .

(والوجه الثانى) أن المراد هو العمى قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى
عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله (فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا) قيل إن جبريل
عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان في السجن فقال إن بصر أهلك ذهب من

الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمي لم تلدني ولم أك حزنا على أبي ، والقائلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى ، فالحزن كان سببا للعمى بهذه الوساطة ، وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى ، لأنه يورث كدورة في سوداء العين ، ومنهم من قال : ماعى ولكنه صار بحيث يدرك ادراكا ضعيفا . قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه ، وتلك المدة ثمانون عاما ، وما كان على وجه الأرض عبدا أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام .

أما قوله تعالى ﴿ من الحزن ﴾ فاعلم أنه قرىء (من الحزن) برفع الحاء وسكون الزاي ، وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاي . قال الواحدي : واختلفوا في الحزن ، والحزن فقال قوم : الحزن البكاء والحزن ضد الفرح ، وقال قوم : هما لغتان يقال أصابه حزن شديد ، وحزن شديد ، وهو مذهب أكثر أهل اللغة ، وروى يونس عن أبي عمرو قال : إذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاي كقوله (ترى أعينهم تفيض من الدمع حزنا) وإذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله (من الحزن) وقوله (أشكو بثي وحزني إلى الله) قال هو في موضع رفع بالابتداء .

وأما قوله تعالى ﴿ فهو كظيم ﴾ فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة : ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم ، ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدر من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه ، ويجوز أيضا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة ، فبين تعالى أنها كانت غريقة في النعم فاللسان كان مشغولا بقوله (يا أسنى) والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم ،

أما قوله تعالى ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن السكيت يقال : مازلت أفعله وماقتت أفعله ومابرحت أفعله ولا يتكلم بهن إلا مع الجحد ، قال ابن قتيبة يقال : ماقتت وماقتت لغتان فتيا وفتوا إذا نسيته وانقطعت عنه قال النحويون وحرف التثنية هنا مضمرة على معنى قالوا : ما تفتؤ ولا تفتؤ وجاز حذفه لأنه لو أريد الإثبات لكان باللام والنون نحو . والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا مضمرة وأنشدوا قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

والمعنى : لأبرح قاعداً ومثله كثير . وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقادة لاتزال تذكره ، وعن مجاهد لا تفتقر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوة أخوين .
(المسألة الثانية) حكى الواحدى عن أهل المعاني أن أصل الحرص فساد الجسم والعقل للحزن والحب . وقوله حرصت فلاناً على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه ، وقال تعالى (حرص المؤمنون على القتال)

إذا عرفت هذا فنقول : وصف الرجل بأنه حرص إما أن يكون لارادة أنه ذو حرص فحذف المضاف أو لارادة أنه لما تنهى فى الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرص ونفس الفساد . وأما الحرص بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معاً .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه عبارات : أحدها : الحرص والحارص هو الفاسد فى جسمه وعقله . وثانيهما : سأل نافع بن الأزرق بن عباس عن الحرص فقال : الفاسد الدنف . وثالثها : أنه الذى يكون لا كالأحياء ولا كالأموات ، وذكر أبو روق أن أنس بن مالك قرأ (حتى تكون حرضا) بضم الحاء وتسكين الراء قال يعنى مثل عود الأسنان ، وقوله (أو تكون من المالكين) أى من الأموات ، ومعنى الآية أنهم قالوا لايبهم إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تتفجع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا : أنت الآن فى بلاء شديد ونحاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف .

فان قيل : لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعاً؟

قلنا : إنهم بنوا هذا الأمر على الظاهر .

فان قيل : القائلون بهذا الكلام وهو قوله (تالله تفتؤ) من هم؟

قلنا : الأظهر أن هؤلاء ليسوا هم الأخوة الذين قد تولى عنهم ، بل الجماعة الذين كانوا فى الدار

من أولاد اولاده وخدمه :

ثم حكى تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال (إنما أشكوا بى وحزنى إلى الله) يعنى أن هذا الذى أذكره لا أذكره معكم وإنما أذكره فى حضرة الله تعالى ، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان فى زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك» والله هو الموفق ، والبث هو التفريق قال الله تعالى (وبث فيها من كل دابة) فالحزن إذا ستره الإنسان كان هما وإذا ذكره لغيره كان بثاً وقالوا : البث أشد الحزن

والحزن أشداهم ، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليا عليه وأما إذا عظم وعجز الانسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبي كان ذلك بنا وذلك يدل على أن الانسان صار عاجزا عنه وهو قد استولى على الانسان ، فقوله (ثي وحزني إلى الله) أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله ، وقرأ الحسن : وحزني . بفتحين وحزني بضمين ، قيل : دخل على يعقوب رجل وقال : يا يعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سنا عاليا فقال الذي بي لكثرة غمومي ، فأوحى الله اليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي ، فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي فغفرها له ، وكان بعد ذلك اذا سئل قال (إنما أشكو ثي وحزني إلى الله) وروى أنه أوحى الله اليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام بياكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقي إلى الأنبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين ، وقيل . اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت .

ثم قال يعقوب عليه السلام ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون ، وهو أنه تعالى يأتي بالفرج من حيث لا أحسب ، فهو إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف اليه . وذكروا لسبب هذا التوقع أموراً : أحدها : أن ملك الموت أتاه فقال له : يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف ؟ قال لا يابني الله ثم أشار إلى جانب مصر وقال : اطلبه ههنا ، وثانيها : أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة . لأن أمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة في حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ . ، وثالثها : لعلة تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه ، ولكنه تعالى ماعين الوقت . فلماذا بقي في القلق ، ورابعها : قال السدي : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال : يبعد أن يظهر في الكفار مثله ، وخامسها : علم قطعاً أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وماضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام في المقام الأول .

﴿والمقام الثاني﴾ أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف . وهو قوله (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه)

واعلم أنه عليه السلام لما طمع في وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه : تحسسوا من يوسف ، والتحسس طلب الشيء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر ، قال أبو بكر الأنباري يقال : تحسست عن فلان ولا يقال من فلان ، وقيل : ههنا من يوسف لأنه أقام من مقام عن ، قال : ويجوز أن يقال : من للتبعيض ، والمعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف ، واستعملوا بعض أخبار يوسف

فذكرت كلمة (من) لما فيها من الدلالة على التبويض ، وقرىء (تجسسوا) بالجيم كما قرىء بهما في الحجرات .

ثم قال ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ قال الأصمعي : الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه وتركيب الرأء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز ، فكلمها بهتز الانسان له ويلتذ بوجوده فهو روح . وقال ابن عباس : لا تيأسوا من روح الله يريد من رحمة الله ، وعن قتادة : من فضل الله ، وقال ابن زيد : من فرج الله . وهذه الألفاظ متقاربة ، وقرأ الحسن و قتادة : من روح الله بالضم أى من رحمته .

ثم قال ﴿انه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن المؤمن من الله على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء .

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الانسان أن الاله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا والله أعلم ، وقد بقى من مباحث هذه الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أن بلوغ يعقوب فى حب يوسف الى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلا عن الله ، فان من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يفرغ قلبه لحب شىء سوى الله تعالى ، وأيضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشئيين ، فلما كان قلبه مستغرقا فى حب ولده امتنع أن يقال : إنه كان مستغرقا فى حب الله تعالى .

﴿والسؤال الثانى﴾ أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى ، وبالتفويض اليه والتسليم لقضائه .

وأما قوله (ياأسفى على يوسف) فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الأنبياء .
﴿والسؤال الثالث﴾ لاشك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء ، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين فى جميع الدنيا ، ومن كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة فى أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية ، بل لا بد وأن يبلغ فى الشهرة الى حيث يعرفها كل أحد لاسيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقى يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم ، وكان يوسف فى مصر وكان يعقوب فى بعض بلاد الشام قريبا من مصر ، فع قرب المسافة يمتنع بقاء مثل هذه الواقعة مخفية .

﴿السؤال الرابع﴾ لم لم يبعث يوسف عليه السلام أحدا إلى يعقوب ويعلمه أنه فى الحياة وفى

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ
 مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ
 عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَمْ نَكُ لَأَنْتَ
 يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

السلامة ولا يقال : إنه كان يخاف إخوته لأنه بعد أن صار ملكا قاهرا كان يمكنه إرسال الرسول
 إليه وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول .

(والسؤال الخامس) كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع في وعاء أخيه ثم يستخرجه
 منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئا عنها .

(السؤال السادس) كيف رغب في إصااق هذه التهمة به وفي حبسه عند نفسه مع أنه
 كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى .

والجواب عن الأول : أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ماسواه من الخواطر .
 ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع
 فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق .

والجواب عن الثاني : أن الداعي الانسانية لاتزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول (يا أسنى على
 يوسف) وتارة كان يقول (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) وأما بقية الأسئلة فالقاضي
 أجاب عنها بجواب كلي حسن ، فقال هذه الوقائع التي نقلت لنا إما يمكن تخريجها على الأحوال
 المعتادة أولا يمكن فإن كان الأول فلا اشكال ، وأن الثاني فنقول : كان ذلك الزمان زمان الأنبياء
 عليهم السلام وخرق العادة في هذا الزمان غير مستبعد ، فلم يمتنع أن يقال : إن بلدة يعقوب عليه
 السلام مع أنها كانت قرية من بلدة يوسف عليه السلام ، ولكن لم يصل خبر أحدهما إلى الآخر
 على سبيل نقض العادة .

قوله تعالى ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم

جاهلون قالوا أئتدك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿

اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن ههنا محذوفاً والتقدير : أن يعقوب لما قال لبنيه (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له (يا أيها العزيز)

فان قيل : إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل ؟

قلنا : لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا : نجربه في ذكر هذه الأمور فان رقق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا . فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة . وقالوا يا أيها العزيز ، والعزيز هو الملك القادر المنيع (مسنا وأهلنا الضر) وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم (وجئنا ببضاعة مزجاة) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ معنى الازجاء في اللغة ، الدفع قليلا قليلا . ومثله النزجية يقال الريح تزجي السحاب . قال الله تعالى (ألم تر أن الله يزجي سحابا) وزجيت فلانا بالقول دافعته ، وفلان يزجي العيش أى يدفع الزمان بالحيلة .

﴿والبحت الثانى﴾ إنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لهما جميعاً والمفسرون ذكروا كل هذه الأقسام قال الحسن : البضاعة المزجاة القليلة ، وقال آخرون إنها كانت رديئة واختلفوا في تلك الرداءة ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام ، وقيل : خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة ، وقيل : متاع الأعراب الصوف والسمن . وقيل الحبة الخضراء ، وقيل الأقط ، وقيل النعقال والأدم ، وقيل سويق المقل ، وقيل صوف المعز ، وقيل إن دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التي جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس :

﴿البحث الثالث﴾ في بيان أنه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة ؟ وفيه وجوه : الأول : قال الزجاج : هى من قولهم فلان يزجي العيش أى يدفع الزمان بالقليل ، والمعنى أنا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان ، وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الأيام الثانى : قال أبو عبيد : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة ، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة بمن ينفقها

قال وهي من الأجزاء ، والأجزاء عند العرب السوق والدفع . الثالث : بضاعه مزجاة أى مؤخرة مدفوعة عن الاتفاق لا ينفق مثلها إلا من اضطر واحتاج إليها لفقد غيرها مما هو أجود منها . الرابع . قال الكلبي : مزجاة لغة العجم ، وقيل هي من لغة القبط قال أبو بكر الأنباري : لا ينبغي أن يجعل لفظ عربي معروف الاشتقاق والتصريف منسوباً إلى القبط .

(البحث الرابع) قرأ حمزة والكسائي مزجاة بالامالة ، لأن أصله الياء . والباقون بالنصب والتفخيم .

واعلم أن حاصل الكلام في كون البضاعه مزجاة إما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالمهم ووصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة قالوا له (فاوف لنا الكيل) والمراد أن يساهلهم إما بأن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الردي مقام الجيد ، ثم قالوا (وتصدق علينا) والمراد المسامحة بما بين الثمين وأنت يسر لهم بالردي . كما يسر بالجيد ، واختلف الناس في أنه هل كان ذلك طلباً منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة : إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير ، كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة ، وأنكر الباقون ذلك . وقالوا حال الأنبياء وحال أولاد الأنبياء ينافي طلب الصدقة . لأنهم بأنفون من الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع إلى الله تعالى والاستغاثة به عن سواه ، وروى عن الحسن ومجاهد : أنهما كرها أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي ، قالوا : لأن الله لا يتصدق إنما يتصدق الذي يتبغى الثواب ، وإنما يقول : اللهم اعطني أو تفضل ، فعلى هذا التصديق هو إعطاء الصدقة والمتصدق المعطى ، وأجاز الليث أن يقال للسائل : متصدق . وأباه الآكثرون . وروى أنهم لما قالوا (مسنا وأهلنا الضر) وتضرعوا إليه اغرورقت عيناه فعند ذلك (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقيل : دفعوا إليه كتاب يعقوب . فيه من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر . أما بعد : فأنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى في النار ليحرق فنجاه الله وجعلها برداً وسلاماً عليه ، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لي ابن . وكان أحب أولادى إلى فذهب به اخوته إلى البرية . ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من البكاء عليه ، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه . وكنت أتسلى به فذهبوا به إليك ثم رجعوا وقالوا . إنه قد سرق وانك حبسته عندك وإنما أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً ، فان رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك . فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف .

ثم حكى تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) قيل إنه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكأؤه وصرح بأنه يوسف . وقيل : إنه لما رأى اخوته تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف ، وقوله (هل علمتم ما فعلتم بيوسف) استفهام يفيد تعظيم الواقعة ، ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ، وهو كما يقال للذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ؟

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى (وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وأما قوله (وأخيه) فالمراد ما فعلوا به من تعريضه للغم بسبب افراذه عن أخيه لأبيه وأمه ، وأيضا كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الايذاء قالوا في حقه (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وأما قوله (إذ أنتم جاهلون) فهو يجرى مجرى العذر كأنه قال : أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور ، يعنى والآن لستم كذلك ، ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى (ماغرك بربك الكريم) قيل إنما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جاريا مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يارب غرني كرمك فكذا هنا إنما ذكر ذلك الكلام إزالة للخجالة عنهم وتخفيفا للأمر عليهم . ثم إن اخوته قالوا (أنتك لانت يوسف قال أنا يوسف) قرأ ابن كثير (انك) على لفظ الخبر ، وقرأ نافع (أينك لانت يوسف) بفتح الالف غير ممدودة وبالياء وأبو عمرو (آينك) بمد الالف وهو رواية قالون عن نافع ، والباقون (أنتك) بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام ، وقرأ أبي (أو أنت يوسف) لحصل من هذه القراءات أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر . أما الأولون فقالوا : إن يوسف لما قال لهم (هل علمتم) وتبسم فأبصروا ثنياه ، وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف ، فقالوا له استفهاما (أنتك لانت يوسف) ويدل على صحة الاستفهام أنه (قال أنا يوسف) وإنما أجابهم عما استفهموا عنه . وأما من قرأ على الخبر فحجته ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه ، وكان في فرقه علامة وكان ليعقوب وإسحق مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة ، فقالوا (إنك لانت يوسف) ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام . ثم حذف حرف الاستفهام وقوله (قال أنا يوسف) فيه بحثان :

(البحث الأول) اللام لام الابتداء ، وأنت مبتدأ . ويوسف خبره ، والجملة خبر إن .

(البحث الثاني) أنه إنما صرح بالاسم تعظيما لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
 الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقَوْهُ
 عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

الظفر والنصر؛ فكأنه قال: أنا الذي ظلمتوني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب،
 أناذلك العاجز الذي قصدت قتله وإلقاءه في البحر ثم صرت كالترون، ولهذا قال (وهذا أخى) مع أنهم كانوا
 يعرفونه لأن مقصوده أن يقول: وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت ثم إنه صار منعماً عليه من قبل
 الله تعالى كما ترون وقوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس رضى الله عنهما بكل عز في الدنيا والآخرة
 وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله (إنه من يتق ويصبر) معناه: من يتق معاصي الله ويصبر
 على أذى الناس (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) والمعنى: إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجرهم
 فوضع المحسنين موضع الضمير لاستماله على المتقين. وفيه مسألان:

(المسألة الأولى) اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقياً
 ولو أنه قدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذباً منه وذكر الكذب في مثل
 هذا المقام الذي يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصي لا يليق بالعقلاء.

(المسألة الثانية) قال الواحدى روى عن ابن كثير في طريق قبيل (إنه من يتق) باثبات الياء
 في الخالين ووجهه أن يجعل «من» بمنزلة الذي فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون
 قوله (ويصبر) في موضع الرفع لأنه حذف الرفع طلباً للتخفيف كما يخفف في عضد وشمع. والباقون
 يحذف الياء في الخالين.

قوله تعالى ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ قال لا تثريب عليكم اليوم
 يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً
 وأتوني بأهلكم أجمعين ﴿

اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لآخوته أن الله تعالى من عليه وإن من يتق المعاصي
 ويصبر على أذى الناس فإنه لا يضيعه الله صدقوه فيه، واعترفوا له بالفضل والمزية (قالوا تالله
 لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) قال الأصمى: يقال: آثرك إثارة، أى فضلك الله،
 وفلان آثر عبد فلان، إذا كان يؤثره بفضله وصلته، والمعنى: لقد فضلك الله علينا بالعلم

والحلم والعقل والفضل والحسن والملك ، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن اخوته ما كانوا أنبياء ، لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا (تالله لقد آثرك الله علينا) وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائدا عليهم في الملك وأحوال الدنيا وان شاركوه في النبوة لانا بينا أن أحوال الدنيا لا يعابها في جنب منصب النبوة .

وأما قوله (وإن كنا لحاطئين) قيل الحاطيء هو الذي أتى بالخطيئة عمدا . و فرق بين الحاطيء والمخطيء ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الاحكام فلا يصيب إنه مخطيء ، ولا يقال إنه حاطيء . وأكثر المفسرين على أن الذي اعتذروا منه هو اقدمهم على القائه في الجب وبعه وتبعيده عن البيت والاب . وقال أبو علي الجبائي : إنهم لم يعتذروا اليه من ذلك ، لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبا فلا يعتذر منه ، وإنما اعتذروا من حيث أنهم أخطؤا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه ، ليعلم أنه حى وأن الذنب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجوه :

(الوجه الأول) أنا بينا أنه لا يجوز أن يقال إنهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلا عاقلا يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي .

(الوجه الثاني) هب أن الأمر على ما ذكره الجبائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال انه يحسن الاعتذار عنه ، والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه . ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى ، فعلينا أن الانسان أيضا قد يتوب عند ما لا تكون التوبة واجبة عليه .

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) وفيه بحثان :

(البحث الأول) التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « إذا زنت أمة أحدكم فليضربها الحد ولا يثربها » أي ولا يعيرها بالزنا ، فقوله (لا تثريب) أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش . ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد قال عطاء الخراساني طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لآخوته (لا تثريب عليكم) وقول يعقوب (سوف أستغفر لكم ربي)

(البحث الثاني) ان قوله (اليوم) متعلق بماذا وفيه قولان :

(القول الأول) انه متعلق بقوله (لا تثريب) أى لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب فساظنكم بسائر الأيام ، وفيه احتمال آخر وهو أنى حكمت فى هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقاً لأن قوله (لا تثريب) نفي للداهية ونفي الماهية يقتضى انتفاء جميع أفراد الماهية ، فكان ذلك مفيداً للنفي المتناول لكل الأوقات والأحوال . فتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال . ثم إنه لما بين لهم أنه أزال عنهم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال (يعفر الله لكم) والمراد منه الدعاء .

(والقول الثانى) أن قوله (اليوم) متعلق بقوله (يعفر الله لكم) كأنه لما نفي التثريب مطلقاً بشرهم بأن الله غفر ذنبهم فى هذا اليوم ، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فآله قبل توبتهم وغفر ذنبهم ، فلذلك قال (اليوم يعفر الله لكم) روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادى باب الكعبة يوم الفتح ، وقال لقريش «ما ترونى فاعلا بكم» فقالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال «أقول ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم» وروى أن أباسفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : اذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه (قال لا تثريب عليكم اليوم) ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غفر الله لك ولمن علمك» وروى أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه إنك تحضرنا فى مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك لما صدر منا من الاساءة اليك ، فقال يوسف عليه السلام ان أهل مصر وإن ملكت فيهم فانهم ينظرونى بالعين الأولى ويقولون : سبجان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ، ولقد شرفت الآن باتيانكم وعظمت فى العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم إخوتى وإنى من حفدة إبراهيم عليه السلام .

ثم قال يوسف عليه السلام (اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً) قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألمهم عن أليه فقالوا ذهب عيناه ، فأعطاهم قميصه ، قال المحققون : إنما عرف أن القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فاذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد ، وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى ، بحيث يبدى يقوى بصره ، ويذول عنه ذلك النقصان ، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فان القوانين الطيبة تدل على صحة هذا المعنى ، وقوله (يأت بصيراً) أى يصير بصيراً ويشهد له (فارتد بصيراً) ويقال : المراد يأت الى وهو بصير ، وإنما أفرد بالذكر تعظيماً له ، وقال فى الباقيين (وأوتونى بأهلكم أجمعين) قال

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْتَدُونَهُ «٩٤»
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ «٩٥» فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
 فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٩٦» قَالُوا
 يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ «٩٧» قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
 رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٩٨»

الكلمة: كان أهله نحو من سبب بين انسانا وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر . وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة ، وروى أن يهودا حمل الكتاب وقال أنا أحزنته بحمل القميص المملوح بالدم اليه فافرحه كما أحزنته . وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر إلى كنعان . وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا .

قوله تعالى ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفتدون قالوا تالله انك لى ضلالك القديم فلما جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم﴾

يقال : فصل فلان من عند فلان فصولا إذا خرج من عنده . وفصل منى إليه كتابا إذا أنفذ به اليه . وفصل يكون لازما ومتعديا وإذا كان لازما فصدره الفصول وإذا كان متعديا فصدره الفصل قال لما خرجت العير من مصر متوجهة الى كنعان قال : يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفتدون) ولم يكن هذا القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) واختلفوا فى قدر المسافة فقيل : مسيرة ثمانية أيام ، وقيل عشرة أيام ، وقيل ثمانون فرسخا . واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة اليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفتت القميص فقاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال (إنى لأجد ريح يوسف) وروى الواحدى بإسناده عن أنس بن مالك

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أما قوله (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) فإن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم في النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يتحدث ، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحاق وكساه اسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله في قسبة من فضة وعلقها في عنقه فألقى في الجب والقميص في عنقه . فذلك قوله (اذهبوا بقميصي هذا) والتحقيق أن يقال : إنه تعالى أوصل تلك الراحة إليه على سبيل اظهار المعجزات لا وصول الراحة اليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحد هما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبه في هذا الكلام الى ما لا ينبغي ، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له . قال أهل المعاني : إن الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة وبجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب إحدى البلديتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل ومعنى : لا نجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم ، وقوله (لولا أن تفندون) قال ابو بكر بن الأنباري : أفند الرجل إذا حزن وتغير عقله وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه ، وعن الأصمعي إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب الكشاف : يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم يكن في شيبتها ذات رأى حتى تفند في كبرها فقوله (لولا أن تفندون) أى لولا أن تنسبونى الى الخرف ، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده (تالله إنك لفي ضلالك القديم) وفي الضلال ههنا وجوه : الأول : قال مقاتل : يعنى بالضلال ههنا الشقاء ، يعنى شقاء الدنيا والمعنى : انك لفي شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف ، واحتج مقاتل بقوله (إنا اذن لفي ضلال وسعر) يعنون لفي شقاء ديانا ، وقال قتادة : لفي ضلالك القديم ، أى لفي حبك القديم لا تنسأه ولا تذهل عنه وهو كقولهم (إن أبانا لفي ضلال مبين) ثم قال قتادة : قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبى الله ، وقال الحسن إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قدمات وقد كان يعقوب في ولوعه بذكره ، ذاهباً عن الرشد والصواب وقوله (فلما أن جاء البشير) فى «أن» قولان : الأول : أنه لا موضع لها من الاعراب وقد تذكرت تارة كما ههنا . وقد تحذف كقوله (فللمسا ذهب عن إبراهيم الروح) والمذهبان جميعاً موجودان فى أشعار العرب . والثانى : قال البصريون هى مع «ما» فى موضع رفع بالفعل المضمر تقديره : فلما ظهر أن جاء البشير ، أى ظهر بجيئ البشير فأضمر الرفع قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا قال أنا ذهبت بالقميص المملطخ بالدم وقلت إن يوسف أكله

الذئب فأذهب اليوم بالقميص فأفرجه كما أحزته قوله (ألقاه على وجهه) أى طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو يقال ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد بصيراً) أى رجع بصيراً ومعنى الارتداد انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها وقوله (فارتد بصيراً) أى صيره الله بصيراً كما يقال طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه فقال بعضهم: إنه كان قد عمى بالكلية فآله تعالى جعله بصيراً في هذا الوقت. وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان، فلما ألقوا القميص على وجهه، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرجه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه، فعند هذا قال (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون) والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا، لأن هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله (إنما أشكوتنّى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) روى أنه سأل البشير وقال: كيف يوسف قال هو ملك مصر، قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال: على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة، ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه (وقالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك، واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه: الأول: قال ابن عباس رضى الله عنهما: والأكثر أن أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الاجابة. الثانى: قال ابن عباس رضى الله عنهما: في رواية أخرى أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة، لأنها أوفق الأوقات للاجابة. الثالث: أراد أن يعرف أنهم هل تابوا في الحقيقة أم لا، وهل حصلت توبتهم مقرونة بالاخلاص التام أم لا. الرابع: استغفر لهم في الحال، وقوله (سأستغفر لكم) معناه أنى أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل، فقد روى أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت فلما فرغ رفع يده إلى السماء وقال «اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عليه، واغفر لأولادى ما فعلوه في حق يوسف عليه السلام» فأوحى الله تعالى إليه: قد غفرت لك ولهم أجمعين. وروى أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء: ما يغنى عنا إن لم يغفر لنا، فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الملكة فنزل جبريل عليه السلام وقال «إن الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك وعقد موثيقهم بعدك على النبوة» وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ
 آمِنِينَ «٩٩» وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
 رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
 وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ
 لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ «١٠٠»

قوله تعالى ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ورفع
 أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد
 أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي
 إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾

اعلم أنه روى أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازاً وماتى راحلة ليتجهز إليه بمن معه
 وخرج يوسف عليه السلام والمملك في أربعة آلاف من الجند والعظاء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا
 يعقوب عليه السلام وهو يمشى يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون
 مصر. قال: لا. هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فنزع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام:
 السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وخرجوا
 منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ
 أما قوله ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ في المراد بقوله أبويه قولان : الأول : المراد أبوه وأمه ، وعلى هذا القول فقيل إن
 أمه كانت باقية حية الى ذلك الوقت ، وقيل إنها كانت قد ماتت ، إلا ان الله تعالى أحيها وأنشرها
 من قبرها حتى سجدت له تحقيقا لرؤية يوسف عليه السلام ،

﴿ والقول الثاني ﴾ ان المراد أبوه وخالته ، لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين ، وقيل :
 بنيامين بالعبراية ابن الوجة ، ولما ماتت امه تزوج أبوه بخالته فسمها الله تعالى بأحد الأبوين ، لأن

الرابة تدعى، إما لقيامها مقام الأم أو لأن الحالة أم كما أن العم أب، ومنه قوله تعالى (ولله آياتك إبراهيم وإسماعيل وإسحق)

(البحث الثاني) آوى إليه أبويه ضمهما إليه واعتنقهما.

فان قيل: مامعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

قلنا: كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه وقال

لهم (ادخلوا مصر)

أما قوله (ادخلوا مصر إن شاء الله آمين) ففيه أبحاث:

(البحث الأول) قال السدى إنه قال: هذا القول قبل دخولهم مصر؛ لأنه كان قد استقبلهم

وهذا هو الذى قرناه، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: المراد بقوله (ادخلوا مصر) أى أقيموا

بها آمين، سمي الإقامة دخولا لا اقتران أحدهما بالآخر.

(البحث الثاني) الاستثناء وهو قول (إن شاء الله) فيه قولان: الأول: أنه عائد الى الأمن

لا الى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمين إن شاء الله، ونظيره قوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام

إن شاء الله آمين) وقيل إنه عائد الى الدخول على القول الذى ذكرناه أنه قال لهم هذا الكلام قبل

أن دخلوا مصر.

(البحث الثالث) معنى قوله (آمين) يعنى على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لاتخافون أحدا،

وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل آمين من القحط والشدة والفاقة، وقيل آمين من أن

يضرهم يوسف بالجرم السالف.

أما قوله (ورفع أبويه على العرش) قال أهل اللغة: العرش السرير الرفيع قال تعالى (ولها

عرش عظيم) والمراد بالعرش ههنا السرير الذى كان يجلس عليه يوسف، وأما قوله (وخرأوله

سجدا) ففيه إشكال، وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الأبوة عظيم قال تعالى

(وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) فقرن حق الوالدين بحق نفسه، وأيضا أنه

كان شيخا، والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ.

(والقول الثالث) أنه كان من أكابر الأنبياء ويوسف وان كان نبيا إلا أن يعقوب كان

أعلى حالا منه.

(والقول الرابع) أن جد يعقوب واجتهاده في تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما

اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف في خدمة يعقوب فكيف استجاز

يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال.

والجواب عنه من وجوه :

(الوجه الأول) وهو قول ابن عباس في رواية عطاء أن المراد بهذه الآية أنهم خروا له أى لأجل وجدانه سجدا لله تعالى ، وحاصل الكلام : أن ذلك السجود كان سجودا للشكر فالمسجود له هو الله ، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) مشعر بأنهم صعّدوا ذلك السرير ، ثم سجدوا له ، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع .

فإن قالوا : فهذا التأويل لا يطابق قوله (بأبى هذا تأويل رؤياى من قبل) والمراد منه قوله (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)

قلنا : بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) لأجل أى أى أنها سجدت لله لطلب مصلحتى وللسمى فى اعلاء منصبى ، وإذا كان هذا محتملا سقط السؤال ، وعندى أن هذا التأويل متعين ، لأنه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكال النبوة .

(والوجه الثانى) فى الجواب أن يقال : إنهم جعلوا يوسف كالقبة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه ، وهذا التأويل حسن فإنه يقال : صليت للكعبة كما يقال : صليت الى الكعبة . قال حسان شعرا .

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
ليس أول من صلى لقبلكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن
وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبة ، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبة وقوله (وخروا له سجدا) أى جعلوه كالقبة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه .

(الوجه الثالث) فى الجواب قد يسمى التواضع سجودا كقوله :

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

وكان المراد ههنا التواضع إلا أن هذا مشكل ، لأنه تعالى قال (وخروا له سجدا) والخروا الى السجدة مشعر بالاتبان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بأن الخروا قد يعنى به المرور فقط قال تعالى (لم يخروا عليها صما وعميانا) يعنى لم يبروا .

(الوجه الرابع) فى الجواب أن نقول : الضمير فى قوله (وخروا له) غير عائد إلى الأبوين لإحالة ، وإلا لقال : وخروا له ساجدين ، بل الضمير عائد إلى إخوته ، وإلى سائر من كان يدخل

عليه لأجل التهنئة ، والتقدير : ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما ، وأما الاخوة وسائر الداخلين فخرجوا له ساجدين .

قان قالوا : فهذا لا يلائم قوله (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل)

قلنا : إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر ، تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له . ولاشك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له ، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فاما أن يكون التعبير مساويا لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجه أحد من العقلاء .

(الوجه الخامس) في الجواب لعل الفعل الدال على التحية والاكرام في ذلك الوقت هو السجود ، وكان مقصودهم من السجود تعظيمه ، وهذا في غاية البعد لأن المبالغة في التعظيم كانت أليق بيوسف منها يعقوب ، فلو كان الأمر كما قلتم ، لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام .

(والوجه السادس) فيه أن يقال : لعل اخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع ، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران الفتن وظهور الأحقاد القديمة بعد كونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود ، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبا فإذا أراد ترتيبه مكنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببا في أن لا يبق في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة فكذا ههنا .

(الوجه السابع) لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو . ويوسف ما كان راضيا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت .

ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة (قال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) وفيه بحثان :

(البحث الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه لما رأى يعقوب أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه ، وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياى من قبل ، وأقول : هذا يقوى الجواب السابع كأنه يقول : ياأبت لا يلىق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا

أمر أمرت به وتكاليف كلفت به ، فإن رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببا لوجوب ذلك السجود ، فلهذا السبب حكى ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئا ، وأقول : لا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له : إنك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه ، فاذا وجدته فاسجد له ، فكان الأمر بذلك السجود من تمام التشديد ، والله أعلم بحقائق الأمور .

(البحث الثاني) اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقبل ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون ، وهو قول الأكثرين ، ولذلك يقولون إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة ، وقيل ثمانى عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وبقى في العبودية والسجون ثمانين سنة ، ثم وصل إلى أبيه وأقاربه . وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الأمور .

ثم قال (وقد أحسن بنى) أى إلى يقال : أحسن بنى واليه . قال كثير .

أسئتي بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن ثقلت

إذ أخرجنى من السجن ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه : الأول أنه قال لاختوته (لا تثرىب عليكم اليوم) ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثرىبا لهم فكان إهماله جاريا بجمعى الكرم ، الثانى : أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكا بل صيره عبدا ، أما لما خرج من السجن صيره ملكا فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا ، الثالث : أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة ، الرابع : قال الواحدى : النعمة في إخراجه من السجن أعظم لأن دخوله في السجن كان بسبب ذنب هم به ، وهذا ينبغى أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس ، وهذا وإن كان في محل العفو في حق غيره إلا أنه ربما كان سببا للبواخذة في حقه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين

ثم قال (وجاء بكم من البدو) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) في الآية قولان :

(القول الأول) جاء بكم من البدو أى من البادية ، وقال الواحدى : البدو بسبب من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ، ثم سمي المسكان باسم المصدر فيقال : بدو

وحضر وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواش وبرية .

(والقول الثاني) قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها ، ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الأنباري : بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعاً كثير فقال :

وأنت التي حبيت شعباً إلى بدا إلى وأوطاني بلاد سواهما

فألبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا يقال بدا القوم يسدون بدوا إذا أتوا بدا كما يقال : غار القوم غورا إذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا ، وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لأن البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا إلى ههنا كلام قاله الواحدى فى البسيط .

(المسألة الثانية) تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، لأن خروج العبد من السجن أضافه إلى نفسه بقوله (إذ أخرجنى من السجن) ومجيئهم من البدو وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله (وجاء بكم من البدو) وهذا صريح فى أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد أن ذلك إنما حصل بأقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر .

ثم قال (من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين اخوتي) قال صاحب الكشاف : (نزع) أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزع الراكض الدابة وحملها على الجرى : يقال : نزعته ونسغته إذا نسغته . واعلم أن الجبائى والكعبى والقاضى : احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا : لأنه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزع إلى الشيطان ، ولو كان ذلك أيضا من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلا اليه كما فى النعم .

والجواب : أن اضافته هذا الفعل الى الشيطان مجاز . لأن عندكم الشيطان لا يتممكن من الكلام الخفى وقد أخبر الله عنه فقال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فثبت أن ظاهر القرآن يقتضى إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مع أنه ليس كذلك ، وأيضا فان كان اقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فأقدام الشيطان على المعصية ان كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وان لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله فى حق الانسان ، فثبت أن اقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضا بسبب نفسه لأن أحدا لا يميل طبعه الى اختيار الجهل والفسق الذى يوجب وقوعه فى ذم الدنيا وعقاب الآخرة ، ولما كان وقوعه فى الكفر والفسق لا بد له من موقع ، وقد بطل القسمان لم يبق الا أن يقال ذلك من الله تعالى ، ثم الذى

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ «١٠١»

يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله (اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو صريح في أن الكل من الله تعالى .

ثم قال ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه و إخوته مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فاذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول .

ثم قال ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أعنى أن كونه لطيفاً في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لانهاية لها فيكون عالماً بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب . وحكيم أى محكم في فعله ، حاكم في قضائه . حكيم في أفعاله مبرأ عن العيب والباطل والله أعلم .

قوله تعالى ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفى مسلماً وألحقتني بالصالحين﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى أن يوسف عليه السلام أخذ يدي يعقوب وطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح ، فلما أدخله مخازن القراطيس قال يابني ما أغفلك ، عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى علي ثمان مراحل قال نهاني جبريل عليه السلام عنه قال سله عن السبب قال أنت أبسط إليه فسأله فقال جبريل عليه السلام ، أمرني الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب . فهلاخفتني وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى إليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسمحق ففضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت . وقيل : ماتناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيباً طاهراً ، فتخاصم أهل مصر في دفنه كل أحد يحب أن يدفن في محلهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الأصح أن يعملوا له صندوقاً من مرمر ويجعلوه فيه ويدفونه في النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر لتصل بركته إلى كل أحد ، وولده لافرائيم وميشا ، وولد لافرائيم نون . ولنون يوشع قتي موسى ، ثم دفن يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى

فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه .

(المسألة الثانية) من في قوله (من الملك . ومن تأويل الأحاديث) للتبعيض ، لأنعلم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل . قال الأصم : إنما قال من الملك ، لأنه كان ذو ملك فوقه .

واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة : المؤثر الذي لا يتأثر وهو الاله تعالى وتقدس ، والمتأثر الذي لا يؤثر وهو عالم الأجسام ، فانها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير في شيء أصلا ، وهذان القسمان متباعدان جدا ويتوسطهما قسم ثالث ، وهو الذي يؤثر ويتأثر ، وهو عالم الأرواح ، وخاصة جوهر الأرواح أنها تقبل الأثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ، ثم إنها اذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت فيه ، فتعلق الروح بعالم الأجسام بالتصرف والتدبير فيه ، وتعلقه بعالم الالهيات بالعلم والمعرفة . وقوله تعالى (قد أتيتني من الملك) اشارة الى تعلق النفس بعالم الأجسام وقوله (وعلمتني من تأويل الأحاديث) اشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله ، ولما كان لانهائية درجات هذين النوعين في الكمال والنقصان والقوة والضعف والجللاء والخفاء ، امتنع أن يحصل منهما للانسان إلا مقدار متناه ، فكان الحاصل في الحقيقة بعضا من أبعاض الملك ، وبعضا من أبعاض العلم ، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة «من» لأنها دالة على التبعيض ، ثم قال (فاطر السموات والأرض) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) في تفسير لفظ (الفاطر) بحسب اللغة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم إلى أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرته وأنا ابتدأت حفرها . قال أهل اللغة : أصل الفطر في اللغة الشق يقال : فطر ناب البعير إذا بدا وفطرت الشيء فانفطر ، أى شققته فانشق ، وفطر الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت ، هذا أصله في اللغة ، ثم صار عبارة عن الإيجاد ، لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه .

(البحث الثاني) أن لفظ (الفاطر) قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذى ذكرناه ، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه : أحدها : أنه قال (الحمد لله فاطر السموات والأرض) ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض . وثانيها : أنه تعالى قال (فطرة الله التى فطر الناس عليها) مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب . قال تعالى

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلًا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجودًا إذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودًا، وبإيجاد تلك الصورة صار موجودًا لذلك الكوز. فعلينا أن نكون موجودًا للكون لا يقتضى كونه موجودًا لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجودًا للأجزاء التي منها تركيب السموات والأرض، وإنما صار الينا كونه تعالى موجودًا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن.

واعلم أن قوله (فاطر السموات والأرض) يؤم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول: الواو تفيد الترتيب، ثم العقل يؤكد أيضًا، وذلك لأن تعيين المحيط يوجب تعيين المركز وتعيينه فإنه لا يوجب تعيين المحيط، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لانهاية لها، أما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه. وأيضًا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)

(البحث الثالث) قال الزجاج: نصبه من وجهين: أحدهما: على الصفة لقوله (رب) وهو نداء مضاف في موضع النصب، والثاني: يجوز أن ينصب على نداء ثان.

ثم قال (أنت ولي في الدنيا والآخرة) والمعنى: أنت الذي تتولى إصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الغاني بالملك الباقي، وهذا يدل على أن الإيمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولى لمصالحه هو هو، وحينئذ يبطل عموم قوله (أنت ولي في الدنيا والآخرة)

ثم قال (توفى مسلما وألحقني بالصالحين) وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض) ثم ذكر عقبيه الدعاء وهو قوله (توفى مسلما وألحقني بالصالحين) ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله (الذي خلقني فهو يهدين) فمن هنا إلى قوله (رب هب لي حكما) ثناء على الله ثم قوله (رب هب لي) إلى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا.

(المسألة الثانية) اختلفوا في أن قوله (توفى مسلما) هل هو طلب منه للوفاة أم لا؟ فقال قتادة: سأل ربه اللهوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله، وكثير من المفسرين على هذا القول، وقال ابن رضى الله عنهما: في رواية عطاء يريد إذا توفيتى فتوفى على دين الاسلام، فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه مايدل على أنه طلب الوفاة.

واعلم أن اللفظ صالح للأمرين ولايبعد في الرجل العاقل إذاكمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها: أن كمال النفس الانسانية على مايناه في أن يكون عالما بالالهيات، وفي أن يكون ملكا ومالكا متصرفا في الجسمانيات، وذكرنا أن مراتب التفارث في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس إلا الله وكل مادون ذلك فهو ناقص والناقص اذاحصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقى في القلق وألم الطلب، وإذا كان الكمال المطلق ليس الا الله، وما كان حصوله للانسان ممتعا لزم أن يبقى الاندأنا أبدا في قلق الطلب وألم التعب فاذا عرف الانسان هذه الحالة عرف أنه لا سبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس الا بالموت، فحينئذ يتمنى الموت.

(والسبب الثاني) لتنى الموت أن الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمة الدنيا إلا أن حاصل كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة: أحدها: أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها. وثانيها: أنها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات. وثالثها: أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل، فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات، ولما عرف العاقل أنه لا سبيل إلى تحصيل هذه اللذات الامع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات.

(والسبب الثالث) وهو الأقوى عند لمحققين رحمهم الله أجمعين أن هذه اللذات الجسمانية لاحقيقة لها، وإنما حاصلها دفع الآلام، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع، ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المنى في أوعية المنى. ولذة الامارة والرياسة عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة وإذا كان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الألم لاجرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الانسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه الأحوال الخسيسة.

(والسبب الرابع) أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع. لذة الأكل ولذة الوقاع

ولذة الرياضة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة . أما لذة الأكل ففيها عيوب : أحدها : أن هذه اللذات ليست قوية فان الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام . وثانيها : أن هذه اللذة لا يمكن بقاءها فان الانسان إذا أكل شبع وإذا شبع لم يبق شوقه للتذاذ بالآكل فهذه اللذة ضعيفة ، ومع ضعفها غير باقية . وثالثها : أنها في نفسها خسيئة فان الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك أنه شيء منفر مستقذر ثم لما يصل إلى المعدة تظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والتنن والعفونة . وذلك أيضاً منفر . ورابعها : أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة ، فيها فان الروث في مذاق الجمل كاللوزنج في مذاق الانسان وكما أن الانسان يكره تناول غذاء الجمل ، فكذلك الجمل يكره تناول غذاء الانسان ، وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس . وخامسها : أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة ، والحاجة نقص وافر . وسادسها : أن الأكل يستحق عند العقلاء . قيل : من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمه ما يخرج من بطنه ، فهذا هو الإشارة المختصرة في معايب الأكل ، وأما لذة النكاح ، فكل ما ذكرناه في الأكل حاصل ههنا مع أشياء أخرى ، وهي ان النكاح سبب لحصول الولد ، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال في طلب المال بطرق لانهاية لها ، وربما صارها لكا بسبب طلب المال ، وأما لذة الرياضة فعيوبها كثيرة والذي نذكره ههنا سبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادماً مأوراً ويجب أن يكون مخدوماً آمراً ، فاذا سعى الانسان في أن يصير رئيساً آمراً . كان ذلك دالاً على مخالفة كل ماسواه ، فكأنه ينازع كل الخلق في ذلك ، وهو يحاول تحصيل تلك الرياضة ، وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون ابطاله ودفعه ، ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر واذا كان كذلك كان حصول هذه الرياضة كالمعتذر ولو حصل فانه يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب وكان صاحبها عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها في الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال .

واعلم أن العاقل اذا تأمل هذه المعاني علم قطعاً أنه لاصلاح له في طلب هذه اللذات والسعي في هذه الخيرات البتة . ثم إن النفس خلفت مجبولة على طلبها ، والعشق الشديد عليها ، والرغبة التامة في الوصول اليها وحينئذ يتعقد ههنا قياف ، وهون أن الانسان مادام يكون في هذه الحياة الجسمانية فانه يكون ظالماً لهذه اللذات وما دام يطلبها كان في عين الآفات وفي لجة الحسرات ، وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضاً مكروه . وحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب في الأمور

المرغبة في الموت أن موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا يمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة . أما سعادات الآخرة فهي أنواع كثيرة غير متناهية .

قال الامام نجر الدين الرازى رحمه الله عليه : وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه . أنا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ، ولو فتحت البات وبالغت في عيوب هذه اللذات الجسمانية فرمما كتبت المجلدات وما وصلت إلى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظباً في أكثر الأوقات على ذكر هذا الذى ذكره يوسف عليه السلام . ودو قوله (رب قد آتيتنى من الملك وعلبتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفى مسلماً والحقنى بالصالحين)

(المسألة الثالثة) تمسك أصحابنا فى بيان أن الايمان من الله تعالى بقوله توفى مسلماً وتقريره أن تحصيل الاسلام وإبقائه إذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسداً . وتقريره كأنه يقول افعل يامن لا يفعل والمتزلة أبداً يشنعون علينا ويقولون إذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع أنك لست فاعلاً ، فنحن نقول ههنا أيضاً إذا كان تحصيل الايمان وإبقاؤه من العبد لا من الله تعالى ، فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائى والكمبى معناه : اطلب اللطف لى فى الاقامة على الاسلام إلى أن أموت عليه . فهذا الجواب ضعيف لأن السؤال وقع على الاسلام لحمله على اللطف عدول عن الظاهر . وأيضاً كل مافى المقدر من اللطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالاً .

(المسألة الرابعة) لقائل أن يقول : الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام ، فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وأنه لا يجوز .

والجواب : أحسن ما قيل فيه إن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاسلام ويرضى بقضاء الله وقدره ، ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب فى هذا الباب ، وهذه الحالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر ، فالمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى .

(المسألة الخامسة) أن يوسف عليه السلام كان من أكبر الأنبياء عليهم السلام ، والصلاح أول درجات المؤمنين ، فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية . قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من المفسرين : يعنى بأبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ، والمعنى : الحقنى بهم فى ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم ، وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات ، وهو أن النفوس المغارقة اذا أشرقت بالأنوار الالهية واللوامع القدسية ، فإذا كانت متناسبة متشاكلية

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

انعكس النور الذي في كل واحدة منها الى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة ، فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء ، ومثال تلك الأحوال المرأة الصقيلة الصافية اذا وضعت وضعا متى أشرفت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها الى الأخرى ، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور ، وينتهي في الاشراق والبريق اللبعان الى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة ، فكذا ههنا .
قوله تعالى ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ اعلم أن قوله (ذلك) رفع بالابتداء وخبره (من أنباء الغيب - ونوحيه اليك) خبر ثان (وما كنت لديهم) أي ما كنت عند اخوة يوسف (إذ أجمعوا أمرهم) أي عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام في هذا اللفظ عند قوله (فأجمعوا أمرهم) وقوله (وهم يمكرون) أي يوسف ، واعلم أن المقصد من هذا الإخبار عن الغيب فيكون معجزا . بيان أنه إخبار عن الغيب أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولم يتلذذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فأتيا به هذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ، ومن غير أن يقال : إنه كان حاضرا معهم لا بد وأن يكون معجزا وكيف يكون معجزا وقد سبق تقرير هذه المقدمة في هذا الكتاب مرارا ، وقوله (وما كنت لديهم) أي وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم ، لأن كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان معهم .
قوله تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من أجر إن هو الا ذكر للعالمين وكان من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا ذكرها فربما آمنوا ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) قال أبو بكر بن الأنباري : جواب (لو) محذوف ، لأن جواب (لو) لا يكون مقدا عليها ، فلا يجوز أن يقال : قمت لوقت . وقال الفراء في المصادر يقال : حرص يحرص حرصا ، ولغة أخرى شاذة : حرص يحرص حريصا ، ومعنى الحرص : طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد . وقوله (وما تسألهم عليه من أجر) معناه ظاهر وقوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) أي هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ، ومعناه : أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ، ثم لا تطلب منهم مالا ولا جملا ، فلو كانوا عقلاء لقبوا ولم يتمردوا . وقوله تعالى (وكأين من آية في السموات والأرض يبرون عليها وهم عنها معرضون) يعني : أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم بملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إنهم يبرون عليها ولا يلتفتون إليها .

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الاجرام الفلكية وإما الاجرام العنصرية . أما الاجرام الفلكية : فهي قسمان : إما الأفلاك وإما الكواكب . أما الأفلاك : فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع ، وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها . إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات . وأما الاجرام السكونية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والظلمات والنور ، وأما الدلائل المأخوذة من الاجرام العنصرية ، فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من الموالييد وهي أقسام : أحدها : الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح . وثانيها : المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها . وثالثها : النبات وخاصة الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصة مخصوصة . ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها . وخامسها : تشریح أبدان الناس وتشریح القوى الانسانية وبيان المنفعة

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٠٨»

الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل . ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن
الملوك الذين استولوا على الأرض وحربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر
ولا أثر ، ثم بقى الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوى على شرح
هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشرى لا يبنى بالاحاطة به فلهذا
السبب ذكره الله تعالى على سبيل الإبهام قال صاحب الكشف قرى (والأرض) بالرفع على أنه
مبتدأ و(يمرون) عليها خبره وقرأ السدى (والأرض) بالنصب على تقدير أن يفسر قوله (يمرون عليها)
بقولنا يطوفونها ، وفي مصحف عبدالله (والأرض يمشون عليها) برفع الأرض .

أما قوله ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ فالمعنى : أنهم كانوا مقرين بوجود الاله
بدليل قوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكا
في العبودية ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضا أنه قال :
نزلت هذه الآية في تلبية مشركى العرب لأنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك
هو لك تملكه وما ملك ، وعنه أيضا أن أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته
فلم يوحدوا ، بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت
اليهود : ربنا الله وحده وعزير ابن الله ، وقالت النصارى : ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح
ابن الله ، وقال عبدة الشمس والقمر : ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا ، وقال المهاجرون والانصار
ربنا الله وحده لا شريك معه ، واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الايمان عبارة عن الافرار
باللسان فقط ، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون ، وذلك يدل على أن الايمان عبارة
عن مجرد الافرار باللسان ، وجوابه معلوم ، أما قوله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى
عقوبة تغشاهم وتنسبط عليهم وتغمرهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة . وبغته نصب على الحال
يقال : بغتهم الأمر بغتاً وبغته إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله (وهم لا يشعرون) كالتأكيد
لقوله (بغته)

قوله تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا
من المشركين﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

قال المفسرون: قل يا محمد لهم هذه الدعوة التي أَدْعُو إليها، والطريقة التي أنا عليها سبيلي
وسنتي ومنهاجي، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، ومثله قوله تعالى
(ادع إلى سبيل ربك)

واعلم أن السبيل في أصل اللغة الطريق، وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى
الجنة ادعوا الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعني إلى سيرتي وطريقي وسيرة أتباعي الدعوة
إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن
الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى
هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام «العلماء أمناء الرسل
على عباد الله من حيث يحفظون لما تدعونهم إليه» وقيل أيضا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله
(أدعوا إلى الله) ثم ابتداء وقال (على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقوا، (وسبحان الله) عطف على قوله
(هذه سبيلي) أي قل هذه سبيلي. وقل سبحان الله. تنزيها لله عما يشركون. وما أنا من المشركين
الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا وكفؤا وولدا، وهذه الآية تدل على أن حرقة الكلام وعلم الأصول
حرقة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا يعقلون﴾

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم (نوحى) بالنون، والباقرن بالياء (أفلا يعقلون) قرأ نافع وابن
كثير وأبو عمرو، ورواية حفص عن عاصم: (تعقلون) بالتاء على الخطاب، والباقرن:
بالياء على الغائب.

واعلم أن من جملة شبه منكرى نبوته عليه الصلاة والسلام أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث
ملكا، ففقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) فلما كان الكل

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مِنْ
نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ ﴿١١٠﴾

هكذا فكيف تعجبوا في حقلك يا محمد والاية تدل على أن الله ما بعث رسولا الى الخلق من النساء
وأىضا لم يبعث رسولا من أهل البادية . قال عليه الصلاة والسلام «من بدأ جفا ومن اتبع
الصيد غفل»

ثم قال ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الى مصارع الأمم المكذبة وقوله (ولدار الآخرة
خير) والمعنى دار الحالة الآخرة ، لأن للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ، ومثله قوله صلاة
الأولى أى صلاة الفريضة الأولى ، وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مرارا .
قوله تعالى ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾

اعلم أنه قرأ عاصم وحزمة والكسائي (كذبوا) بالتخفيف ، وكسر الذال والباقون بالتحديد ،
ومعنى التخفيف من وجهين : أحدهما : أن الظن واقع بالقوم ، أى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان
القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر .

فان قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم .
قلنا : ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وإن شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله (أفلم يسيروا
الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيكون الضمير عائدا إلى الذين من قبلهم من
مكذبي الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان .

﴿والوجه الثانى﴾ أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل
منقول عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قالوا : وإنما كان الأمر كذلك لاجل
ضعف البشرية إلا أنه بعيد ، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب ، بل يخرج بذلك عن الإيمان
فكيف يجوز مثله على الرسل ، وأما قراءة التشديد ففيها وجهان : الأول : أن الظن بمعنى اليقين ،
أى وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الايمان بعد ذلك ، حيثند دعوا عليهم فهناك
أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى
(الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) أى يتيقنون ذلك . والثانى : أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم فظن الرسل ان الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضى الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية ، روى أن ابن أبي مليكة نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : وظن الرسل أنهم كذبوا ، لأنهم كانوا بشرا الأتري إلى قوله (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) قال فذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها فأنكرته وقالت : ما وعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة .

وأما قوله ﴿جاءهم نصرنا﴾ أى لما بلغ الحال الى الحد المذكور (جاءهم نصرنا فنجى من نشاء) قرأ عاصم وابن عامر (فنجى من نشاء) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله ، واختاره أبو عبيدة لأنه في المصحف بنون واحدة . وروى عن الكسائي : إدغام إحدى النونين في الأخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء ، قال بعضهم : هذا خطأ لأن النون متحركة فلا تدغم في الساكن ، ولا يجوز إدغام النون في الجيم ، والباقون بنونين ، وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى : ونحن نفعل بهم ذلك .

واعلم أن هذا حكاية حال ، الأتري أن القصة فيما مضى ، وإباحكى فعل الحال كما أن قوله (هذا من شيعته وهذا من عدوه) إشارة الى الحاضر والقصة ماضية .

قوله تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم الى الطرف المجهول ، والمراد منه التأمل والتفكير ، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور : الأول : أن الذى قدر على إعزاز يوسف بعد إلقاءه في الحب ، وإعلائه بعد حبسه في السجن . وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم ، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ، لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته . الثانى : أن الاخبار عنه جار مجرى الاخبار عن الغيب ، فيكون معجزة دالة على صدق محمد

محمد صلى الله عليه وسلم ، الثالث : أنه ذكر في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) ثم ذكر في آخرها (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الباب) تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة ، والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه ، ومن الناس من قال : المراد قصص الرسل لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام .

فان قيل : لم قال (عبرة لأولى الألباب) مع أن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوى عقول وأحلام ، وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك .

قلنا : إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار ، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل ، أو نقول : المراد من أولى الألباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها واتفَعوا بمعرفة ما ، لأن (أولى الألباب) لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرناه ، واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات .

(الصفة الأولى) كونها (عبرة لأولى الألباب) وقد سبق تقريره .

(الصفة الثانية) قوله (ما كان حديثا يفترى) وفيه قولان : الأول : أن المراد الذى جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلذذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت ، والثاني : أن المراد أنه ليس يكذب في نفسه ، لأنه لا يصح الكذب منه ، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال (ولكن وتصديق الذى بين يديه) وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية ، ونصب تصديقا على تقدير ولكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى (ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله) قاله الفراء والزجاج ، ثم قال : ويجوز رفعه في قياس النحو على معنى : ولكن هو تصديق الذى بين يديه :

(والصفة الثالثة) قوله (وتفصيل كل شيء) وفيه قولان : الأول : المراد وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته ، والثاني : أنه عائد إلى القرآن ، كقوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فان جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن ألبق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ، ويكون المراد : ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين . قال الواحدي على التفسيرين جميعا : فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله (ورحمته وسعت كل شيء) يريد : كل شيء يجوز أن يدخل فيها وقوله (وأوتيت من كل شيء)

(الصفة الرابعة والخامسة) كونها هدى في الدنيا وسببا لحصول الرحمة في القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كما قرناه في قوله (هدى للمتقين) والله أعلم بالصواب ،
 واليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم
 الاربعاء السابع من شعبان ، ختم بالخير والرضوان ، سنة احدى وستمائة ، وقد كنت ضيق الصدر
 جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والاحسان
 وذكرت هذه الايات في مرثيته على سبيل الایجاز :

فلو كانت الأقدار منقاداً لنا	فدينك من حماك بالروح والحسم
ولو كانت الأملاك تأخذ رشوة	خضعنا لها بالرق في الحكم والاسم
ولكنه حكم إذا حان حينه	سرى من مقر العرش في لجة اليم
سأبكي عليك العمر بالدم دائماً	ولم أنحرف عن ذلك في الكيف والكم
سلام على قبر دفنت بتربه	وأتحفك الرحمن بالكرم الجم
وما صدقني عن جعل جفني مدفناً	لجسمك إلا أنه أبدا يهيم
وأقسم إن مساو رفاقي ورمي	أحسوا بنار الحزن في مكن العظم
حياتي وموتي واحد بعد بعدكم	بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بما أمضى الإله بحكمه	لعلمي بأنى لا يجاوزني حكمي

وأنا أوصى من طالع كتابي واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يحص ولدى ويخصني
 بقرارة الفاتحة ، ويدعو لمن قدمات في غربة بعيدا عن الاخوان والاب والام بالرحمة والمغفرة
 فاني كنت أيضاً كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
 كثيراً آمين والحمد لله رب العالمين .

سورة الرعد

مدنية ، وآياتها : ٤٣ ، نزلت بعد سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر
الناس لا يؤمنون «١»

سورة الرعد

أربعون وثلاث آيات مكة

سوى قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) وقوله (ومن عنده علم
الكتاب) قال الأصم هي مدنية بالاجماع سوى قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)
اعلم أنا قد تكلمنا في هذه الألفاظ قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه : أنا الله أعلم ، وقال
في رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن ، وقد أمالها أبو عمرو والكسائي وغيرهما وفحما جماعة منهم
عاصم وقوله (تلك) إشارة إلى آيات السورة المسماة بالرعد . ثم قال : إنها آيات الكتاب . وهذا
الكتاب الذي أعطاه محمداً بأن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر وقوله (والذي أنزل إليك
من ربك) مبتدأ وقوله (الحق) خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية في نفي القياس فقال : الحكم
المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى (ومن لم يحكم

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
 بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وبالإجماع لا يكفر قبت أن الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله . وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون حقاً لأجل أن قوله (والذي أنزل إليك من ربك الحق) يقتضى أنه لاحق إلا ما أنزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب أن لا يكون حقاً ، وإذا لم يكن حقاً وجب أن يكون باطلا لقوله تعالى (فإذا بعد الحق إلا الضلال) ومثبتو القياس يجيئون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضاً من عند الله ، لأنه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذي دل عليه القياس نازلاً من عند الله . ولما ذكر تعالى أن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين أن أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد .

قوله تعالى ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم بلقاء ربكم توقنون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبيه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : الله مبتدأ والذي رفع السموات خبره بدليل قوله (وهو الذي مد الأرض) ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات) خبراً بعد خبر ، وقال الواحدي : العمدة الأساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعماد مثل اهاب وأهب ، وقال الفراء : العمدة والعمد جمع العمود مثل أديم وادم وادم ، وقضيم وقضم وقضم ، والعماد والعمود ما يعمد به الشيء ، ومنه يقال : فلان عمد قومه إذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم ﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى استدلال بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الأرض وبأحوال النبات ، أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى : أن هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذواتها لوجهين . الأول : أن الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز . والثاني : أن الخلاء لانهايه له والاحياز المعترضة في ذلك

الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز بأسرها متشابهة فثبت أن حصول الأجرام الفلكية في أحيازها وجهاتها ليس أمراً واجباً لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح ، ولا يجوز أن يقال إنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها ، وإلا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور إلى مالا نهائية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية في أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك . فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر . ويدل أيضاً على أن الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز ، لأنه لو كان حاصلًا في حيز معين لامتنع أن يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الأحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله في حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص . ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، فثبت أنه لو كان حاصلًا في الحيز المعين لكان حادثاً ، وذلك محال ، فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة ، وأيضا كل ما سواك فهو سماء ، فلو كان تعالى موجوداً في جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخلك تحت قوله (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) فكل ما كان محتصاً بجهة فوق جهة فهو محتاج إلى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق . أما قوله (ترونها) ففيه أقوال : الأول : أنه كلام مستأنف والمعنى : رفع السموات بغير عمد . ثم قال (ترونها) أي وأتم ترونها أي مرفوعة بلا عمد . الثاني : قال الحسن في تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره : رفع السموات ترونها بغير عمد .

واعلم أنه إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير إلى التقديم والتأخير غير جائز . والثالث : أن قوله (ترونها) صفة للعمد ، والمعنى : بغير عمد مرئية ، أي للسموات عمد . ولكننا لانراها قالوا : ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لاترونها ، وهذا التأويل في غاية السقوط ، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الاله القادر . ولو كان المراد ما ذكره لما ثبتت الحجة ؛ لأنه يقال إن السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة لثبوتها على وجود الاله ، وعندى فيه وجه آخر أحسن من الكل . وهو أن العباد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الاجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالى بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى . فتج أن يقال إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمدهى قدرة الله تعالى وحفظه وتدييره وإبقاؤه إياها في الجو العالى وأنهم لا يرون ذلك التدبير

ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك .

وأما قوله ﴿ثم استوى على العرش﴾ فاعلم أنه ليس المراد منه كونه مستقراً على العرش ، لأن المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهداً معلوماً وأن أحداً ما رأى أنه تعالى استقر على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله ، بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز . وأيضاً فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة ، وذلك يوجب التغيير وأيضاً الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجاً مضطرباً ثم صار مستوياً وكل ذلك على الله محال ، فثبت أن المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني أن من فوق العرش إلى ماتحت الترى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج إليه . وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر : فهو قوله سبحانه وتعالى (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة :

﴿النوع الأول﴾ قوله (وسخر الشمس والقمر) وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام ، وذلك لأن الأجسام متماثلة فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص . وأيضاً أن كل واحدة من تلك الحركات مخصصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضاً من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحيان وتسكن في البعض فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لا بد فيه أيضاً من مرجح .

﴿الوجه الثالث﴾ وهو أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر .

﴿والوجه الرابع﴾ أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة إلى الشمال وبعضها مائلة إلى الجنوب وهذا أيضاً لا يتم إلا بتدبير كامل وحكمة بالغة .

﴿النوع الثاني﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله (كل يجري لأجل مسمى) وفيه قولان : الأول : قال ابن عباس : للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر ، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً ، فالمراد بقوله (كل يجري لأجل مسمى) هذا . وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه

الكواكب سيرا خاصا إلى جهة خاصة بمقدار خاص من للسرعة والبطء ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك .

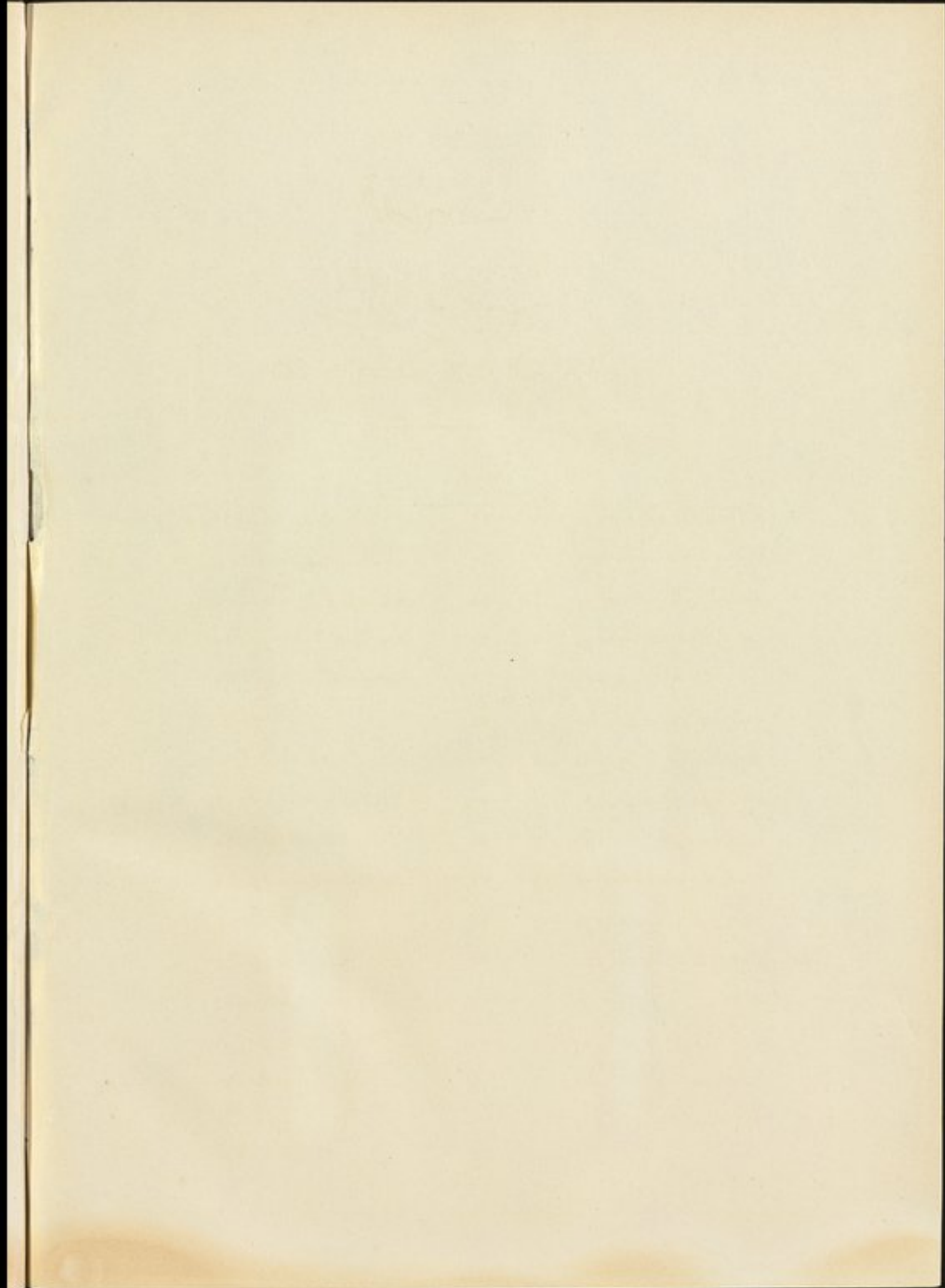
(والقول الثاني) أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة ، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت . وإذا السماء انشقت . وإذا السماء انفطرت . وجمع الشمس والقمر) وهو كقوله سبحانه وتعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الأمر) وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدير نوع آخر من أحوال العالم والأولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالايجاد والاعدام وبالاحياء والاماته والاغناء والافقار ، ويدخل فيه إنزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد ، وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لأن هذا العالم المعلوم من أعلى العرش إلى ماتحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله تعالى ، والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ، ليس إلا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فانه لا يمكنه تدبير شيء آخر إلا البارى سبحانه وتعالى فانه لا يشغله شأن عن شأن أما العاقل فانه إذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الاجسام وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للحدثات والممكنات .

ثم قال (يفصل الآيات) وفيه قولان : الأول : أنه تعالى بين الآيات الدالة على إلهيته وعلمه وحكمته . والثاني : أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان : أحدهما : الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك والشمس والقمر والكواكب ، وهذا النوع من الدلائل هو الذى تقدم ذكره . والثاني : الموجودات الحادثة المتغيرة ، وهى الموت بعد الحياة ، والفقر بعد الغنى ، والحرم بعد الصحة ، وكون الأحقق فى أهنا العيش ، والعاقل الذكى فى أشد الأحوال ، فهذا النوع من الموجودات والأحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة . وقوله (يفصل الآيات) إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل .

ثم قال (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فىهى أيضاً تدل على صحة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى بروى أن رجلا قال لعل بن أبى طالب رضوان الله عليه أنه تعالى كيف

يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويحجب دعاءهم الآن دفعة واحدة . وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالى وان كان الخلق عاجزين عنه ، وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ماتحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ومن الاصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى وقد مر تقريره في هذا الكتاب مرارا وأطوارا .

تم الجزء الثامن عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع عشر ، وأوله قوله تعالى
(وهو الذى مد الأرض) من سورة الرعد . أعان الله على إكمال



فهرست

الجزء الثامن عشر

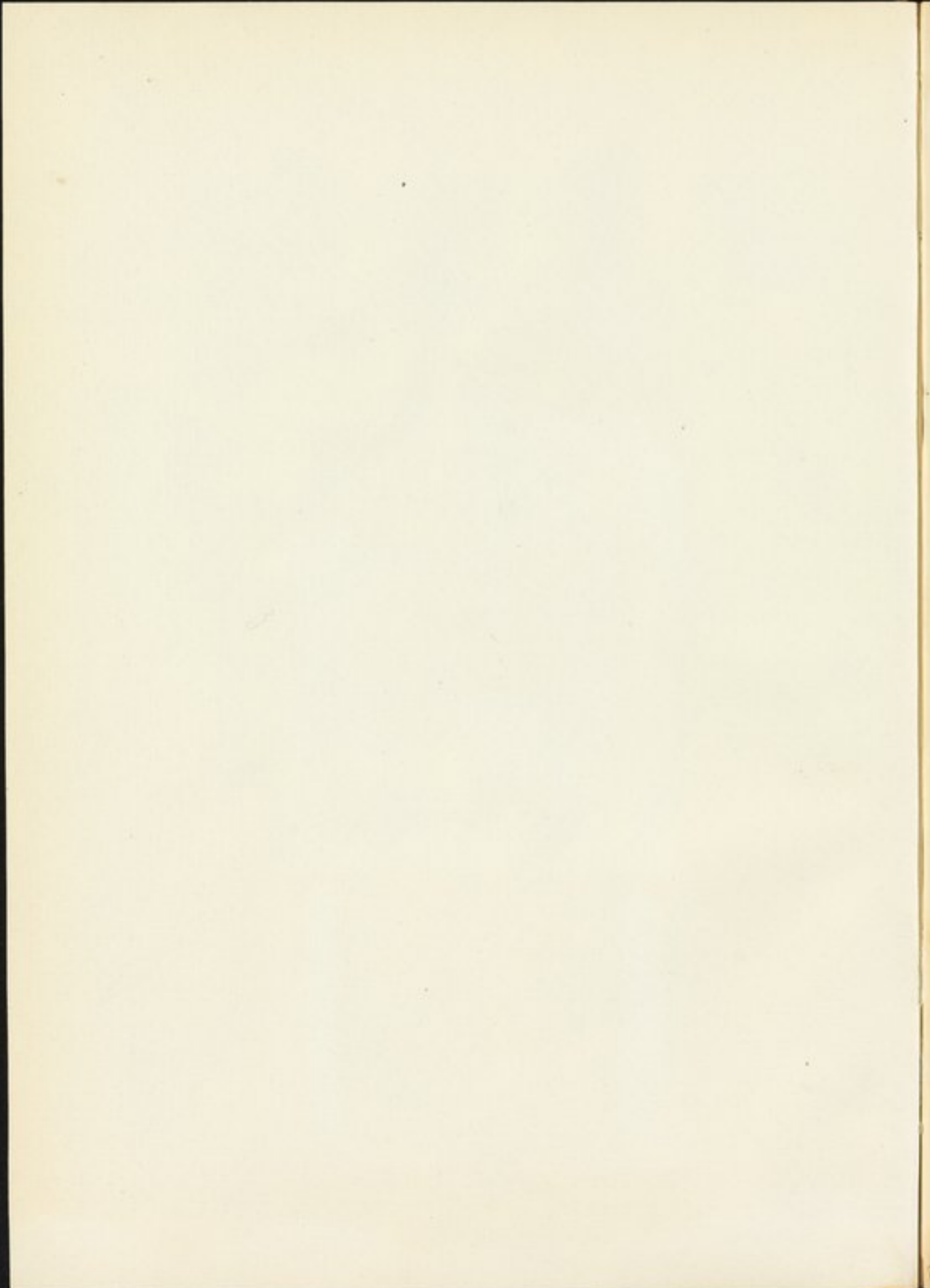
من التفسير الكبير للامام الفخر الرازي

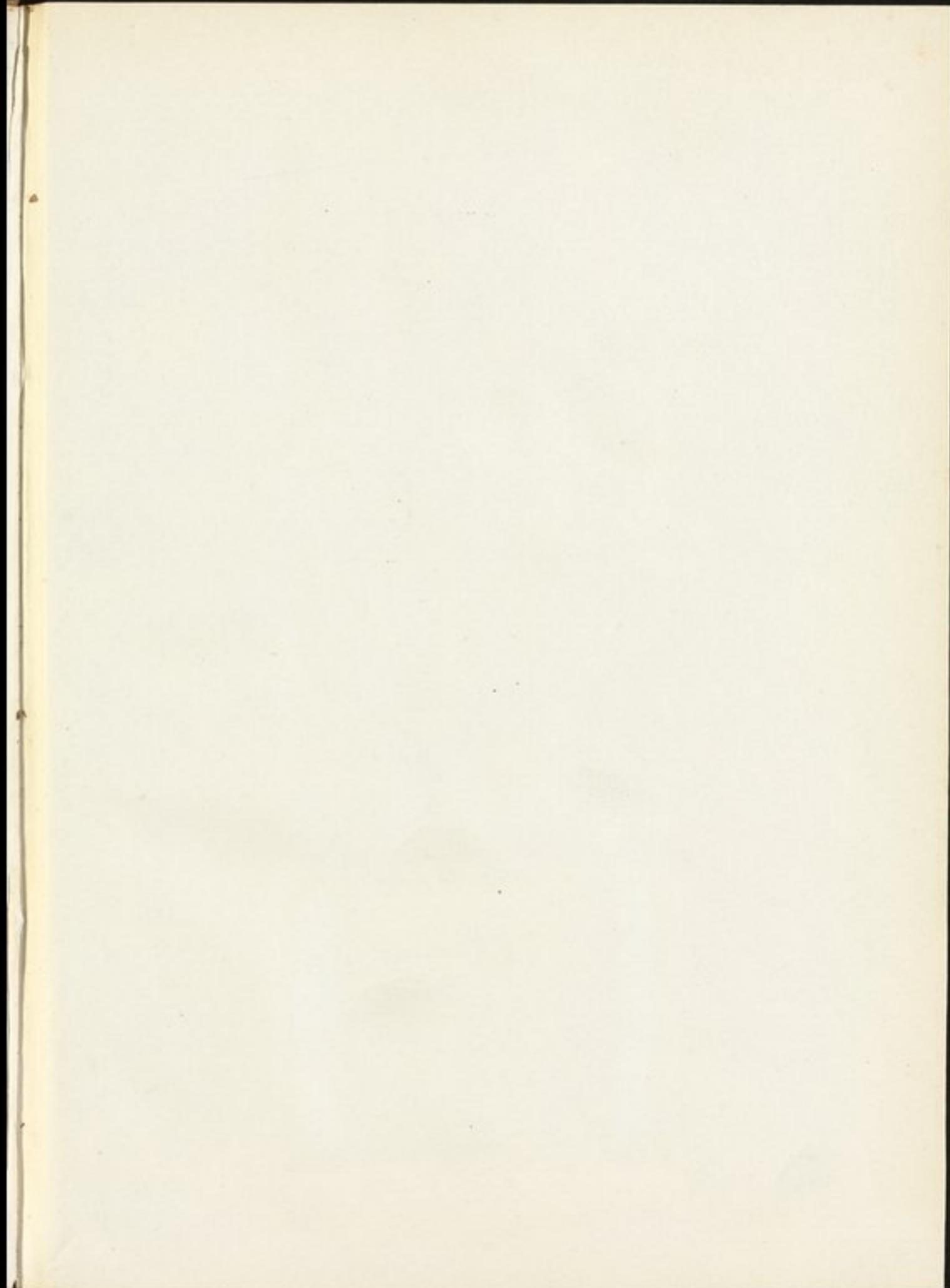
صفحة		صفحة
» ١٩	«وياقوم هذه ناقة الله» الآية	٢ قوله تعالى «ونادى نوح ربه» الآية
» ٢٠	«فلما جاء أمرنا نجينا صالحا»	» ٥ «قال رب إني أعوذ بك أن
» ٢١	«وأخذ الذين ظلموا الصيحة»	أسألك ما ليس لي به علم» الآية
» ٢٢	«ولقد جاءت رسلنا إبراهيم	» ٦ «قال يانوح اهبط بسلام منا»
بالبشرى» الآية	» ٨ «تلك من أبناء الغيب نوحيا	إليك» الآية
» ٢٤	«فلما رأى أيديهم لا تصل إليه»	» ٩ «وإلى عاد أخاهم هود» الآية
» ٢٧	«قالت يا بولقي أألدو أنا عجوز»	» ١١ «وياقوم استغفروا ربكم» الآية
» ٢٨	«فلما ذهب عن إبراهيم الروع»	» ١٢ «قالوا يا هود ما جئنا بينة» الآية
» ٢٩	«إن إبراهيم لحليم أواه منيب»	» ١٤ «فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت
» ٣٠	«يا إبراهيم أعرض عن هذا»	به اليكم» الآية
» ٣١	«وجاءه قومه يهرعون إليه»	» ١٥ «وتلك عاد جحدوا بآيات
» ٣٤	«قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك	رهم وعصوا رسله» الآية
من حق» الآية	» ٣٥ «قالوا يا لوط إنا نرسل ربك»	» ١٦ «وإلى ثمود أخاهم صالح» الآية
» ٣٧	«فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها	» ١٨ «قال يا قوم أرايتم إن كنت
» ٣٩	«وإلى مدين أخاهم شعيب» الآية	علي بينة من ربي» الآية

صفحة	صفحة
٨٦	٤١
قوله تعالى «إذ قال يوسف لآبيه يا أبت»	قوله تعالى «ويا قوم أوفوا المكيال والميزان»
٨٨	٤٢
قال يابنى لا تقصص رؤياك»	«قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك»
٩١	٤٤
«لقد كان في يوسف وإخوته»	«قال يا قوم إن كنت على بينة»
٩٤	٤٨
«اقتلوا يوسف» الآية	«قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا»
٩٦	٥٠
«قالوا يا أبا ناه الك لا تأمنا على»	«قال يا قوم أرهطى أعز عليكم»
٩٧	٥١
«قال إني ليحزنتى أن تذهبوا	«ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا»
به» الآية	«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا»
٩٨	٥٤
«فلما ذهبوا به وأجمعوا أن	«وأتبعوا في هذه لعنة» الآية
يجعلوه» الآية	«ذلك من أبناء القرى» الآية
١٠٠	٥٧
«وجاؤا أباهم عشاء يكون»	«وكذلك أخذ ربك» الآية
١٠٤	٥٩
«وجاءت سيارة» الآية	«يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه»
١٠٨	٦٢
«وقال الذى اشتراه من مصر»	«وأما الذين شقوا فى النار»
١١٠	٦٧
«ولما بلغ أشده آتياه حكما	«وأما الذين سعدوا فى الجنة»
وعلماء» الآية	«فلا تك فى مرة بما يعبده هؤلاء»
١١٢	٦٨
«وراودته التى هو فى بيتها	«وإن كلا لما ليو فىهم» الآية
عن نفسه» الآية	«فاستقم كما أمرت» الآية
١١٤	٧٢
«ولقد همت به وهم بها» الآية	«وأقم الصلاة طرفى النهار»
١٢١	٧٤
«واستبقا الباب وقدت قميصه	«فلولا كان من القرون من قبلكم»
من دبر» الآية	«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم»
١٢٥	٧٩
«وقال نسوة فى المدينة» الآية	«وكلا نقص عليك من أنباء الرسل
١٢٦	٨٠
«فلما سمعت بمكرهن أرسلت	«وقل للذين لا يؤمنون اعملوا»
اليهن» الآية	
١٢٩	٨٣
«قالت فذلكن الذى لمتنى فيه»	سورة يوسف
١٣٠	٨٣
«قال رب السجن أحب إلى مما	«الرتك آيات الكتاب المبين»
يدعوتنى إليه» الآية	٨٤
	«نحن نقص عليك» الآية

صفحة	صفحة
١٦٥	١٣٢
قوله تعالى «وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه» الآية	قوله تعالى «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات» الآية
»	»
١٦٦	١٣٣
«ولما جهزهم بجهازهم» الآية	«ودخل معه السجن فتيان» الآية
»	»
١٦٧	١٣٥
«فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى» الآية	«قال لاياتيكما طعام ترزقانه»
»	»
١٦٨	١٣٩
«وقالوا لفتياناهما جعلوا بضاعتهم فى رحالهم» الآية	«يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون» الآية
»	»
١٧٠	١٤١
«ولما فتحوها متاعهم»	«ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها» الآية
»	»
١٧١	١٤٢
«قال لن أرسله معكم»	«يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا» الآية
»	»
١٧٢	١٤٣
«وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد» الآية	«وقال للذى ظن أنه ناج منهما»
»	»
١٧٦	١٤٦
«ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم» الآية	«وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان: الآية
»	»
١٧٧	١٤٨
«ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه» الآية	«وقال الذى نجا منهما» الآية
»	»
١٨٠	١٤٩
«قالوا تالله لقد علمت ما جئنا لنفسد فى الأرض»	«قال تزرعون سبع سنين دأبا»
»	»
١٨١	١٥١
«فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه»	«وقال الملك ائتوني به» الآية
»	»
١٨٣	١٥٤
«قالوا فان يسرق فقد سرق أخ له من قبل»	«ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب»
»	»
١٨٥	١٥٦
«قالوا يا أيها العزيز»	«وما أبرئ نفسي» الآية
»	»
١٨٦	١٥٨
«فلما استبأ سوامته خلصوا نجيا»	«وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي» الآية
»	»
١٨٨	١٦٠
«ارجعوا إلى أيكم» الآية	«قال اجعلنى على خزائن الأرض» الآية
»	»
١٩٠	١٦٢
«واسأل القرية التى كنا فيها»	«وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض» الآية
»	»
١٩١	١٦٤
«قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا»	«ولا اجر الاخرة خير» الآية

صفحة		صفحة
٢١٦	» «رب قد آتيتني من الملك»	١٩٢ قوله تعالى «وتولى عنهم وقال يا أسنى
٢٢٢	» «ذلك من أنباء الغيب» الآية	على يوسف» الآية
٢٢٣	» «وكأين من آية في السموات والأرض» الآية	١٩٤ » «قال إنما أشكو بثي وحزني الى الله» الآية
٢٢٤	» «قل هذه سبيلي أدعو الى الله»	» ١٩٦ » «قالوا لله تفوت ذكر يوسف»
٢٢٥	» «وما أرسلنا من قبلك الا رجلا» الآية	» ٢٠٠ » «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزير» الآية
٢٢٦	» «حتى اذا استيأس الرسل»	» ٢٠٢ » «قال هل علمتم يوسف وأخيه»
٢٢٧	» «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» الآية	» ٢٠٤ » «قالوا لله لقد آثرك الله علينا»
٢٣٠	سورة الرعد	» ٢٠٦ » «قال لا تريب عليكم اليوم»
٢٣٠	» «المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك» الآية	» ٢٠٧ » «ولما فصلت العير» الآية
٢٣١	» «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها» الآية	» ٢٠٨ » «فلما أن جاء البشير» الآية
٢٣٥	» «لعلكم بلقاء ربكم توقنون»	» ٢٠٩ » «قالوا يا أنا استغفر لنا ذنوبنا»
		» ٣١٠ » «فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه» الآية
		» ٢١٢ » «ورفع أبويه على العرش» الآية





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038146630

893.7K84
DR741
v. 18

JUN 26 1964

